

التفسير في العلوم الاجتماعية دراسة في فلسفة العلم

دكتورة علا مصطفى أنور



دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين الميراني - البغداد
٩٠٤٦٩٦ / ت

التفسير في العلوم الاجتماعية دراسة في فلسفة العلم

تأليف

د. علام مصطفى أنور

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م

دار الثقافة والنشر والتوزيع
م. ش. ع. سيف الدين المراني - الغزالة
القاهرة ت / ٩٠٤٦٩٦



« شكر وتقدير »

بدأت هذه الدراسة على يد استاذى الدكتور زكريا ابراهيم رحمه الله . ومهما نسيت فلن انسى فضله على وتشجيعه لى ، فقد ساعدنى فى اختيار هذا الموضوع ووجهنى فى فترة كنت فيها لم ازل بعد فى بداية الطريق ، فكان الأستاذ والمعلم والأخ الأكبر .

ولما تولتنى الأستاذة الدكتورة اميرة مطر بالاشراف والرعاية اعطتنى من الثقة بالنفس ما دفعنى الى مزيد من العمل ومزيد من الجهد . ويكفى ما قدمته لى من وقت وما اتاحته لى من مناقشات وما افاضته على من علم وفكر . فكانت لى خير مرشد وخير استاذ .

واذكر للأستاذ الدكتور سيد عويس رعايته وتشجيعه المستمر ، فهو الذى فتح امامى مجال البحث الاجتماعى وارشدنى الى الاسلوب العلمى فى التفكير والعمل . ومنه تعلمت حب العلم والفكر واحترام العمل .

اما الأستاذة الدكتورة نازلى اسماعيل فاقدم لها خالص شكرى وتقديرى لتفضلها بالسماع لى أن اتردد عليها فاستزيد من حديثها علما ومن فكرها معرفة .

ويرجع الى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وعلى راسه الأستاذ الدكتور احمد خليفه الفضل فى اتجاهاى الى هذا التخصص . وانى لأشكر للمركز ولجميع العاملين فيه ما اتاحوه لى من فرص للمشاركة فى العمل العلمى وما قدموه لى من امكانيات وتسهيلات .

فلهم جميعا احترامى وتقديرى .

« المقدمة »

اهتمت الفلسفة على مر العصور بكافة اشكال الفكر ، ابتداء من الفكر الأسطوري وانتهاء بالفكر العلمى . وكان لابد للفلسفة فى تاريخنا المعاصر أن تمتد الى داخل كافة مجالات العلم أخذة فى الاعتبار العلوم الاجتماعية . فجاءت دراسة فلسفة العلوم الاجتماعية وليدة هذا الاهتمام من جانب الفلاسفة للاجابة على الأسئلة التى يثيرها الواقع الاجتماعى والبحث العلمى ، والتى لم تجد اجابات شافية لها من جانب العلماء المتخصصين فى تلك العلوم . ان موضوع هذا الفرع الوليد للفلسفة هو العلوم الاجتماعية ذاتها ، ومهمته هو التحليل النقدى لمناهجها وافتراضاتها ومصادراتها ومعطياتها ، وذلك بهدف بناء نظرية تجيب على كافة الأسئلة التى يستدعيها الواقع الاجتماعى . فاذا كانت « فلسفة العلم » هى القاعدة التى يقوم عليها العلم الطبيعى ، فلا أقل أن تكون « فلسفة العلوم الاجتماعية » هى القاعدة التى تقوم عليها العلوم الاجتماعية .

وقد شغل موضوع التفسير الفلاسفة منذ القدم فحاولوا دائما الاجابة على أسئلة تدور حول هذا الموضوع . ومهمتنا فى هذه الدراسة تناول موضوع التفسير داخل سياق العلوم الاجتماعية .

ويميز البعض أحيانا بين « علوم اجتماعية » و « علوم انسانية » فيفضل بعضهم التعبير الأول على أساس أولوية المجتمع على الفرد ، ويفضل البعض التعبير الثانى على أساس أن الانسان هو موضوع الدراسة فى المرتبة الأولى . الا أننا نريد أن نبين أن تفضيلنا للتسمية الأولى

لا يعنى اطلاقا اولوية المجتمع على الفرد وانما هى تعبير يفترض الفرد داخل المجتمع . فاننا لا نستطيع ، حقيقة ، الحديث عن الانسان خارج اطاره الطبيعى وهو المجتمع ، ونتفق هنا مع رأى كلود ليفى ستورس فى عدم تفرقته بين علوم اجتماعية وعلوم انسانية . وتتضمن العلوم الاجتماعية كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم الاقتصاد والعلوم السياسية واللغويات وعلم النفس والتاريخ .

ان مجرد حديثنا عن العلوم الاجتماعية باعتبارها علوما يعنى فى الدرجة الاولى انها تحاول تطوير نظريات لتفسير الظواهر التى تدرسها ، فالعلم يهدف فى المقام الاول الى كشف ما هو خفى وتوضيح ما هو غامض . وتحديدنا لهذه العلوم بأنها اجتماعية يشير الى ان الظواهر موضوع الدراسة لها اطار معين تحدث فيه ، هو المجتمع بما يشمله من افراد وانظمة وعلاقات . ولم تكن العلوم الاجتماعية لتستطيع ان توجد بدون وجود الوقائع الانسانية القابلة للملاحظة والتحليل والتفسير . واننا لا ننكر صعوبة هذه الوقائع وصعوبة ادراكها ، فان هذا الادراك ذاته هو واقعة اجتماعية جديدة تدخل كعامل مؤثر على الدراسة . ان العالم الاجتماعى الذى يتناول الوقائع بالدراسة ما هو الا نتاج ظروفه وعصره ، فقد يعانى عالم النفس الذى يدرس البشر من مشكلات نفسية ، وقد تؤثر الحقبة التاريخية التى يعيشها المؤرخ على تحليلاته ، وقد يتأثر عالم الاجتماع بالأسرة التى يعيش فيها وبالطبقة التى ينتمى اليها تماما مثل تأثر عالم الاقتصاد بالنظام الاقتصادى الذى يوجد فيه وهكذا ، ومن هنا تأتى كثير من المشكلات فى العلوم الاجتماعية .

ويساعد التفسير الى حد كبير على حسم مشكلات العلوم الاجتماعية فهو يثير أسئلة تحتاج اجاباتها الى توضيح الموقف النهجى سواء فى علاقة العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية او فى داخل المجال الخاص بالعلوم الاجتماعية ذاتها .

وقد حاولنا أن نضع مشكلة التفسير فى إطارها الواسع حتى لا تكون الدراسة مجرد سرد لأنواع التفسيرات فى العلوم الاجتماعية ، ومن هنا حرصنا على الامام بكافة جوانب الموضوع . فكانت البداية متمثلة فى الحديث عن العلم بشكل عام من حيث موضوعاته ومناهجه وعلاقته بالانسان والمجتمع ، ثم استطرادنا لبيان الوضع داخل العلوم الاجتماعية ذاتها من حيث منهج البحث الملائم ومن حيث موضوع الدراسة محاولين أن نبين الخلافات التى لا زالت قائمة . وقد ارتبط بهذا الحديث عرض لبعض المشكلات المنهجية الهامة فى العلوم الاجتماعية .

وقد خصصنا الفصل الثانى للحديث عن التفسير ذاته ، من حيث الآراء المختلفة التى تدور حوله سواء خارج العلم أو داخله وبصفة خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية . وقد حاولنا تفصيل شروط التفسير وحددناها فى شرطين أساسيين هما المطلب المنطقى والمطلب المعرفى ، مما دعانا الى عرض اشكال التفسير وهى الشكل الاستنباطى والشكل الاحتمالى والشكل الاحصائى ، وذلك مع ربط التفسير ببعض العمليات المنهجية الأخرى وهى الوصف والتنبؤ والتعميم .

أما الفصول الثلاثة التالية فقد خصصناها لعرض المواقف والاتجاهات الرئيسية المختلفة . ولابد لنا أن نلاحظ منذ البداية أن هذه الاتجاهات لا تمثل الموقف الكامل فى العلوم الاجتماعية وهو ما لا تتسع له هذه الدراسة ، وإنما حاولنا بقدر الامكان الامام بأهم الاتجاهات السائدة .

ويرجع تعدد الاتجاهات الى الخلاف الذى ذكرناه من قبل حول منهج البحث الملائم كنتيجة لاختلاف النظرة حول موضوع الدراسة . وابرزنا خلال العرض بعض الشخصيات الرئيسية التى رأينا أنها تلعب دورا بارزا فى مسار كل اتجاه . فمضينا نستكشف الطريق الذى سار فيه التفسير عند الوضعيين من خلال اطوار قانون كونت ، ثم عرضنا للدور الذى يلعبه المجتمع فى تفسير دوركايم مؤكدين على أهمية كل من

السبب والوظيفة فى هذا التفسير . وختمنا الاتجاه الوضعى بعرض للوضعيات المحدثة والسلوكية فبيننا موقف كل من النزعة الفيزيائية والنزعة الذرائعية والنزعة الطبيعية وانتهينا بوجهة نظر السلوكية .

وانتقلنا مع الاتجاه الفنونولوجى ومنهج الفهم الى موقف مختلف تماما ، موقف يؤكد على الحدس والتحليل والوصف كأدوات رئيسية فى المنهج . وقد أسلمنا الفهم الذاتى عند دلتاى ، وحرصه على اعتناق القيم والمعانى الكامنة فى عقل الفاعل الى النمط المثالى الذى قدمه ماكس فيبر حيث يلتقى الفهم الذاتى بالمعنى داخل التفسير وقد استطردها مع هوسرل لكشف الخبرة المعاشة من خلال دراسته للوعى والمساهايات وتأكيدده على مبدأ الذاتية بما تتضمنه من رد فنونولوجى وتعليق للحكم . وانتهينا بالنظر فى فكر شوتز الذى أقام العالم الاجتماعى على أساس المنهج الفنونولوجى وأضعا الفنونولوجيا فى صميم الواقع بهدف كشف عالم الحياة اليومية .

وقد حاولنا فى الفصل الخاص بالوظيفية والبنوية أن نبين الأسس التى قام عليها التفسير لدى الاتجاهين ، مما دعانا الى عرض دور الوظيفة كما تبذت لدى مالبينوفسكى وكيف تطورت مع راد كليف براون وبارسونز لكى تلتقى مع البنية . وقد قصدنا فى عرضنا للاتجاه البنىوى إجلاء الغموض الذى أحاط بهذا المنهج فركزنا اهتمامنا على البنىوية اللغوية وبنىوية ليفى شتراوس .

ولم نترك أى اتجاه أو موقف بدون محاولة تفحصه من خلال نظرة نقدية تظهر إيجابياته وسلبياته . وقد حاولنا فى الخاتمة أن نستفيد من النواحي البناءة فى كل اتجاه لتقديم تصور سليم للتفسير .

الفصل الأول

فلسفة العلوم الاجتماعية

تمهيد : العلم •

أولا - الآراء المتعارضة حول منهج البحث الملائم للعلوم الاجتماعية :

(أ) الاتجاه الأول : وحدة المنهج فى العلوم الاجتماعية
والعلوم الطبيعية •

(ب) الاتجاه الثانى : هناك مناهج للعلوم الاجتماعية متميزة
عن مناهج العلوم الطبيعية •

ثانيا - الظاهرة الاجتماعية أو موضوع الدراسة :

(أ) الموقف الطبيعى •

(ب) الموقف اللا طبيعى •

ثالثا - مشكلات منهجية :

(أ) شكل البحث الاجتماعى •

(ب) التعميم والتنبؤ •

(ج) القسيم •

تمهيد العلم :

كان للتقدم المذهل الذي حققته العلوم الطبيعية Natural sciences اثره على التصور العام للعلم . فقد اصبحت صورة العلم هي الصورة الموجودة في مجموعة العلوم التي قطعت في آن واحد شوطا بعيدا من التقدم النظري والتطبيقي والمنهجي وهي المسماة بالعلوم الفيزيائية . وعلى هذا الاساس اصبحتنا نشعر ونحن نقرأ عن العلم ومناهجه ان فلاسفة العلم قد اقاموا هذا النموذج على غرار الصورة التي تطالعنا بها العلوم الطبيعية . واصبح هذا النموذج عند الكثيرين هو المثال الذي لابد للعلوم الاجتماعية من اصطناعه للوصول الى التقدم في مجالاتها المختلفة .

ويتفق فلاسفة العلوم بشكل عام على ان موضوع العلم يجب ان يكون ظواهر توصل جميع الدراسين الى اتفاق بشأنها مما يجعلها تستحق ان تنتمى الى قضايا العلم . فالعلم - ليس الا - دراسة للأحكام التي يحدث اتفاق عام بشأنها (١) وكل حدث جزئي Particular event مستبعد من دراسة العلم لأن العلم يدرس علاقات معينة بين أحداث معينة (٢) . ويؤكد لندبرج نفس المعنى : فيقول ان محتوى العلم في شكله الناضج ليس الا مجموعة من القضايا التي تاكدت صحتها ، وهي مرتبطة بحيث يبدو النسق في ضوء قواعد معينة (منطقية) متسقا مع ذاته ومتفقا مع الملاحظة التجريبية . وكلما اتسع نطاق تطبيق تلك القضايا أي كلما اتسعت مجموعة الظواهر التي تغطيها تلك القضايا زاد تاكدنا

(1) N. Campbell : What is Science ? New York, Dover Publications 1952 , p. 27.

(2) Ibid, p. 37.

من المعرفة الخاصة بالمجال الذى تغطيه (٣) . فالعلم هو الاكتشاف التدريجى للعلاقات الموضوعية الموجودة فى العالم الواقعى أو هو محاولة للمعرفة من أجل تفسير ما هو موجود . وهو فى محاولته هذه يقدم العالم المبنى *Construit* فكلمة تقدم العلم ابتعدت الوقائع العلمية عن الوقائع الواقعية أى عن المعطيات المباشرة للدراك العادى . ويقول جينز : « ان الفيزياء تحاول اكتشاف انماط الأحداث *Patterns of events* التى تتحكم فى الظواهر الملاحظة ولكننا لا نعرف أبدا ما تعنيه هذه الانماط أو كيف بدأت وحتى اذا أخبرنا ذكاء خارق عن الموضوع فاننا نجد التفسير غير معقول . ان دراستنا لا تستطيع ان تضعنا فى اتصال مع الواقع ومعناه الحقيقى ، والطبيعة لابد أن تبقى الى الأبد خافية عنا (٤) .

وعندما يكشف العلم عن قوانين الطبيعة والعلاقة بين الظواهر فهو يستجيب لرغبة الانسان فى المعرفة والفهم ، وفى هذا يكون متميزا عن التقنية *la technique* التى هى مجموعة الاجراءات التى تهدف الى أحداث نتائج مرغوبة مستخدمة فى ذلك قوانين العلم *Lalande* والخلط الموجود لدى الناس بين مفهومى العلم والتقنية يرجع الى أن العلم يصل اليهم فى صورة تطبيقاته العلمية .

ومهما حاولنا تعريف كلمة علم فى النسق الفلسفى أو المعرفى فانه

(3) G. A . Lundberg *The Postulates of Science and their Implications for Sociology*. In M. Natanson (ed) *Philosophy of social Sciences : areader* New York : Random House. 1963 p. 34 .

(4) Sir James Jeans . *Physics and philosophy*. Camioridge : The University Press, 1948 p. 16.

من الواضح أنه يبدأ من استخدام الملاحظات السابقة بهدف التوصل الى التنبؤ بالمستقبل ، فالعلم يبدأ بالفعل عندما نستعين بالمبادئ العامة لاختبار الواقعة ، وعندما نستخدم الموضوعات العملية والعلاقات النظرية المرتبطة بها من أجل التحكم فى الفعل الانسانى . ان تعريف العلم يتطلب دائما وجود قوانين عامة ، ثم محاولة للتجربة أو الملاحظة . واخيرا تحكم عن طريق التطبيق العملى (٥) .

وعلى حين ان بعض العلماء المعاصرين لا يزالون يرون فى العلم مجرد أداة للسيطرة على الطبيعة ، نجد علماء آخرين يرددون أفكار الفيتاغوريين عن جمال العلم ، فيقولون ان العنصر الاساسى فى المعرفة العلمية انما هو ما تنطوى عليه من انسجام جمالى . ومنذ عهد قريب صرح العلامة « ماكس بورن » بأن اللذة التى يجدها فى العلم لهى أشبه ما تكون باللذة التى يجدها المرء فى أن يستمتع بجمال غروب الشمس (٦) . تماما مثلما أعلن العالم الرياضى « هنرى بوانكاريه » من قبل بأن العالم لا يدرس الطبيعة لأن هذه الدراسة نافعة ، بل هو يدرسها لأنه يجد لذة فى ذلك ، وهذه اللذة ترجع الى أن الطبيعة نفسها جميلة . واذا لم تكن الطبيعة جميلة فانها لم تكن لتستحق ان تعرف ولما كانت الحياة نفسها تستحق ان تعاش . ويوضح بوانكاريه ما يعنيه بجمال الطبيعة : فهو ليس هذا النوع من الجمال الذى يخاطب الحواس بل هو الجمال الذى يتبع من النظام المتناسق بين الأجزاء ، ويستطيع ذكاء خاص ان يدركه . ان الجمال الفكرى يكتفى بذاته ، ومن أجل هذا

(5) B. Malinowski. A. Scientific Theory of Culture in P.P. Wiener (ed .) Readings in Philosophy of Science New York : Charles Scribner's Sons. 1953pp 387 - 393, p. 392.

(٦) د . زكريا ابراهيم : قيمة العلم بين النظرية والتطبيق ، الفكر المعاصر ، عدد ١٠ ، فبراير ١٩٦٦ ، ص ص ٢٦ - ٣٣ ، ص ٣٦

الجمال وحده وليس من أجل شيء آخر يستغرق الباحث فى أعمال طويلة وعسيرة (٧) .

وفى الواقع أن العلم حركة اجتماعية ، وأن العالم مندمج فى المجتمع ملتزم بالتاريخ ، فليس فى وسعنا أن نقيم حاجزا أخلاقيا بين العلم النظرى المحض والعلم التطبيقي العملى . فليس ثمة تفكير علمى خالص ، بل هناك حركة علمية اجتماعية تحمل فى طياتها نتائج معينة ودلالات خاصة وآثارا محددة (٨) . فالعلم لم يتطور فى فراغ بمعزل عن المجتمع ، فنحن نحاول أن نرى تطور العلم والحكمة فى إطارهما الاجتماعى لأنه لا يمكن أن توجد حقيقة خارجة وما كان العلم ليستطيع النمو بدون المجتمع (٩) .

ويتطور العلم بصفة مستمرة فهو ليس مجرد تراكم من المعلومات أو مجموعة الأنسقة النظرية المختزلة من التجربة ، ولكن النظرية العلمية هى طريقة لتعقيل التجربة كما تتبدى فى حقبة معينة ولكنها لا تكف عن التطور مع اتضاح تلك التجارب وازدياد خصوصيتها . أن العلم اذن ليس تراكما استاتيكيما من المعلومات الفكرية ولكنه يتجدد باستمرار وينقد فى ضوء الخبرة (١٠) ، وفى ضوء الظروف النقدية والتاريخية . مثال ذلك تطور الفيزياء من الميكانيكا الكلاسيكية الى ميكانيكا الكم على يد « ماكس بلانك » فى أوائل هذا القرن . فلم تجلب ميكانيكا الكم ادراكا

(7) H. Poincaré Science et Méthode Paris, Ernest Flammarion . 1908 p. 15.

(٨) د . زكريا ابراهيم : المرجع السابق : ص ٢٨ .
(٩) جورج سارتون : تاريخ العلم ، الجزء الأول ، ترجمة محمد خلف الله وآخزون ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص ٢٦ .

(10) D. H. Theobald. An introduction to the Philosophy of Science. London Methuen Co. Ltd. 1968 p. 12.

جديدا للعالم فحسب بل طرحت تفسيراً جديداً تماماً للظواهر فيه ،
ولأول مرة ترك المجال مفتوحاً لدخول الصدفة في العلم بصورة
تامة (١١) .

ان العلم ككل - النشاط نفسه بأهدافه ومناهجه وأفكاره - يتقدم
عن طريق التغيير والانتقاء Variation and Selection . ولا يتقدم
العلم بالتعرف فقط على صدق ملاحظات جديدة ، ولكن عن طريق ادراكها
ولهذا الغرض نقدم مبادئ للاطراد وتصورات للنظام الطبيعي ومثل
عليها ... الخ ، كلها أشكال فكرية توضح الأشياء انتمى نفعها باعتبارها
مطلقة ومرضية للعقل (١٢) .

ويرى بوانكاريه ان هناك دائماً انتقاء للوقائع Selection des faits
والوقائع التي يجب ان نبحثها هي الوقائع البسيطة التي يكثر تكرارها .
ان المنهج هو انتقاء للوقائع وبالتالي يجب ان ينصب الاهتمام على
وضع منهج . الا اننا عندما نطبق القاعدة التي تقوم على البدء بالوقائع
المطرودة نجد ان الوقائع لا تخبرنا بشيء جديد ، فيصبح الاستثناء وليس
الاطراد هو المهم . وعندئذ سوف نكف عن البحث عن التماثلات لنتعلق
بالاختلافات . وسوف نبحث في هذه الاختلافات عن أكثرها ظهوراً
ليس لكونها أكثر جذباً ولكن لأنها تعطينا معلومات أكثر . وهكذا عند
تطبيق قاعدة معينة علينا ان نبحث منذ البداية عن الحالات التي تكون
فيها هذه القاعدة على خطأ . وفي هذه الحالة لا يكون هدفنا مجرد
التشابهات أو الاختلافات وانما هو التشابهات Similitudes

(١١) ف . ريد نيك : ما هي ميكانيكا الكم ، موسكو ، راد مير
للطباعة والنشر ١٩٧١ ، ص ١٥ .

(13) S. E. Toulmin. Foresight and Understanding . An Inquiry
into the Aims of science. New.York : Harper Torch Book
1961 . p. 12 .

الكامنة وراء الاختلافات الظاهرة . وهكذا نجد أن العالم لا يختار بطريقة عشوائية الوقائع التى يخضعها للملاحظة ، انه لا يقوم بحصر كل الحشرات الخاصة بنوع معين ، لأن عدد الحيوانات مهما كانت قيمته قد يخضع لتغيرات عديدة . وانما يبحث العالم عن تركيز خبرة واسعة وفكر واسع على حجم ضئيل ، لذلك نجد أن أى كتاب فى الفيزياء يضم عددا محدودا من التجارب الماضية ومئات الآلاف مثلها من التجارب المحتملة التى نعرف مقدما نتائجها (١٣) .

الا أن العلم لا يتمثل كما يقال فى مجموعة وقائع ، وانما يستخدم العلم هذه الوقائع لاقتراح وتأييد التفسيرات . أن هدف العلم اذن هو التفسير . أن تعبيرات مثل تصور ، نظرية ، قانون تتصل بالعلاقة الموجودة بين الوقائع ومعنى هذه العلاقة : انها تتيح للعالم اطارا يستطيع من خلاله أن ينظر الى المدى الواسع للوقائع الملاحظة والتعدد الموجود فيها ، ثم يفكر بعد ذلك فيما قد تعنيه ، ومن هنا تصبح النظرية تقريرا تفسيريا معبرا عن العلاقة بين التصورات . وعندما يقوم العالم بعرض تفسير لما قد لاحظته فعليه أن يقنع بقية العلماء أن الوقائع هى كما عبر عنها ، وأن كافة الوقائع المتصلة بالموقف قد خضعت للبحث . وهذا يثير العديد من الامثلة : فهل من الممكن تكرار الملاحظات ، وهل ما رآه هو يتضح ايضا امام الآخرين الذين لاحظوا نفس الظاهرة ، وهل يتضمن تقرير الباحث كل ما كان يمكن ملاحظته أم أن هناك احتمال فى كون بعض العوامل الاضافية قد أغفلت ولم يؤخذ تأثيرها فى الاعتبار ؟ لقد دعت كل هذه الاعتبارات الى وضع متطلبات وقواعد متصلة بالعمل العلمى هو ما يطلق عليه اسم « المنهج العلمى » (١٤) .

(13) Poincaré op. cit. p. 13 - 14.

(14) T. Freides Litterature and Bibliography of the Social Sciences. California : Mehille publishing Co. 1973 p. 5 - 6.

يتمثل العلم اذن أساسا فى مناهج بحث فكلمة علم تشير فى العادة الى أية طريقة منظمة فى البحث (١٥) فالعلوم كما نعرفها هى موضوع بناء نظام للتصورات Concepts أساسا للتفسير وأيضا لوصف مظاهر جديدة للعالم كما تظهر فى البحث التجريبي . والأسئلة التى تثيرها هى : كيف نتحدث فى هذه المواقف الجديدة ؟ وكيف تبدو ؟ وهل نستطيع ان نعاملها كما لو كانت كذا أو كذا ... ؟ هل نستطيع تكوين قروض على أساس هذا أو ذاك من النماذج (١٦) . ان التفكير العلمى يتخذ نقطة بدايته من المشاكل المستوحاة من أشياء ملاحظة وحوادث توجد فى التجربة العادية وهو يهدف الى فهم هذه الأشياء الملاحظة عن طريق اكتشاف نظام يؤلف بينها . ويتمثل اختبارها النهائى - من أجل القوانين التى تستخدم كادوات تفسير وتنبؤ - فى ارتباط التفكير العلمى مع هذه الملاحظات (١٧) . ان المهم فى العلم ليس هو تنظيم المعلومات وتصنيفها فحسب بل المهم هو ربطها والعمل على تفسيرها أيضا ... ان السمات المميزة للبحث العلمى هى التفسير ، وإقامة علاقات الارتباط أو التوقف بين القضايا التى قد تبدو فى الظاهر غير مترابطة ، والعمل على تنظيم العلاقات القائمة بين عناصر المعرفة المتباعدة أو المشتقة بطريقة منهجية واضحة . فالمثل الأعلى الذى يهدف اليه أى علم انما هو الوصول الى درجة عليا من التفسير المنهجي Systematic explanation حتى يتحقق له ربط معلوماته بطريقة استنباطية دقيقة ، كما هو الحال

(١٥) د. زكريا ابراهيم : مشكلات فلسفية ، القاهرة ، مكتبة مصر ،

١٩٧١ ، ص ١٢٩ .

(16) Theobald . op. cit. p. 58.

(17) E. Nagel . The Structure of Science. Problems in the Logic of Scientific Explanation New York : Harcourt, Brace and World Inc . 1961 p. 79.

فى الهندسة البرهانية او علم الميكانيكا (١٨) . وعلى الرغم من ان بعض العلوم - الاجتماعية والطبيعية - لا تملك نظاما سليما للتفسير كما هو موجود فى علم الميكانيكا الا ان فكرة الوصول الى تفسيرات لوقائعها دائما موجودة .

وتتجه الرياضيات نحو القيام بدور متزايد الاهمية فى العلوم سواء الطبيعية او الاجتماعية . ولكن هذا بالطبع لم يمنع كل علم من ان يتخذ له مناهج تتناسب مع مجالات بحثه . وتعتبر الرياضة اداة ولغة لكل العلوم أكثر من كونها علوما خاصة مستقلة - البيولوجيا مثلا تستخدم حساب الاحتمالات ، وعلم النفس وعلم الاجتماع يستخدمان اختبارات وابحاثا تخضع نتائجها للمعالجة الاحصائية .

ومن الواضح ان الظاهرة تبلغ من التعقيد حدا لا نستطيع معه ان ننسبها الى سبب معين . ولذلك نلجأ الى فكرة الارتباط الاحصائى لى نبين النسبة التى يسهم بها كل عامل من العوامل فى احداث الظاهرة ، فنقول ان نسبة (او معامل) ارتباط العوامل الوراثية بارتكاب الجرائم هى كذا . . . ومن مزايا هذه الطريقة انها تمكننا من تحليل الظواهر شديدة التعقيد ، وخاصة تلك التى تحدث فى مجال العلوم الانسانية ، حيث تتعدد عوامل الظاهرة الواحدة وتتشابك على نحو يستحيل فيه استخدام علاقة السببية المباشرة . كما ان من مزاياها انها تتيح المقارنة ، بطريقة رقمية دقيقة ، بين هذه العوامل ، بحيث نستخلص مثلا ان العوامل المكتسبة اقوى تأثيرا فى ظاهرة الاجرام من العوامل الوراثية ، الخ (١٩) .

(١٨) د. زكريا ابراهيم : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(١٩) د. فؤاد زكريا : التفكير العلمى ، الكويت : عالم المعرفة ،

١٩٧٨ ، ص ص ٤٤ - ٤٥ .

ويعتبر علم الاجتماع أقل العلوم استخداما للتفكير الصوري *Formal* (الذى يتضمن الرياضيات) ، فهو يستخدم الرياضة بشكل أقل بالطبع من العلوم الفيزيائية وأقل من علم الاقتصاد ، وحتى علم النفس يستخدم الرياضة أكثر من علم الاجتماع . ومن أهم خصائص الرياضة التوضيح *Clarification* ، وعندما يتحقق لعلم ما درجة معينة من النضج العلمى فإن هذا يكون دائما مرتبطا ولو بشكل جزئى بالرياضة . ويعتبر أى فرع من فروع المعرفة علميا إذا ما تحدث بلغة خالية من الغموض والرياضة هى تلك اللغة (٢٠) .

وعلى الرغم من أن الرياضة تجعل العلوم الاجتماعية تقرب من العلمية إلا أنها لا تضمن الخطوات التى سبقتها ولا التأويلات التى تتلوها ، والمهم هو التأويل أو التفسير أى إدراك المعنى الخاص بالسلوك الاجتماعى .

أولا - الآراء المتعارضة حول مناهج البحث الملائمة للعلوم الاجتماعية :

تتناول العلوم الاجتماعية بناء المجتمع والقوى التى تعمل فيه تماما مثل العلوم الطبيعية فى تناولها بناء المادة والقوى التى تعمل فيها . ويوجد ثلاث طرق للنظر الى بناء المجتمع :

الأولى : النظر الى المجتمع على أنه نوع من التطور وهى وجهة نظر بيولوجية للمجتمع باعتباره كائنا حيا لديه بناء من القيم والتنظيمات .

الثانية : النظر الى المجتمع على أنه من تأثير القوانين السببية التى

(20) R. Boudon . The Logic of Sociological Expaanation
translated by T. Burns. London : Penguin Education 1974 p. 11.

قد تكون اقتصادية أو تاريخية وهى نظرة حتمية للمجتمع فى حالة عدم توازن مستمر .

الثالثة : هى النظر الى المجتمع من وجهة نظر المخطط باعتباره نظام من المتغيرات نستطيع التحكم فيها لتغيير المجتمع كما نشاء .

وهذه النظريات غير قابلة للاختبار لأنها نظريات فلسفية قد تقدم طرقا للبحث وطرقا للتأويل فى مواجهة مشكلة ما ، ولكنها غير قابلة للاختبار (٢١) .

وعندما يتصدى الدارس للعلوم الاجتماعية يقابل بمشكلة اساسية وهى عدم وجود اتفاق عام بين العلماء وفلاسفة العلم بشأنها . لقد بدأ هذا الخلاف فى القرن التاسع عشر وذلك حين بدأت العلوم الطبيعية تستقر وظهرت الدعوة بعلمية العلوم الاجتماعية وكان من الطبيعى ان تظهر وجهات نظر متعددة سواء بالنسبة لطبيعة موضوعات الدراسة وبالنسبة للمنهج الملائم للبحث .

ان هذا الخلاف لم يمنع العلوم الاجتماعية من التطور والنمو السريع سواء بالنسبة للمناهج وطرق البحث او بالنسبة للحصيلة الضخمة من المعلومات عن الظواهر الاجتماعية .

وحسب وجهة النظر الخاصة بإمكانية تطبيق مناهج الفيزياء نستطيع ان نصنف هذه المدارس الى الاتجاه الطبيعى او الوضعى *Pro - naturalistic* or *positive* والاتجاه اللاتبيعى او اللاوضعى *anti - naturalistic or negative*

وتأييد دارس المناهج للاتجاه الأول أو الثانى أو نظرية تضم الاثنين

معا يتوقف على آرائه عن طبيعة العلم الذى يدرسه وطبيعة موضوع
الدراسة وآراءه عن مناهج الفيزياء (٢٢) .

(ا) الاتجاه الاول - وحدة المنهج بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية :

ينظر اصحاب هذا الاتجاه الى العلوم الانسانية باعتبارها فرعاً من
العلم الطبيعى . ومعنى هذا أن مادة العلاقات الانسانية اذا اريد لها
أن تكون علماء فلا مندوحة لها عن السير فى نفس الطريق المنطقى الذى
تسير فيه بقية العلوم الطبيعية ، وليس فى مادة العلاقات الانسانية
ما يتناقى مع استيفاء الشروط المنطقية الضرورية لكل بحث علمى ،
فالفرق بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية الأخرى هو فرق فى تعقد
التفصيلات وكثرتها ، مما يجعل مواقفها أعسر تناولاً من المواقف الطبيعية
الأخرى ، ولكن ذلك يجعل تطبيق المنهج العلمى على العلوم الانسانية
اكثر صعوبة ولا يجعله من الناحية المنطقية مستحيلاً (٢٣) وينتمى هذا
الرأى الى الاتجاه الطبيعى او الوضعى *or pro-naturalistic positive*
الذى ينادى بوحدة المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية
فالانسان ليس الا جزءاً من عالم طبيعى ويفسر فى نطاق التفسير العام
للنظام الطبيعى .

ويرى اصحاب هذا الاتجاه ان التمييز بين العلوم الاجتماعية
باعتبارها أيديوجرافية *idiographic* ممتاز بتصورات فردية وتبحث

(22) Karl Popper. The Poverty of Historicism. London :
Routledge and Kegan Paul 1957. p. 2.

(٢٣) د . زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى ، الجزء الثانى
فى فلسفة العلوم ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٦ ، ص ٣٠٣ .

عن قضايا فردية جازمة اى تهتم بالوقائع الفردية عن الافراد والاحداث والمواقف الحضارية ، وبين العلوم الطبيعية التى لها طبيعة نومرطيقية تعميمية وتمتاز بتصورات عامة وتبحث عن قضايا قاطعة ، هذا التمييز لا يعنى اختلافا اساسيا فى المنهج . فهناك مكونات تعميمية وايدىوجرافية فى كل العلوم الطبيعية والاجتماعية فالجغرافيا المادية هى علم طبيعى ولكنه ايدىوجرافى كذلك التاريخ الجيولوجى لسطح الارض والفلك الوصفى . علاوة على ذلك فان البحث عن قوانين موثوق بها فى العلوم الاجتماعية مستمر على الرغم من عدم نجاحه نجاحا اكيدا ، والنتيجة فى علم النفس وعلم النفس الاجتماعى والاقتصاد وعلم الاجتماع جديرة بالاحترام (٢٤) .

ويرفض اصحاب هذا الاتجاه التمييز بين العلوم 'الطبيعية والعلوم الاجتماعية على أساس ان الأولى علوم دقيقة exact والثانية علوم غير دقيقة ، وفى الواقع ان الفرق بين النوعين من العلوم هو فرق فى الدرجة وليس من حيث المبدأ فالعلم يقال انه دقيق اذا قدم التفسير والتنبؤ بطريقة معقولة وبالتالي بطريقة محددة للمفاهيم المستخدمة وظهر الاستنتاج عن طريق استخلاص منطقى - رياضى للغرض (وهو تقرير للواقعة المحتاجة الى تفسير أو تنبؤ) من البداهة evidence (وهو نوع من المعرفة المقبولة عن طريق الملاحظة) . اما عن استخدام العلوم الدقيقة للرموز الرياضية والقياس العددي فهذا عرض وليس خاصية اساسية . والدقة لا تنطبق على كل العلوم الطبيعية ولكن على بعض

(24) Hedbert Feigl . Principles of Concept Formation and Measurement. In R. Chisholm , R. Feigl W.F. Frankena and others (ed) Philosophy. New Jersey : Prentice Hall Inc. Engl Engl wood Cliffs 1964.

مجالات الفيزياء ، فمثلا الهندسة المعمارية والطب يعتبران « علمين » ولكنهما غير دقيقين لأنهما يعتمدان على عمليات استنتاجية غير منهجية . بينما نجد أن علوما مثل الاقتصاد وعلم النفس يعطيان استنتاجات دقيقة وفى نفس الوقت لديهما اعتماد على أحكام حدسية . فهذا يدل على أن ليس هناك حد فاصل بين العلوم الدقيقة وغير الدقيقة كما أن عدم الدقة ليس صفة قاصرة فقط على العلوم الاجتماعية (٢٥) بدليل أن بعض فروع العلوم الاجتماعية (أجزاء من علم السكان) متميزة بوجود نظرية رياضية مصاغة ومشابهة منهجيا للأجزاء الدقيقة فى الفيزياء (٢٦) . ويدعى الذين يفرقون بين العلوم الاجتماعية والطبيعية تفرقة من حيث المبدأ أن الأخيرة على الرغم من كونها غير دقيقة تماما الآن إلا أنها سوف تحقق الدقة تدريجيا بينما الأولى بسبب تعقد موضوع الدراسة وعدم الوصول الى الكمال فى معلوماتها القائمة على الملاحظة فلا بد أن تبقى غير دقيقة . إلا أن هذه التفرقة المفترضة بين العلوم الفيزيائية بدقة مفاهيمها واستنتاجاتها وارتفاع الثقة بتنبؤاتها وبين العلوم الاجتماعية ذات المفاهيم الغامضة والتصورات الحدسية وعدم القدرة على التنبؤ ، هذه التفرقة زائفة - فى رأى ريكز - فضلا عن أنها هى التى عوقت تطور العلوم الاجتماعية . إن المهم ليس إزالة عدم الدقة فى العمليات وفى القدرة التنبؤية ولكن الموضوعية هى المهمة فهى التى تميز العلم عن العمل الحدسى (وهو المختلف عن العمل الحدسى الذى يؤدى الى اكتشاف) . ومتى وصلنا الى واقعة أو فكرة جديدة مهما يكن أساسها الحدسى فلا بد أن تكون قابلة للخضوع للاختبار الموضوعى والتأكيد من

(25) Nicholas Rescher Scientific Explanation. New York the Free Press 1970 p. 164 - 65.

(26) Ibid. p. 206.

قبل أى شخص . ان هذا المستوى من الموضوعية العلمية هو الذى تستند اليه العلوم الاجتماعية ولكن بطريقة ناقصة ، ويرفض ريكز اعتبار دقة الشكل والمنهج او درجة التنبؤ ركنين أساسيين للتفرقة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية فيتبقى لنا ان نبحث عن فارق معرفى خاص بقدرة كل منها على الوصول الى نفس مستوى الموضوعية . ويعتقد ريكز ان هذا الفارق لا وجود له وانه لا يمكن التفرقة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الفيزيائية على أساس منهجى ، ونستطيع بناء على ذلك اقامة اساس لمعرفة متسقة لكافة العلوم غير الدقيقة سواء كانت اجتماعية او فيزيائية (٢٧) .

ويتبنى مائلوب نفس الراى فهو يرفض الدقة بمعنى القياس او القدرة على التنبؤ بنجاح أحداث مستقلة او التحول الى لغة رياضية . فالمعنى الصحيح للدقة exactnes هو امكان بناء نسق نظرى من النماذج التى تحتوى على ابنية مجردة من المتغيرات ومن العلاقات بين المتغيرات ويمكن منها استنباط كل القضايا الخاصة بارتباطات معينة ، امثال هذه الانسقة لا توجد فى كثير من العلوم الطبيعية - مثلا فى مواضع كثيرة من البيولوجيا - بينما توجد فى علم واحد على الاقل من العلوم الاجتماعية وهو علم الاقتصاد . اننا لا نستطيع التنبؤ بتطور أى نظام كما لا نستطيع القول انه ستوجد نظرية موحدة unified theory للعلوم السياسية مثلا ، او ان التعميمات فى علم الاجتماع ستندمج فى نسق نظرى شامل . أى ان صفة الدقة لا يمكن نسبها الى كل العلوم الطبيعية كما لا يمكن رفضها بالنسبة للعلوم الاجتماعية (٢٨) .

(27) Ibid. p. 166 - 167.

(28) Machlup. Are the Social Sciences really inferior in M. Natanson (ed) Cit, pp. 158 - 180 p. 168.

ويرى بوير أن المناهج فى مجالى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية متماثلة اساسا . فالمناهج تتكون من تقديم تفسيرات استنباطية حدسية واختبارها عن طريق التنبوء ، وهذا ما يسمى أحيانا بالمنهج الفرضى - الاستنباطى - *hypothetical - deductive method* وأحياء يسمى بمنهج الفروض لأنه لا يقدم يقينا بالنسبة للأحكام العلمية التى يقوم باختبارها ، بل ويمكن أن تحتفظ هذه الأحكام دائما بطابع المحاولة بالنسبة للفروض *tentative hypotheses* أن المهم فى مجال العلوم هو أن ندرك أننا نهتم دائما بالتفسيرات والتنبوءات والاختبارات وأن منهج اختبار الفروض دائما واحد (٢٩) .

لقد اصر أصحاب هذا الاتجاه على ضرورة تطبيق مناهج البحث المستخدمة فى العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية . ويقدر تطبيق تلك المناهج بقدر ما تعتبر العلوم الاجتماعية واقعة فى مجال العلوم الطبيعية وبالتالى تعتبر علوما مستقلة *autonomous* . واعتبروا أى تقاعس فى هذا الاتجاه مسئولا عن البطء فى تقدم العلوم الاجتماعية فى مواجهة تقدم العلوم الطبيعية . وقد ذهب البعض الى أبعد من ذلك عندما تصور أن التطور فى العلوم الاجتماعية لن يأتى من علماء اجتماعيين وإنما من آخرين خبراء فى مجالات أخرى والدليل على ذلك هو أن المساهمات فى علم النفس تأتى من افراد لهم خبرة فى الهندسة والفسيولوجيا والعلوم الطبيعية الأخرى . وهذا لا يعنى أن مساهمة العلماء الاجتماعيين سوف تكون غير ذات قيمة : إنهم يساهمون ولا شك

(20) K. Popper. Unity of Method in the Natural and Social Sciences In D. Braybook (ed.) Philosophical Problems of the Social Sciences . New York : Macmillan Co. 1965, pp 32 - 41 , p. 33 .

وسوف يستمرون فى اظهار المادة والمشكلات والصعوبات فى ميدانهم .
ومع توفر المادة سوف يساهم العلماء الذين يملكون الاجهزة الفنية
technical equipments فى اهم انجازات العلوم الاجتماعية فى
المستقبل (٣٠) .

(ب) الاتجاه الثانى - هناك مناهج للعلوم الاجتماعية متميزة عن مناهج العلوم الطبيعية :

سار الرافضون لفكرة الوحدة المنهجية على التفرقة التى وضعها
دلتاى ومن قبله ريكتر وفند لبند بين علوم ايدىوجرافية فردية وعلوم
نومطيقية عامة رافضين النظر الى العلوم الطبيعية كمثل اعلى للفهم
العقلى للواقع . انهم يؤكدون على وجود التعارض بين علوم مثل الفيزياء
أو الكيمياء أو الفسيولوجيا تهدف الى تعميمات عن ظواهر متكررة ويمكن
التنبؤ بها وبين علوم مثل التاريخ تريد ادراك الخصائص الفردية
لموضوعاتها . فالعلم فى رأى احدهم لا يبدأ من وقائع أو فروض أو حتى
من منهج ولكن يبدأ بمشكلة محددة . والعلم الاجتماعى لا يستثنى عن
هذه القاعدة . وبينما يواجه العلم الطبيعى مشاكل الواقعة فقط فان
العلم الاجتماعى يهتم بمشاكل الواقعة ومشاكل القيمة أيضا (٣١) .
ان العلوم تختلف لأن الوضع فى ميادينها مختلف وما نتناوله بالدراسة
باعتباره مجالا للفيزياء قد يكون مجموعة من الظواهر حيث عدد
المتغيرات المرتبطة ذات المعنى صغير بحيث يسمح لنا بدراستها كأنها
تكون نسقا مغلقا نستطيع أن نلاحظه ونتحكم فى كل العوامل المحددة

(30) G. A. Lundberg Op. Cit. p. 39.

(31) F. S. C. Northrop . The Logic of the Sciences and the
Humanities. New York : The Macmillan Co. 1948 p. 255.

ونميز بينه وبين العوامل الأخرى التى تقع خارجه . ويكون من التناقض ان نفرض طرقا لم تفهم الا عن طريق شروط معينة ونطبقها على أنظمة تعتبر مختلفة بسبب عدم وجود هذه الشروط فى مجالها (٣٢) .

فمن الخطأ فى رأى هذا الاتجاه تطبيق المناهج التى ثبت نجاحها فى العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية لأن ادخال تلك المناهج يؤدى فى العلوم الاجتماعية الى خلط كبير والنظرية العضوية مثال على ذلك .

واذا كان هناك منهج يراد تطبيقه فلا بد من تحديده عن طريق خصائصه الفعلية المجردة فالفكرة فى كونه منهجا معترفا به فى علم ما قد يتأكد خطأها فيما بعد . كما أن المطلب الخاص بتطبيق منهج من علم آخر على العلم الاجتماعى كثيرا ما يقشل فى تحديد المدى الذى سيمتد اليه هذا المنهج : أحيانا قد يفقد العلم الذى يأخذ بهذا المنهج استقلاله ويصبح فرعاً فى علم آخر (٣٣) .

ويقرر أصحاب هذا الاتجاه أن منهج العلوم الاجتماعية الملائم هو منهج الفهم بينما منهج العلوم الطبيعية هو التفسير ، وبينما يهدف التفسير - فى رأيهم - الى ايجاد علاقة من الخارج بين شيئين فإن فهم الوقائع الانسانية يهدف الى الحصول على معنى من الداخل ، فلا يكفى الوصول الى قانون عام ولكن يجب أن أضع نفسى بشكل ما فى موضع هؤلاء الناس وأفهمهم عن طريق التواصل . ويقول ناتانسون : ان الواقع الاجتماعى مكون من معان يعطيها الذين يقومون بالفعل على المسرح

(32) F. A. Hayek. The degrees of Explanation. in British Journal for the Philosophy of Science Vol . VI, August 1955 pp. 209 - 225. p.

(33) F. Kaufmann Methodology of the Social Sciences New York : Humanities Press 1965 p. 146.

الاجتماعى لأفعالهم ومواقفهم . ان وعى الفاعل او ذاتيته هو دعامة الفعل الاجتماعى . والموضوع الرئيسى فى فلسفة العلوم الاجتماعية هو القاء الضوء واعادة بناء للخصائص الرئيسية للنظرة الذاتية Subjectivity لأنها تؤسس وتبنى العالم الاجتماعى(٣٤) .

فى العلوم الطبيعية نجد مسلمة اطراد أو اتساق الطبيعة ، فكون الواقع الطبيعى يخضع للبحث العلمى قد تاكد من خلال تاريخ العلم وينح أكثر من اساس مقبول لافتراض أن ذلك سوف يستمر فى المستقبل ، ولكن الافتراض يظل افتراضا وليس هناك دليل اكيد على أن المستقبل سوف يكون مثل الماضى . ولكن من أجل العمل العلمى يكتفى بالمسلمة التى تقول بالاطراد . وفى العلوم الاجتماعية هناك موقف مشابه فيه أيضا افتراض أن التحليل المنظم ممكن لأن الواقع الاجتماعى من حيث المبدأ مفهوم comprehensible ولكن قبل أن نحصر اهتمامنا فى معرفة الواقع لابد أن نحدد ما اذا كانت المعرفة نفسها ذات قيمة ففى اساس كل معرفة تعهد ما للقيمة التى فيه(٣٥) . ان الفينومينولوجيا المعاصرة - وهى من ابرز المذاهب المتبنية للاتجاه اللاتبيعى - تنادى بمنهج الفهم أى التوصل الى « المعانى » المعاشة عن طريق هؤلاء الذين يشتركون فى هذه الواقعة الاجتماعية او تلك . وتعتبر العالم التواصلى intersubjective تكون نتيجة نشاط الوعى ، أما العلم الطبيعى فهو احد مظاهر انتاج الوعى .

وبينما تتعامل العلوم الطبيعية مع علاقات ثابتة وموضوعات مادية قابلة للقياس وتخضع للتجارب فان العلوم الاجتماعية تفقد القياس

(34) M. Natansen (ed). Philosophy of the Social Sciences.

a reader. p. 186.

(35) Ibid. p. 20.

والتجارب وتتعامل مع موضوعات نفسية ومعنوية . ان الهدف الاساسى للعلوم الاجتماعية - فيما يرى شوتس - هو الحصول على معرفة منظمة « للواقع الاجتماعى » ويقصد به المجموع الكلى للموضوعات Objects والأحداث Occurences داخل العالم الاجتماعى الحضارى كما يشعر بها الناس العاديون الذين يعيشون حياتهم مع زملائهم ويرتبطون معهم بعلاقات تفاعل : انه عالم الموضوعات الحضارية والتنظيمات الاجتماعية التى نشأنا فيها والتى يجب ان نتلاءم معها . فمن البدء نحن القائمون بالأفعال فى المشهد الاجتماعى نختبر العالم الذى نعيش فيه كعالم طبيعى وحضارى فى نفس الوقت ، وليس باعتباره قاصرا علينا فقط ولكن باعتباره مشتركا لنا جميعا ، اما معطى حاليا أو ممكن الوصول اليه من جانب أى شخص ، وهذا يتضمن اتصالا ولغة (٣٦) .

ان على النظرية التى تهدف الى تفسير الواقع الاجتماعى ان تطور اساليب خاصة غريبة عن العلوم الطبيعية وذلك لكى تتفق مع التجربة العادية للعالم الاجتماعى . وهذا فعلا ما قامت به العلوم النظرية للشئون الانسانية - اقتصاد ، اجتماع ، قانون ، لغويات ، انثروبولوجيا حضارية .. الخ (٣٧) . ان تخلف الدراسات فى العلوم الاجتماعية فى رأى هذا الاتجاه - ترجع فى الدرجة الاولى الى الاعتقاد بإمكان تطبيق مناهج العلوم الأكثر تقدما خاصة الفيزياء ، على العلوم الاجتماعية . ان الوحدة المنهجية فى رأيهم مرفوضة لأنها تقوم على افتراض غير مؤكد فحواه ان الطرق المستخدمة من قبل العلماء الطبيعيين هى وحدها العلمية .

(36) A. Schutz . Concept and Theory Formation in the Social Sciences in Natanson (ed). Op. Cit. p. 236.

(37) Ibid. p. 241.

ثانيا - الظاهرة الاجتماعية او موضوع الدراسة :

اختلفت الآراء حول موضوع دراسة العلوم الاجتماعية وهو الظاهرة الاجتماعية فالبعض رآها فى بساطة الوقائع الطبيعية وقال أنها تخضع للدراسة العلمية الدقيقة والبعض الآخر جاهر بتعقدها وصعوبة اخضاعها للمنهج العلمى بسبب اختلافها البين عن الواقعة الطبيعية ، وبين هذا الطرف وذاك آراء متعددة قد تعترف بصعوبة مادة الدراسة الاجتماعية ولكنها تقبل فكرة دراستها علميا . بل لقد تطرف البعض الى درجة عدم اعتبار العلوم الاجتماعية علوما على الاطلاق .

(١) الموقف الطبيعى :

يرى اصحاب هذا الرأى ان الاختلاف الظاهرى بين المعطيات فى العلوم الاجتماعية والمعطيات فى العلوم الاجتماعية قد نشأ اساسا من الفشل فى الاعتراف بان المعطيات المباشرة فى كل العلوم هى استجابات انسانية لآى شىء قد اثار تلك الاستجابات . فالمعلومات فى عالمنا تعرف عن طريق الاستجابات الانسانية ومنها تستخلص وجود اى ظاهرة وخصائصها . ان العادة او الفكرة او المعتقد كمعطيات تعتبر حقيقية ، وملموسة ، وملاحظة ، وقابلة للقياس اى تخضع للدراسة العلمية مثل قطعة الحجر او المنضدة او الحصان . والتطور العلمى يعتمد على نوع الرموز التى تطورها لتمثل الظواهر التى نستجيب لها فمثلا رموز مثل الشرف ، والواجب ، والوفاء ، تخضع مع السلوك الذى تمثله للملاحظة وتعتبر موضوعات للدراسة الموضوعية تماما مثل لعبة البيسبول او طيران الطيور الموسمى ، او انطلاق الشرارة الكهربائية (٣٨) . معنى ذلك ان

تصنيف الموضوع الى « طبيعى » او « مادى » او « حضارى »
او « اجتماعى » لا غبار عليه بشرط الا يترتب عليه افتراض ان هذه
التصنيفات تؤثر على الطريقة التى بها نتعرف على الظاهرة محل البحث .

ويؤكد جون ستوارت مل ان هناك خلطا لا شك فيه لدى الذين
يعتقدون ان افكار واحاسيس وافعال البشر ليست موضوعا للعلم كما هو
موجود بالنسبة لموضوعات الطبيعة الخارجية . فإى واقعة تحدث هى
موضوع للعلم حتى لو لم نتبين الآن القوانين التى تحكمها وحتى لو لم
تكن تلك القوانين قابلة للاكتشاف بواسطة امكانياتنا الحالية . ونستطيع
ان نأخذ كمثال فى العلوم الطبيعية ظواهر الارصاد الجوية Meteorology
مثل المطر او اشعة الشمس وسوف نجد ان البحث العلمى حتى الآن لم ينجح
فى تأكيد تسلسل السوابق والنتائج فى تلك الظواهر حتى يكون فى امكانه
التنبؤ بحدوثها بشكل مؤكد او حتى بدرجة مرتفعة من الاحتمال فى
مكان ما من الكرة الأرضية . ولكن هذا لم يمنع ان تكون تلك الظواهر
معتمدة على قوانين وان هذه القوانين لابد ان تكون مشتقة من قوانين
أخرى معروفة مثل قوانين الحرارة والكهرباء والتبخر . الخ . كما لم
يمنع هذا من النظر الى علم الارصاد الجوية باعتباره علما ، الا ان
صعوبة ملاحظة الوقائع التى تعتمد عليها ظواهره تجعل منه علما ناقصا
imperfect . وكذلك علم الفلك فقد كان علما غير دقيق حتى أمكن
ادراج ظواهره تحت قوانين فتحول الى علم دقيق . وكذلك العلوم
الانسانية من الممكن اعتبارها فى مكانة علم الفلك قبل ان يصبح
علما دقيقا (٣٩) .

ان الفارق الاساسى بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية يكمن

(39) John Stuart Mill On the Logic of the Social Sciences
(book VI of Mill's A System of Logic) in Philip Wiener (ed.)
Readings in Philosophy of Science. Op. Cit. p. 247.

فى عدد العوامل التى لابد من أخذها فى الاعتبار أثناء عمليات التفسير والتنبؤ بالنسبة للأحداث الطبيعية والأحداث الاجتماعية ، إلا أن هذا الاختلاف هو اختلاف فى الدرجة فقط . وكما أن الظواهر فى العالم الطبيعى ليست متجانسة كما يظن الكثيرون ، فإن الظواهر فى العالم الاجتماعى أيضا ليست متغايرة بالصورة التى يخشى كثيرون أن تكون عليها . وعندما يبدو الواقع متضمنا عددا كبيرا من الاختلافات فنحن نبني عالما مثاليا من النماذج المجردة ونوجد فيها ما يكفى من التناسق لى تطبيق العقل reason ونستنبط منها النتائج المنتظرة للأشياء المفترضة . ويتبع هذا التجانس المصطنع لأنواع من الظواهر فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية على السواء . ليس هناك أدنى اختلاف بين ثبات حدوث الظواهر فى الطبيعة وفى المجتمع مادما نقوم بعملية تنظير Theorize لها . هناك فقط فرق فى الدرجة بين التغير فى ظواهر الطبيعة والمجتمع اذا كنا بصدد الحديث عن العالم الواقعى . ولكن لابد ألا نغفل وجود عالم ثالث يقع بين العالم المجرّد للنظرية والعالم الحقيقى غير الممكن التعامل معه ، وهو العالم الصناعى للمعمل التجريبى . فى هذا العالم هناك تغير أقل من العالم الطبيعى وأكثر من العالم النموذجى model ، ولا يوجد هذا العالم الثالث فى أغلب العلوم الاجتماعية كما يفتقد فى بعض العلوم الطبيعية ، ويحدث الخطأ من مقارنة العالم الصناعى للمعمل الذى نستطيع أن نتعامل معه بالعالم الحقيقى للمجتمع الذى لا نستطيع التعامل معه (٤٠) .

ويرى بوبر أن موضوعات العلوم الاجتماعية هى موضوعات مجردة abstract فهى بناءات نظرية (حتى « الحرب » أو « الجيش » تعتبر مفاهيم مجردة) . هذه الموضوعات المستخدمة فى تأويل تجربتنا

ليست الا نتيجة اقامة بعض النماذج models (وبصفة خاصة للأنظمة institutions) من أجل تفسير بعض التجارب ، ويعتبر هذا منهجا نظريا مألوفاً فى العلوم الطبيعية ، حيث نقوم ببناء نماذج للذرات ، أو الجوامد ، أو السوائل ... انه جزء من منهج التفسير عن طريق الرد أو الاحالة أو الاستنباط من الفروض (٤١) .

واذا كان تحليل أى موقف اجتماعى واقعى يزداد صعوبة نظرا لتعقده فان هذا ينطبق ايضا على أى موقف تجريبى واقعى . ان القول بان المواقف الاجتماعية أكثر تعقيدا من المواقف التجريبية هو ادعاء ينتج عن مصدرين :

الأول : هو قيامنا بالمقارنة بما لا يجب المقارنة به أى المقارنة بين المواقف الاجتماعية الواقعية والمواقف التجريبية الفيزيائية المعزولة صناعيا .

والمصدر الثانى : هو الاعتقاد فى أن وصف أى موقف اجتماعى يتطلب معرفة بالحالات العقلية وأحيانا بالحالات الفيزيائية لكل من يعينهم الأمر (٤٢) .

واذا تساءلنا كيف السبيل الى دراسة تلك الظواهر الانسانية فالتنا نجد الاجابة لدى عدد من رواد هذا الاتجاه . أن لندبرج يرى أن التصورات والأفكار والأحاسيس تعبر عن نفسها من خلال سلوك رمزى أو عصبى - عضلى وهذا يصدق على الظواهر الاستبطانية مثلما يصدق على الظواهر المفترض نشؤها خارج الملاحظ . أن افتراض عدم خضوع

(41) Popper. Unity of Method in the Natural and Social Sciences Op. Cit. p. 36.

(42) Ibid. p. 39.

المعطيات الخاصة بالوعى للدراسة الموضوعية تنشأ عن الحالة غير المتطورة لطريقة الدراسة . ان الخطأ - فى رايه - يكمن فى افتراض أن الطابع الهادف أو القصدي التى نحب أن ننسبها الى السلوك المجتمعى هى طابع جوهرى للسلوك بدلا من أن نقول انها طريقتنا الجميلة لوصفه . ولذا فمن الضرورى القيام بالبحث الدقيق لكل الظروف المؤثرة فى السلوك الملاحظ(٤٣) . واذا استطعنا تطوير وسائل استجابية تتيح المراجعة والتأكد من الاستجابات الخاصة بأشياء نعتبرها الآن غير ملموسة فانها تتحول الى اشياء ملموسة . . وسوف يساعد على التقدم فى هذا الموضوع وضعنا لهذا الكلام كفرض عملى *working hypothesis* ممكن حدوثه وليس امامنا خيار الآن الا قبول هذا الفرض اذا اردنا أن نخضع تلك المعطيات لمجال العلم(٤٤) . اما المناقشة الخاصة بكون المعطيات الطبيعية والاجتماعية « متطابقة » او « متشابهة » ففى رأى لندبرج انها غير ذات أهمية لأنه ليس هناك ظاهرة فى العالم متطابقة مع ظاهرة اخرى ، والاعتراف بأن الظواهر « الاجتماعية » مختلفة عن « الطبيعية » ليس له أهمية الا اذا حددنا اختلافها فى أى النواحي لأن كل الظواهر مختلفة فى نواح معينة . كما ان كل الظواهر متشابهة فى ناحية هامة وهى كونها جميعا مدركة عن طريق الحواس ويعتبر هذا الشبه هو الوحيد الذى يهمنى فى المناقشة الحالية لأننا نهتم بالطرق التى عن طريقها نستطيع التوصل الى المعرفة الصحيحة

. (٤٥) Valid Knowledge

أما « ناجل » فيتناول الظاهرة الاجتماعية باعتبارها متغيرا

(43) Lundberg . Op. Cit. p. 56.

(44) Ibid. p. 58.

(45) Ibid. p. 68 - 69.

اجتماعيا ، ملاحظا ان هناك صعوبة هامة متعلقة بالبحث فى الظاهرة نفسها ، وتتمثل هذه الصعوبة فى الطريقة التى تجرى بها التجارب على موضوع دراسة اجتماعية والتى قد تدخل تغييرات على مادة الدراسة : فاذا افترضنا - كما يقول ناجل - ان القائمين بالدراسة قد دربوا جيدا . ولا يدخلون تغييرات جوهرية على المعلومات التى يجمعونها فان المشكلة تبقى ما اذا كانت الاجابات فعلا تعبر - بسبب معرفة المستجيبين باستجوابهم - عن آراء واتجاهات كانوا يعتقدون فيها قبل المقابلة وسوف يعتقدون فيها بعدها . ان كون المستجيب يعلم بأنه موضوع يهم السائل ، بالاضافة الى تفكيره فى النتائج التى قد تستخلص من اجاباته على موضوعات تشغله ، بالاضافة الى الطريقة التى تسير بها المقابلة ، كل هذا قد يأتى الى الموقف بمؤثرات يكون لها تأثير على الاستجابات التى تصدر عنه - المستجيب - وذلك اما عن طريق اعطاء اجابات مؤكدة على موضوعات لم يفكر فيها من قبل او عن طريق ذكر آراء لا تمثل معتقداته الحقيقية ولا تعبر عن سلوكه المعتاد . وبالتالي فاذا كان هناك فرض تجمع هذه المعلومات لتأكيدهِ فان هذا الفرض لا يمكن أن يقيم على اساس هذه المعلومات . وعلى الرغم من أهمية هذه الصعوبة الا انها ليست فريدة وقاصرة على العلوم الاجتماعية وحدها ، فدارسو العلوم الطبيعية يستخدمون الدوات قياس قد تحدث تغييرا فى البعد المقياس فمثلا الحرارة التى نحصل عليها من ترمومتر وضع فى سائل لا تمثل حرارة السائل قبل وضع الترمومتر فيه ، لأن حرارة الترمومتر قبل وضعه فى السائل كانت مختلفة عن حرارة السائل وبالتالي فان درجتى الحرارة الأوليتين سوف تتغيران قبل أن يصبح الترمومتر والسائل فى حالة توازن حراري . المشكلة اذن تنشأ فى كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية لأن التغير فى موضوع الدراسة يحدث بواسطة الطرق المستخدمة لبحث هذا الموضوع . . . وتستطيع العلوم الاجتماعية ان تستخدم طرقا للبحث بواسطتها لا تحدث هذه الصعوبة اطلاقا او تحدث بطريقة اقل

حده - مثلا باستخدام طرق للملاحظة السلوك الاجتماعي دون أن يعلم المشتركون أنهم يخضعون للملاحظة ، او باستخدام ما يسمى « بالطرق الاسقاطية » حيث يعلم الأشخاص أنهم يخضعون للدراسة ولكنهم لا يعلمون بأهدافها(٤٦) .

(ب) الموقف اللاتبيعي :

يرفض اصحاب هذا الاتجاه الاقرار بوجود أى تشابه بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية فهناك فارق واضح بين وحدة المجتمع ووحدة الطبيعة . ويقول « زمل » فى هذا الصدد : « ان راينا مثل رأى كانت Kant وهو ان وحدة الطبيعة تنبع من ملاحظة شخص وهى تنتج عنه تجاه الأشياء الحسية وعلى أساسها وهذه الأشياء الحسية فى ذاتها متغيرة الخواص . وعلى العكس من ذلك فان وحدة المجتمع لا تحتاج الى ملاحظة فهى شىء مدرك بواسطة عناصره لأن هذه العناصر نفسها وحدات واعية مركبة »(٤٧) .

ويتفق اصحاب هذا الاتجاه مع الاتجاه الطبيعى فى القول يتعد موضوع دراسة العلوم الاجتماعية الا أنهم يرون على عكس الاتجاه الآخر أن هذه الصعوبة لا يمكن التغلب عليها وانها قاصرة فقط على العلوم الاجتماعية ولا يوجد مثل لها فى مجموعة العلوم الطبيعية . ويرتبط تعقد دراسة الظواهر الاجتماعية فى المقام الأول - فيما يرى كوهين - بقلة تكرار تلك الظواهر لدرجة أنها تصبح ظواهر تاريخية . فالحقيقة

(46) E. Nagel . Structure of Science . New York : Harcourt, Brace and World 1961, p. 466 - 467.

(47) G. Simmel. How is Science of Society Possible ? in M. Natanson (ed.) Op. p. 74.

الماضية لا يمكن ملاحظتها مباشرة وانما يكتفى بتأكيد حدوثها عن طريق التفكير Reason في الاحتمالات المفترضة . ثم ان التغير الكبير الذى يحدث فى الظواهر الاجتماعية يمكن النظر اليه على انه صورة اخرى لتعقدها . فبينما كل مستمتر من الهيدروجين يشبه الآخر فان ملاحظة مجتمع ما لا يمكن تطبيقها على مجتمع آخر . ان التفكير فى أمثلة من الواقع الاجتماعى يعتبر مجازفة فكرية لأننا من النادر ان نهرب من الانتقاء وبالتالي نجد انفسنا ننسب الى الكل ما هو صادق فقط بالنسبة الى اللحظات المختارة . حقا انه فى بعض المسائل الاجتماعية يمكن معاملة الأفراد باعتبارهم متشابهين : فى الاحصاءات الحيوية مثلا ، كل ميلاد أو وفاة يعتبر مثل الآخر بغض النظر عن الفرد فى حد ذاته لان تطبيق القواعد فى مجال العلوم الاجتماعية يعتبر محدودا جدا بالنسبة لتطبيق القوانين فى العلوم الطبيعية .

ويعتمد كوهين على « منطق مل » ليصور صعوبة الملاحظة المباشرة للظواهر الاجتماعية وصعوبة عزل عامل واحد فى زمن معين ، يقول « مل » انه يكفى أحيانا وجود ملاحظة واحدة أو تجربة واحدة للحصول على نتيجة قاطعة وفى حالات اخرى لا يكفى عدد كبير من الملاحظات للحصول على نفس النتيجة . ولتفسير ذلك يرى كوهين ان العلم الطبيعى يستطيع ان يعزل العامل ويتحكم فيه بحيث تاتى النتيجة مستبعدة لفرض ما من الفروض . ولكن فى حالة وجود اسباب متعددة وصعوبة عزل عامل واحد - كما هو الحال فى العلوم الاجتماعية - فان استبعاد فرض واحد من عدد كبير من الفروض لا يعطى اى تقدم فى سبيل اقامة السبب المحدد . ان المواقف الاجتماعية متشابكة ولا يمكن للفرد ان يغير عاملا واجدا دون التأثير على عوامل اخرى كثيرة . ومن هنا كانت صعوبة تحديد التأثيرات المعينة لعامل ما . كما ان سلوك الأفراد فى مجموعة كبيرة ليس كسلوكهم فى مجموعة أصغر وهذا يجعل من الصعب

تطبيق الطرق الرياضية - التى اتت بنتائج فى العلوم الطبيعية - على العلوم الاجتماعية لأن هذه المناهج تعتمد على قدرتنا على الانتقال من عدد صغير من الأمثلة instances الى عدد غير محدود بواسطة عملية الجمع او الادماج summation or integration بالاضافة الى ذلك فان القلة فى عدد الملاحظات يجعل تطبيق المنحنى الاحتمالى مصدرا لخطاء خطيرة . وفى العلوم الاجتماعية هناك اختلاف فى الآراء أوسع مما هو موجود فى العلوم الطبيعية كما أن التجربة أصعب ومن هنا نجد أننا نتمسك بافتراضاتنا الأولى بحيث تشكل هذه الافتراضات ما نتقبله باعتباره حقائق أو وقائع كما أن النظرة الذاتية الى الوقائع تجعل العلماء المختلفين يرونها بصورة مختلفة ويرجع ذلك ليس فقط الى احتمال أن العلماء المختلفين لاحظوا أشياء مختلفة ولكن أيضا الى أن الوقائع الاجتماعية نفسها قد تغيرت (٤٨) .

ان موضوع دراسة العلوم الاجتماعية هو الفرد والمجتمع وهذان القطبان لا يتمثلان فى مجرد سلوك يخضع للدراسة بطريقة آلية وانما هناك علاقة دياكتيكية نحتاج الى منهج خاص لكى نفهمها . ان الداخل Within والخارج Without بين الفرد والمجتمع على نحو ما يرى زمل ليسا شيئين منفصلين وانما هما يحددان معا الموقف المتسق للانسان باعتباره حيوانا اجتماعيا . ان وجود الفرد اذا حللنا محتوياته ليس مجرد جزء اجتماعى وجزء فردى ولكنه ينتمى الى الفئة الأساسية والحاسمة والثابتة للوحدة التى نستطيع أن نقول عنها انها تركيب أو تعاقب لخاصيتين متعارضتين منطقيا للانسان : الخاصة الخاصة بوظيفته

(48) M. R. Cohen Reason in Social Scial Science. in H. Feigl and M. Brodbeck (eds.) Readings in the Philosophy of Science. New York : Appleton Century Crofts Inc. 1953. pp. 664 - 667.

كعضو فى المجتمع ونتاج ومحتوى له والخاصية المقابلة التى تقوم على وظائفه ككائن مستقل والتى تتوجه الى حياته من خلاله هو ومن أجله هو . ان المجتمع لا يتكون من مجرد أفراد غير مجتمعين ولكن من كائنات تشعر من جهة بأنها موجودات اجتماعية كاملة ومن جهة أخرى - بدون أن تغير من محتواها - بأنها موجودات فردية كاملة . . . ان الصفات الفطرية والعلاقات الشخصية والخبرات الحاسمة تجعل لكل شخص فردية وعدم تكرار سواء فى تقدير الشخص لنفسه أو فى تفاعله مع الآخرين (٤٩) .

يتركز إذن الموقف الثانى من موضوع الدراسة فى القول بتعدد موضوع الدراسة الاجتماعى ، ففهم الآخرين لا يمكن أن يصل الى درجة الدقة الموجودة فى علوم مثل الفيزياء والكيمياء لتمييز هذين الآخرين ببساطة موضوع الدراسة . كما أن طبيعة هذا الموضوع (الانسان) يجعل من الصعب التوصل الى أحد الأهداف الهامة للعلم وهو التنبؤ .

ثالثا - مشكلات منهجية :

لقد واجه دارسو العلوم الاجتماعية مشكلات وعقبات فى سعيهم نحو إقامة مجالات اهتمامهم على أساس علمى . ان وجود علوم طبيعية متطورة على أساس منهجى سليم مثل بالنسبة لهم التحدى الذى يجب عليهم مواجهته للوصول بعلومهم الى مستوى يقارب مستوى العلوم الطبيعية .

ان دراسة المجتمع والسلوك الانسانى قديمة ولكن « النظرية » الاجتماعية التى نشأت من هذه الدراسة فى الماضى هى فى المقام الأول فلسفة اجتماعية وخلقية وعلى الرغم من التاريخ الطويل للاهتمام بالظواهر الاجتماعية فإن الناتج العلمى يعتبر حديثا . وفى الواقع أنه

لم يتكون بعد نسج متكامل من القوانين العامة فى أى مجال. من
البحث الاجتماعى يماثل النظريات فى العلوم الطبيعية سواء من ناحية
القوة التفسيرية أو القدرة على التوصل الى تنبؤات يعتمد عليها (١٠) .
ويرجع ذلك الى عوامل كثيرة أبرزها عدم وجود اتفاق بين الدارسين حول
أوضاع العلوم الاجتماعية ككل . الا ان هذا لا يعنى ان تلك العلوم لم
تخط على أيدي العلماء خطوات واسعة فى سبيل وصف الظواهر
ومحاولة تفسيرها من أجل إقامة سياسة اجتماعية سليمة . ومن المفيد
ان عرضنا للآراء الخاصة بالمنهج وبالظاهرة الاجتماعية ان نتعرض
للمشكلات التى تواجه البحث الاجتماعى . وتدور تلك المشكلات
حول محاور ثلاثة :

(١) شكل البحث الاجتماعى .

(ب) التعميم والتنبؤ .

(ج) القيم .

(٢) شكل البحث الاجتماعى :

تحتاج العلوم المختلفة الى التجريب لى تثبت من كافة الفروض
التي تصوغها وهى بصدد دراسة الظاهرة محل البحث . ويعتبر خضوع
الفرض للتثبت عن طريق التجربة احدى الخصائص البارزة فى العلوم
الطبيعية وحدى المزايا التى تتفوق بها . الا ان اختبار الفروض عن
طريق التجارب ليست خاصية عامة فى كل العلوم الطبيعية كما أنها
لا تمثل حدا فاصلا بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية - فيما يرى
همبل - لأن الاختبار التجريبي experimental test يستخدم فى

علم النفس ويدرجة أقل فى علم الاجتماع ويتزايد استخدامه مع التطور العلمى . كما أن بعض الفروض فى العلوم الطبيعية لا تسمح بالاختبار التجريبى وفروض علم الفلك دليل على ذلك (٥١) .

ان استخدام التجارب فى العلوم الطبيعية يستند فى الدرجة الأولى الى القول باطراد الطبيعة : ففى الامكان فى ضوء ظروف متماثلة وتحت شروط معينة انتاج نفس النتائج . وفى العلوم الاجتماعية نواجه صعوبة هامة وهى ايجاد الظروف المتماثلة لأن الظروف تتغير من موقف الى آخر ويرجع هذا الى تعقد الظاهرة الاجتماعية ، وعلى حين أن الظواهر الطبيعية تخضع للتجريب بسهولة فان التجريب على الانسان شاق وفى بعض الأحيان يكون مستحيلا ، لأن اخضاع نواح معينة من الذات الانسانية للتجريب ربما ادى الى القضاء على كل ما هو مميز لها ، بحيث تختفى الظاهرة الانسانية المراد بحثها بمجرد أن تصبح موضوعا للتجريب (٥٢) .

ويصف ناجل التجربة فيقول : يقوم المجرى بتطويع بعض المقومات (وتسمى بالمتغيرات variables أو العوامل factors) ، وفى الموقف يفترض أنها تمثل شروطا لحدوث الظاهرة موضع الدراسة . ويتغير بعض منها - الموقف المثالى يتطلب تغيير عامل واحد فقط - والحفاظ على الأخرى ثابتة ، يستطيع الملاحظ أن يدرس تأثير هذا التغيير على الظاهرة ويكتشف علاقات الاعتماد الثابتة بين الظاهرة

(51) C . G . Hempel Philosophy of Natural Sciences. New York Prentice Hall Foundations of Philosophy Series. 1966, P. 22 .

(٥٢) د . فؤاد زكريا : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، مجلة الطليعة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ ص ١٨٧ .

والمتغيرات . هذه التجربة لا تتضمن فقط اجراء تغيير فى المتغيرات ولكن تتضمن أيضا أحداث تأثيرات - كنتيجة لهذا التغيير - على الظاهرة موضع البحث . الا ان التجربة بهذا المعنى - فيما يرى ناغل - لا يمكن اجراؤها الا نادرا فى العلوم الاجتماعية لأن العلوم الاجتماعية لا تملك القوة على احداث التغيير التجريبي على المادة الاجتماعية ذات الأهمية العلمية . . . واكثر من هذا فان التغيير المقصود على موقف اجتماعي يؤدي الى تعديل فى المتغيرات الأخرى المرتبطة . وتكرار هذا التغيير من أجل الوصول الى تحديد ما اذا كانت التأثيرات الملاحظة ثابتة سوف يحدث على متغيرات ليست فى نفس الظروف الأصلية . ولما كنا لا نستطيع أن نحكم ما اذا كانت التأثيرات هى نتيجة للتعديلات التى حدثت فى الحالات الأصلية للمتغيرات أو ناتجة عن التعديلات فى الظروف الأخرى للتجربة فانه يصبح من المستحيل علينا أن نحدد بواسطة التجربة ما اذا كان التغيير الذى طرأ على الظاهرة الاجتماعية يرجع الى تعديل فى متغير معين أم لا . وبالإضافة الى ذلك فان مدى التجريب فى العلوم الاجتماعية محدود جدا لأن التجربة المضبوطة ممكنة فقط اذا أمكن اجراء تغييرات ملاحظة فى الظاهرة موضع الدراسة - وهو احتمال بعيد بالنسبة للظواهر الاجتماعية التى لا تتكرر وتعتبر فريدة تاريخيا (٥٣) .

ولكن هل صعوبة اجراء التجربة فى العلوم الاجتماعية تعتبر عائقا فى سبيل اقامة هذه العلوم على أساس من القوانين العامة ؟ فى الواقع ان العلوم التى تريد التوصل الى قوانين عامة تستخدم - فى حالة عدم قدرتها على اللجوء الى التجربة المضبوطة - ما يسمى بالبحث المضبوط *Controlled investigation* وهو عبارة عن البحث عن مواقف

متغيرة حيث تكون الظاهرة اما واقعة بانتظام او تحدث فى بعض حالات وليس فى حالات أخرى ، ويفحص هذه العوامل فى تلك الأحوال يمكن معرفة ما اذا كان التغيير فى هذه العوامل مرتبطا بالتغيرات فى الظواهر ام لا . ويطلق على البحث الذى يستخدم هذه الطريقة « بحث تجريبى مضبوط Controlled emperical inquiry » (٥٤) .

ولكن هل تخلو العلوم الاجتماعية فعلا من التجربة ، فى الواقع اننا نجد نوعين من التجريب فى العلوم الاجتماعية : التجربة المعملية laboratory experiment والتجربة الميدانية field experiment ويوضح ناجل النوع الاول مبينا انه شبيه بالتجربة المعملية فى العلوم الطبيعية . وهى تتضمن بناء موقف صناعى فى الحياة الاجتماعية شبيه بالموقف « الواقعى » فى بعض الجوانب ولكنه يتفق مع متطلبات فى العادة غير موجودة فى الموقف الواقعى من حيث أن بعض المتغيرات (وهى المفترض مسئوليتها عن حدوث الظاهرة) تخضع للتحكم فى الموقف المعملى بينما يمكن الحفاظ على بعض المتغيرات الأخرى ثابتة تقريبا . هذه التجربة وإن كانت مستخدمة فى مجالات من البحث الاجتماعى الا أن كثيرا من الدراسات الخاصة بالظواهر الاجتماعية لا تستعين بها . وقد كانت هذه التجارب مفيدة فى أبحاث علم النفس مثل الدراسات الخاصة بسلوك الأطفال . الا أن هناك تحذيرا هاما بالنسبة للتجربة المعملية وهى انها لا تصلح وحدها للوصول الى التعميم ولا بد من بسط البحث الى البيئات الاجتماعية الطبيعية Natural Social environments . اما النوع الثانى من التجارب وهو المسمى بالتجربة الميدانية فيتخذ كموضوع دراسة المجتمع « الطبيعى » natural بحيث يمكن التحكم فى بعض المتغيرات والتأكد عن طريق المحاولات المتكررة ما اذا كانت التغيرات الحادثة فى المتغيرات تنتج اختلافات

محددة فى بعض الظواهر الاجتماعية أم لا . وفى احدى هذه التجارب الميدانية مثلا أجريت تعديلات فى طريقة تنظيم عمل جماعة من العاملين فى مصنع مع تحديد مختلف أنماط التنظيم فى البحث . وأمكن التوصل الى أن الجماعات التى تطبق عليها أنظمة « ديمقراطية » أكثر إنتاجية من الجماعات التى نظمت بطريقة أقل ديمقراطية . ولا شك أن للتجربة الميدانية مزايا أكثر من التجربة المعملية إلا أن الصعوبة هى فى الحفاظ على متغيرات ثابتة (٥٥) .

التجريب إذن ممكن على نحو خاص فى العلوم الاجتماعية ، وعدم شيوعه لا يعنى استحالة . فإذا أمكن التغلب على بعض العوائق مثل ارتباط الفروض المتعارضة مع الوقائع الملاحظة وأمكن استبعاد بعض هذه الفروض وتحديد المتغيرات فإن التجربة تصبح ممكنة مع وضع طبيعة الظاهرة الاجتماعية فى الاعتبار .

(ب) التعميم والتنبؤ :

ارتبط التعميم فى العلوم الاجتماعية بوجهة النظر الخاصة بكل من الظاهرة الاجتماعية والمنهج الملائم للبحث . أن أغلب الذين رفضوا منهج العلوم الطبيعية باعتباره صالحا للتطبيق على العلوم الاجتماعية ، وطالبوا بمنهج يتلائم مع الطبيعة الخاصة للظواهر الاجتماعية جاهرُوا بوجود عقبات فى سبيل إقامة القوانين العلمية (٥٦) . والذين نادوا بتطبيق نفس مناهج الفيزياء على الظواهر الاجتماعية ، واعتبروا

(55) Nagel op. cit. p. 456.

(٥٦) باستثناء الذين يعتقدون فى امكانية قيام قوانين اجتماعية أرقى من قوانين العلم الطبيعى وذلك بالاستناد الى منهج الفهم انظر :
Kanfmann Op. Cit. p. 143.

الظاهرة الاجتماعية قابلة للدراسة مثلها مثل الظاهرة الطبيعية ، فقد صرحوا بإمكانية التوصل الى اقامة قوانين عامة يعتمد عليها فى مجال البحث الاجتماعى .

ان الذين رفضوا امكانية وجود قوانين فى العلوم الاجتماعية اقاموا هذا الرأى على أساس اختلاف تلك العلوم عن العلوم الطبيعية فاذا كانت القوانين الفيزيائية صالحة فى أى زمان ومكان فيرجع ذلك الى ان العالم الطبيعى يحكمه نسق من الاطرادات لا تتغير عبر الزمان والمكان بينما القوانين الاجتماعية تختلف باختلاف الزمان والمكان . ان امكان التعميم ونتجحه فى العلوم الطبيعية يعتمد على اطراد الطبيعة *Uniformity of nature* . اما فى المجتمع فليس هناك اطراد يستطيع التعميم الواسع الاعتماد عليه . . كما ان الاطرادات الاجتماعية تختلف عن الاطرادات الموجودة فى العلوم الطبيعية وذلك لأنها تتغير من مرحلة تاريخية الى اخرى والنشاط الانسانى هو القوة التى تغيرها فالاطرادات الاجتماعية ليست قوانين للطبيعة وانما هى من صنع الانسان ، والطبيعة البشرية تملك القوة ان تغيرها وربما التّحكم فيها (٥٧) .

ويستند الرأى القائل بعدم وجود قوانين اصيلة أو مباشرة على الإطلاق فى العلم الاجتماعى الى مبررات :

١ - ان حرية الارادة الانسانية تأتى بعامل من اللايقين فى التكهّنات الاجتماعية *in social prognoses* ومن هنا فلا يوجد قانون لأن قرارات الأشخاص تتأثر بعوامل لا عقلية تتحدى الحساب الرياضى .

٢ - ان التجربة تلعب دورا أساسيا فى كشف القوانين الطبيعية

ولكن فى المجال الاجتماعى تصبح التجربة ممكنة فى حدود ضيقة جدا بحيث لا يمكن اقامة منهج على اساسها .

٣ - ان ما يسمى بالقوانين الاجتماعية يفتقر الى الصدق الموضوعى ، فالقوانين تختلف باختلاف « منظور » العالم الاجتماعى الى بعده الزمنى عن الأحداث التى يريد تفسيرها ، وباختلاف وضعه او محيطه الاجتماعى بالاضافة الى ان العلم الاجتماعى ليس متحررا من القيمة مثل العلم الطبيعى .

٤ - ان دقة القوانين الفيزيائية ترجع الى شكلها الرياضى ولكن الرياضة لا تنطبق على المجال الاجتماعى (٥٨) .

ويعتبر كوهين أحد العلماء الذين يرفضون امكانية اقامة قوانين فى العلوم الاجتماعية ويقول فى هذا الصدد ان وجود تشابهات similarities فى مجتمعات مختلفة فى اوقات مختلفة استخدم كدليل على وجود قانون عام يصدق فى كل الظروف وعلى كل البشر . الا ان التشابهات فى العادات والتقاليد حتى لو لم تكن سطحية ليست قوانين . فما دام البشر يتشابهون فى الشكل والتركيب العضوى والسمات النفسية فمن الطبيعى ان نجد ان تعبيراتهم الاجتماعية بها نقاط تشابه (٥٩) . ويقيم كوهين المبرر الثانى للرفض على أساس تعقد الظواهر الاجتماعية وعدم تكرارها . فالقوانين الطبيعية تحتوى على عدد صغير من المتغيرات ، فاذا أصبح هذا العدد كبيرا او أصبحت الوظائف معقدة فان القوانين لا يمكن تطبيقها ويصبح العلم الفيزيائى مستحيلا . فاذا كانت الظواهر الاجتماعية تعتمد على عدد من العوامل

(58) Kanfmann op. cit. p. 143 - 144.

(59) Cohen Op. Cit. p. 667.

يصعب علينا التحكم فيها فلا يمكن ضمان الوصول الى قوانين تحكم ظواهر الحياة الاجتماعية . والظواهر الاجتماعية مها كانت محددة لا تستطيع ان تفرض على عقل محدود فى زمن محدود أى قوانين على الاطلاق . فلا يمكن اذن مهما حددنا الظواهر الاجتماعية ان نصل الى أى قانون لانه لا يوجد تكرار فى الظواهر (٦٠) .

ويقيم الرأى المقابل امكانية وجود قوانين عامة فى العلوم الاجتماعية على اساس عدم وجود فارق بين قوانين تلك العلوم وقوانين العلوم الطبيعية . ويؤكد وجهة نظره بتفنيد الآراء المعارضة . وسوف نأخذ آراء فيلسوفى العلم جرانبوم Grunbaum وناجل Nagel كممثلين لهذا الاتجاه .

يرى جرانبوم ان السلوك الانسانى - الفردى والاجتماعى - اذا لم يعرض لتتابعات علة ومعلول او سبب ونتيجة فان هذا يعنى ان المنهج العلمى غير صالح لكشف طبيعة الانسان ، ولن يستطيع علم النفس او العلوم الاجتماعية الوصول الى مكانة العلوم . ويرجع هذا الرأى الى ان هدف التفسير العلمى فى كافة العلوم باستثناء الرياضيات البحتة هو « تفسير » ظاهرة ماضية او التنبؤ بحدث فى المستقبل وذلك بالاشارة الى أن تلك الامثلة instances هى نماذج لقانون (أو قوانين معينة) وحدوثها يرجع الى ان الظروف التى تستدعى تطبيق القانون متوفرة وبالتالي فان انكار وجود تماثلات فى السلوك الانسانى الفردى والاجتماعى يعنى انه لا يمكن استخلاص دروس ذات معنى من الماضى وأن مستقبل الانسان متقلب ومغير (٦١) .

(60) Ibid. p. 666.

(61) Grunbaum Causality and Science of human behavior in Feigl & Brodbeck (eds.) op. cit. p. 767.

ويناقش جرانبوم الرأى الذى يعتمد على القول بأن كل انسان فريد ولا يشبه اى فرد آخر وبالتالي فان سلوكه لا يخضع للوصف السببى ولا يمكن التنبؤ به : ان كل جزئية فى العالم ولا شك فريدة سواء كانت شيئا ماديا او حدثا او كائنا بشريا ، ومن الواضح ان تفرد الأحداث المادية لا يمنع من كونها متصلة بالقوانين السببية لأن القوانين السببية الموجودة الآن تربط بعض مظاهر مجموعة من الأحداث بمجموعة اخرى ... وما دامت العلاقة بين السبب والنتيجة هى علاقة بين انواع من الأحداث ، فانه ليس من الضرورى أن تكون كل خصائص سبب ما مكررة بالكامل لكى تعطى نفس النتيجة . ويترتب على هذا انه حينما يفترض عالم النفس وجود قوانين سببية للسلوك الانسانى فان هذا الموقف لايتعارض مع وجود اختلافات متعددة بين البشر ولا يؤثر على تفرد وكرامة كل فرد (٦٢) .

ويرفض ناجل الصعوبة التى كثيرا ما تناقش كعائق فى سبيل اقامة قوانين عامة فى العلوم الاجتماعية وهى الطابع المشروط « تاريخيا » او المحدد « حضاريا » للظواهر الاجتماعية . ان هذه الصعوبة تستند الى المناقشة التالية : على الرغم من ان كثيرا من المجتمعات فى الماضى والحاضر لها تنظيمات متشابهة - التنظيم الأسرى ، تعليم الصغار - الا ان هذه التنظيمات بوجه عام قد قامت كاستجابة لبيئات محيطية مختلفة ، كما انها تشتمل على تقاليد حضارية متنوعة حتى ان الأبنية والعلاقات الداخلية تختلف ايضا فى المجتمعات المتعددة . وبالتالي فان انماط السلوك الاجتماعى سوف تتغير باختلاف المجتمع وباختلاف طابع الأنظمة خلال حقبة تاريخية معينة . وعلى خلاف قوانين الطبيعة والكيمياء فان تعميمات العلوم الاجتماعية مجالها محدود ولا ينكر ناجل

أن السلوك البشرى يتأثر بتعدد الأنظمة الاجتماعية التى ينشأ فيها ... مما يؤدى الى جعل القوانين الموثوق بها عن الظواهر الاجتماعية محدودة العمومية . الا أن هذا لا يعنى أن القانون الثقافى transcultural law (وهو القانون الصالح فى مختلف المجتمعات) الخاص بالظاهرة الاجتماعية مستحيل . أن التشكك فى امكانية القوانين الاجتماعية يتمثل - فى رأى ناجل - فى افتراض أن القوانين العلمية لابد أن تتيح لنا التنبؤ بالمستقبل وذلك يؤخذ علم الفلك كنموذج Paradigm لآى علم يريد أن يكون علما ... الا أن الظروف التى تسمح بالتنبؤ البعيد فى الفلك لا تتوفر فى العلوم الطبيعية الأخرى . ذلك أن المجموعة الشمسية معزولة وسوف تظل كذلك لزمان طويل ومن هنا أمكن التوصل الى التنبؤ . واغلب العلوم الطبيعية الأخرى لا تتوفر فيها هذا الشرط ومن هنا صعوبة التنبؤ البعيد المدى ، بالإضافة الى ذلك فالتنبؤ فى فروع العلوم الأخرى نجعل الظروف الأولية initial التى دعت الى استعمال نظريات بالذات من أجل التنبؤ . فمثلا من الممكن التنبؤ بحركة البندول مادام معزولا عن تأثير العوامل المزعجة له ذلك أن كل من النظرية والمعلومات الواقعية متوفرة ، ولكن التنبؤ لا يمكن الثقة به فى المستقبل لأن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن الجهاز لن يظل معزولا عن التداخلات الخارجية . ومن الواضح إذن أن عدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل البعيد ليست قاصرة على دراسة الموضوعات الانسانية وحدها (٦٣) .

ويؤكد ناجل أن القانون فى أى مجال للبحث اذا أريد له أن يغطى مجالا واسعا من الظواهر التى تعرض اختلافات هامة ووثيقة الصلة بالموضوع فلا بد أن يتجاهل فى صياغته هذه الاختلافات بحيث لا تعبر

(63) Nagel Op. Cit. p. 459 and also E. Nagel Concept and theory formation in Social Sciences in Natanson op. Cit. p. 207.

الالفاظ المستخدمة فى الصياغة عن سمات معددة للظواهر التى تحدث فى ظروف معينة ، الا ان تحليل المظاهرة الاجتماعية بغرض التوصل الى القوانين العامة قد سار فى طريق الاختلافات *distinctions* التى يقوم بها البشر فى انشطتهم الاجتماعية اليومية . وحتى اذا حصلنا على وضوح فى العوامل غير الواضحة فاننا لا نستطيع ان نستبعد كلية رجوعنا الى أشياء خاصة بمجتمع معين (أو تقليد معين) . واكثر من ذلك أن الظروف التى نصل فى ضوئها الى التعميمات نادرا ما تكون معروفة تماما . وبالتالي فان التعميمات تكون تعبيرات عن ارتباطات احصائية اكثر منها علاقات اعتماد عامة أو قد تكون شبه عامة (بمعنى انه على الرغم من أن التعبير عنها عام فى شكله الا أنها تذكر بدون أى نية لاستبعاد الاستثناءات المتعددة) . واذا اريد للقوانين والنظريات الاجتماعية أن تعبر عن علاقات اعتماد لا تتغير مع الاختلافات الثقافية البادية فى الفعل الانسانى فلا بد للتصورات الداخلة فى هذه القوانين ألا تعبر عن مجرد السمات المميزة لمجموعة واحدة معينة من هذه المجتمعات (٦٤) .

ويؤكد د. زكى نجيب محمود أهمية القوانين فى العلوم الاجتماعية فيقول « ان العلوم الانسانية - كعلم الاقتصاد وعلم النفس - تحاول جاهدة أن تأخذ - ما استطاعت بمناهج العلوم المتقدمة ، ومن اهم اركان هذه المناهج ان تحل فكرة « القانون » محل فكرة « السببية » فلا يكون البحث عن شيء يعد سببا لشيء آخر ، بل يكون البحث عن دالة رياضية تبين العلاقة بين مجموعة من المتغيرات (٦٥) .

ويعتبر التنبؤ بالأحداث المستقبلية أحد المهام الرئيسية للعلم ،

(64) Nagel . Structure of Science Op. Cit., p. 463 - 65.

(٦٥) د. زكى نجيب محمود : مرجع سابق ، ص ٢٧٥ .

وهو يمثل مع التعميم نتائج البحوث السليمة ، الا انه يواجه صعوبة فى العلوم الاجتماعية لا ينكرها العلماء او المشتغلون بفلسفة العلم . فقد يغير البشر أنماط سلوكهم نتيجة معرفتهم لتلك التنبؤات ذلك أننا فى العلوم الاجتماعية فيما يرى بوير نواجه تفاعلا كاملا ومعقدا بين ملاحظ وشخص خاضع للملاحظة ، بين دارس وموضوع دراسته . وأدراكنا لوجود ميول tendencies قد تؤثر فى الحدث مستقبلا وأدراكنا ان التنبؤ قد يؤثر على الأحداث المتنبأ بها ، هذا الادراك له تأثير على محتوى التنبؤ . ويكون نتيجة ذلك اضعاف موضوعية التنبؤات وافساد نتائج اخرى فى البحث . ان التنبؤ ليس الا حدثا اجتماعيا قد يتفاعل مع احداث اخرى اجتماعية ومن بينها الحدث نفسه المتنبىء به . وقد يؤدي هذا فى الحالات المتطرفة الى حدوث الحدث الذى يتنبىء به والذى لم يكن سيحدث لولا التنبؤ . وفى الطرف الآخر من المتصل قد يؤدي التنبؤ بحدث ما الى منع حدوثه ، وتوجد حالات اخرى كثيرة متوسطة بين الطرفين (٦٦) .

ويميز ناجل بين نوعين من التنبؤات : كل نوع يعبر عن طريقة تحدث تبعا لها الأفعال الصادرة عن معتقدات خاصة بالموضوعات الانسانية ، وتؤثر كل طريقة فى صدق هذه المعتقدات نفسها . النوع الاول يسمى « التنبؤ الانتحارى » suicidal prediction وهو مكون من تنبؤات اساسها سليم عند تكوينها وقابلة لأن تؤيد بالأحداث المستقبلية ، الا أن الأفعال التى تحدث نتيجة اعلان هذه التنبؤات تحيلها الى تنبؤات كاذبة . والنوع الثانى يسمى النبوءة المحققة لذاتها the self - fulfilling prophecy وهى عبارة عن تنبؤات غير صادقة بالنسبة للوقائع الموجودة فى وقت التنبؤ ولكنها تصبح صحيحة وصادقة بسبب الأفعال التى تحدث كنتيجة للاعتقاد فى

تلك التنبؤات . ويرى ناجل أنه من الخطأ الاعتقاد أن هذه المشكلة - وجود النوعين السابقين من التنبؤات - قاصرة على العلوم الاجتماعية ومتصلة « بحرية الإرادة الانسانية » ، ففي الواقع أن هناك أمثلة من العلم الطبيعي تعبر عن النوعين السابقين من التنبؤات . كما أن هذا لا يمنع من إقامة قوانين اجتماعية عامة (٦٧) .

وبين كوهين استحالة التنبؤ في العلوم الاجتماعية بسبب تدخل عوامل أخرى لا يمكن حسابها مسبقاً . ففي رأيه أننا نستطيع التنبؤ بالظواهر في مجال الفيزياء إذا كانت القوى الجاذبة والمضادة قابلة للقياس . أما في المجال الاجتماعي وفي حالة وجود القدرة على قياس القوى الاجتماعية بالإضافة إلى وجود ارتباط ما بينها ، فإن ما نعتبره قابلاً في العلوم الطبيعية قد لا نستطيع تطبيقه . فعندما تتنازع الأفراد الاهتمامات الدينية والاقتصادية في اتجاهات مختلفة ، فهناك يثور السؤال : أي القوى ستتغلب ؟ هذا السؤال لا يمكن الإجابة عليه علمياً : فنحن لا نعلم كم وحدة تملكها قوة اجتماعية معينة سوف تعارض الأخريات وكل ما نستطيع قوله هو أنه في بعض الحالات قد تطغى البواعث الدينية على البواعث الاقتصادية وفي حالات أخرى يحدث العكس . وفي أغلب الحالات لا يمكن فصل البواعث على الإطلاق (٦٨) .

وفي السببية الاجتماعية social causation لا يختفى السبب بعد أحداث النتيجة وإنما ممكن أن يستمر ويتغير تحت تأثير ما يترتب عليه من نتائج . فمثلاً قد يؤثر نظام تعليم معين على تجارة جماعة ما ، وهذا بدوره قد يؤثر على التعليم . هذا ممكن لأن نظام التعليم ليس حدثاً سببياً فردياً ولكنه نموذج من الأحداث . إن العلاقة السببية

(67) Nagel . Structure of Science Op. Cit., p. 468.

(68) Cohen Op. Cit., p. 670.

بينهما ترجع الى التحليل المنطقى لمجموعة من الظواهر . والاهتمام العلمى يحتم عزل مظهر واحد من الظواهر الاجتماعية - الاقتصادية أو السياسى أو الدينى - وتتبع تأثير التغيير فيه . حتى المؤرخ يحتاج أن يختار ويلزم نفسه بمراحل معينة من الأحداث الاجتماعية (٦٩) .

يتفق اذن اغلب الدراسين للعلوم الاجتماعية على أن التنبؤ يواجه صعوبات ليس من السهل التغلب عليها بسبب تعقد الظاهرة الاجتماعية وتدخل العامل البشرى كمؤثر على صدق التنبؤات . وسوف نناقش فى الجزء التالى تأثير العامل البشرى على البحث الاجتماعى .

(ج) القيم والبحث الاجتماعى :

ترتبط القيم فى البحث الاجتماعى بكل من الباحث وموضوع بحثه . وكثيرا ما ينظر اليها كعقبة تحول دون العلوم الاجتماعية وتحقيق للاتفاق حول الوقائع الموجودة والتفسيرات الصالحة لها ، وذلك بادخالها متغيرات كان يفضل استبعادها من مجال البحث . ويعبر د . فؤاد زكريا عن هذه المشكلة كالتالى : « هناك صعوبة هى حساسية المجال الانسانى واتصاله بعالم القيم والمصالح والغايات والأمانى . فالعالم الطبيعى يبحث موضوعات محايدة والنتائج التى ينتهى اليها من أبحاثه يتساوى تأثيرنا فيها . وليست لدى الانسان مصلحة خاصة فى تغليب نظرية فى العلم الطبيعى على الأخرى . اما فى حالة العلوم الانسانية فان الموضوعات التى تتناولها ذات حساسية خاصة والنتائج التى تتوصل اليها تؤثر تأثيرا بالغا فى قيمنا وفى غاياتنا وتمس مصالحنا واهتماماتنا وتثير خلافاتنا وحساسياتنا . وحين تقترب من المجال الانسانى فان العلم لابد أن يتداخل مع المصالح ومع القيم ، ويصبح الحياد والموضوعية التامة أمرا عظيم الصعوبة (٧٠) » .

(69) Ibid. p. 672.

(٧٠) د . فؤاد زكريا : مرجع سابق ، ص ١٨٧ .

ان ارتباط القيم بالباحث نفسه فى المجال الاجتماعى يتبدى فى صورتين : اختيار الباحث لمشكلات بحثه ، ثم تدخل قيم الباحث وارائه الشخصية وتحيزه فى اثناء تحليله للظاهرة موضع الدراسة . فاما بالنسبة للصورة الاولى وهى تدخل القيم فى اختيار المشكلة فيرى بعض العلماء ان هذه العملية تقوم اساسا على رأى الباحث لما هى القيمة المهمة اجتماعيا . حتى ان « ماكس فيير » على الرغم من انه من القائلين بعلم اجتماع « خلو من اعتبارات القيمة » Value free الا انه يرى ان العلماء الاجتماعيين يجب ان يقدروا (او يفهموا) القيم الداخلة فى الأفعال او الأنظمة التى يناقشونها ، ولكن ليس من شأنهم ، باعتبارهم علماء موضوعيين ، أن يؤيدوا او يرفضوا هذه القيم أو هذه الأفعال والأنظمة (٧١) .

بينما يرى « فيجل » ان الأحكام القيمية على الرغم من انها تلعب دورا فى اختيار المشكلات وطرق تناول هذه المشكلات الا انها لا تدخل كجزء فى العلم نفسه ، انها مثل اعتبارات النفع والاحتمال التى تدخل فى التخطيط العقلى للموضوع العملى . وبهذا المعنى فهى تسعى وراء النشاط العلمى وليست محتوى معرفيا له (٧٢) .

ويتساءل ماشلوب عن نوع القيم واى القيم لها الأولوية ونحن بصدد اختيار المشروع اى موضوع الدراسة . فاذا حول البحث عن طريق مؤسسة ما او الحكومة فسوف تكون القيمة هى التى يعتقد الباحث انها تهم المنظمة أو المؤسسة ، واذا لم يكن البحث ممولا من الخارج فقد يتم اختياره على أساس ما يعتقد الباحث انه « قيمة اجتماعية » ، أى ما يعتقد انه يقدم حولا لموضوعات يفترض اهميتها بالنسبة للمجتمع .

(71) Nagel Structure of Science Op. Cit. p. 485.

(72) Feigl . Op. Cit. p. 528.

فالمجتمع يريد أن يعالج السرطان ، أو يريد ان يعرف طريقة للقضاء على البعوض . أو كيف يقلل الحوادث أو كيف يتفادى تضخم الأسعار ... وهذا يوحي بأن اختيار الموضوع متساو في العلوم الطبيعية والاجتماعية . وأحيانا قد يختار الباحث مشروعا لمجرد حب الاستطلاع العلمى دون اعطاء اولوية لاهمية النتائج اجتماعيا ، وهذا يعتبر استثناء الا أنه موجود فى كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية (٧٣) . ويرى ناجل أن اهتمامات العلماء تحدد ما يختاره للبحث وهذا موجود فى العلوم جميعا . فالأشياء التى يختارها العالم الاجتماعى للدراسة وفى ذهنه تحديد للظروف والنتائج الخاصة بوجودها - على حد تعبير ناجل - قد ترجع الى الواقعة التى ترى أنه « كائن حضارى » . ولكن كوننا بشرا لم يمنعنا من دراسة أشياء ليس لدينا تجاهها أى اهتمام فقد نكون غير مهتمين بالشروط التى تساعد على وجود السوق الحرة أو بالعمليات الخاصة باتزان الحرارة الداخلية للجسم أو بالميكانيزمات التى تنظم ارتفاع المد أو تتابع الفصول أو حركة الكواكب ومع هذا لم يمثل ذلك أى عقبة أمام البحث الخاضع للتحكم الموضوعى فى أى فرع من فروع العلم (٧٤) .

أما بالنسبة للصورة الثانية وهى الخاصة بتدخل قيمة الباحث أثناء دراسته للظاهرة الاجتماعية فقد اختلفت الآراء حولها لقد رأى البعض انها تؤدى الى تحيز الباحث . وتحدث كوهين عن « الصعوبة الذاتية للاحتفاظ باللا تحيز العلمى فى دراسة الشئون الانسانية . فقليل من الناس فى امكانهم أن ينظروا بموضوعية الى موضوعات مثل

(73) Maohlup . Op. Cit. p. 164 - 165 .

(74) Nagel . Op. Cit. p. 486.

الاشتراكية ، أو الحرية فى الحب أو تنظيم الأسرة (٧٥) . ووافق ماشلوب على أن هناك احتمالات تحيز ، إلا أنه يضيف بعدين :

أولا : أن هذا موجود أيضا فى العلوم الطبيعية : ولعلنا لا ننسى الصعوبات التى نشأت خلال مناقشة القيمة الدينية فيما يتصل بنظرية التطور فى البيولوجيا أو المشكلات التى واجهت علماء الفلك فى مناقشتهم للنظرية الخاصة بمركزية الشمس heliocentric theory
أو الجيولوجيين فى مناقشتهم لعمر الأرض .

ثانيا : قد يكون لدى الباحث أحكام أخلاقية ethical مرتبطة بالمشكلة التى يعالجها دون أن يودى هذا الى تحيز فى نتائج البحث فقد يكون للعالم الطبيعى آراء عن القنبلة الذرية أو الاجهاض أو التعقيم ، وقد يعبر عنها مرتبطة بعمله العلمى . وكذلك قد يكون للعالم الاجتماعى آراء عن حرية العمل أو الأسواق الحرة أو تامين الطب وقد يعبر عنها مرتبطة مع نتائج بحثه . وهذا لا يستدعى القول بالتحيز وليس هناك فارق بين العالم الطبيعى والعالم الاجتماعى . وارتباط الأحكام القيمية بنتائج البحث لا يؤثر على موضوعية تلك النتائج (٧٦) .

وقد قام ديوى بمواجهة ثنائية الواقعة والقيمة التى راها هيوم بوضوح ثم قام التجريبيون المنطقيون بتحديدتها وتطويرها واخضاعها لتحاليل متعمقة . وكذلك ناقش كل من كارناب وراشنباخ موضوع العلم والتقييم . ويرى هؤلاء ومعهم هربرت فيجل أنه لابد من التمييز بين دراسة التقديرات والاتجاهات التقييمية كما يقوم بها علماء النفس

(75) M. Cohen. Reason and Nature p. 348 Quoted in Machlup Op. Cit. p. 165.

(76) Machlup . Op. Cit. p. 162 - 164.

والانثروبولوجيون وعلماء الاجتماع والمؤرخون ، ويمثل هذا جزءا هاما من العلوم الاجتماعية ، وبين القيام بتقديرات ، ويمثل هذا جزءا من عملية الحياة نفسها ولا يعتبر نشاطها عمليا على الاطلاق . فتقييم اهداف وفوائد البحث هى موضوع التزام اكثر منها موضوع لمعرفة . فمثلا نحن نفضل استمرار الحياة على الأرض عن توقفها ، والصحة عن المرض ، والعدل عن الظلم ... ولكننا نعتبر هذه التزامات او موضوعات للاتجاهات ولا تخضع للتبرير العلمى(٧٧) .

ويؤكد ناجل أن العلماء الاجتماعيين يدخلون بالفعل قيمهم الخاصة فى تحليل الظواهر الاجتماعية . وحتى العلماء الذين يؤمنون بإمكانية دراسة الشئون الانسانية بحياد اخلاقى عن طريق ابحاث تقوم على العلاقات الهندسية والفيزيقية ، حتى هؤلاء العلماء فى رايه - يعطون احيانا احكاما تقييمية فى أبحاثهم الاجتماعية . ولا شك أن دارسى الشئون الانسانية كثيرا ما يكون لديهم قيم متعارضة مما يؤدى الى اختلافهم حول الوفائع ، وهو اختلاف لا يختفى عن طريق اجراءات البحث المضبوط . فليس من السهل أن نمنع ما نحبه وما نكرهه ، آمالنا ومخاوفنا من التأثير على نتائج أبحاثنا . لقد احتاجت العلوم الطبيعية الى قرون لكى تنمى عادات وأساليب للبحث تمنع دخول عوامل شخصية غير مرتبطة بالموضوع والمشكلة اكثر تعقيدا فى دراسة الشئون الانسانية والمشاكل التى تخلقها فى وجه الوصول الى معرفة يعتمد عليها مازالت موجودة . ويرى ناجل أن الحل هو فى اقامة تفرقة بين الأحكام الواقعية والأحكام القيمية . وهناك خطوات يمكن القيام بها من أجل التعرف على التحيزات القيمة Value bias فاذا حدثت نحاول بقدر الامكان ان نقلل من تأثيرها وهذا اذا لم نستطيع استبعادها نهائيا(٧٨) .

(77) Feigl Op. Cit. p. 527.

(78) Nagel . Op. Cit. p. 488.

ويؤدى ارتباط موضوع دراسة العلوم الاجتماعية بالقيمة الى تميز الظواهر الاجتماعية وتعتقدها . فالظواهر الاجتماعية تعرف باعتبارها نتائج للأفعال الانسانية وكل الأفعال الانسانية هى افعال تقوم على بواعث *Motivated action* أى ان الظواهر الاجتماعية تفسر فقط اذا نسبت الى انواع محددة من الأفعال تكون « مفهومة » فى ضوء القيمة التى تحرك من يقرر ويقوم بالفعل . وهذا الاهتمام بالقيمة - ليس القيمة التى تحرك الباحث وانما القيمة التى يفهم منها انها فعالة فى توجيه الأفعال لتفسير الأحداث المدروسة - يعتبر الفارق الأساسى بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية . فمن اجل تفسير حركة الجزيئات أو التحام الذرات لن يتساءل العالم لماذا تريد الذرات أن تنقسم . أما العالم الاجتماعى فهو لا يقوم بعمله الا اذا فسر التغيرات فى تداول المال بالرجوع الى قرارات المستهلكين والمخترين ، وفسر اندماج الشركات عن طريق الأهداف التى اقنعت المسؤولين القيام بهذه الخطوة ... هذه امثلة من علم الاقتصاد ولكن من السهل تقديم امثلة من علم الاجتماع أو الانثروبولوجيا الحضارية أو العلوم السياسية ... لنبين ان التفسير فى العلوم الاجتماعية يحتاج بانتظام الى تاويل للظواهر فى ضوء الدوافع المثالية للأشخاص المثاليين الذين يقومون بأفعال مثالية *idealised* . لابد ان نأخذ فى اعتبارنا التقديرات البشرية ولا بد من تفسير الظواهر الاجتماعية كنتائج للأفعال الانسانية القائمة على الدوافع (٧٩) .

ولا شك أن العلم المتطور يشجع الاختراع والتبادل والنقد الحر والمسئول للأفكار ويرحب بالتناقض فى طلب المعرفة بين المحققين المستقلين حتى لزم اختلفت اتجاهاتهم الفكرية .

ويحاول العلم الاقلال تدريجيا من تأثير التحيزات عن طريق استبقاء

نتائج الأبحاث التى استطاعت التغلب على الفحص الناقد من جانب جمهور كبير من الدارسين مهما كانت اتجاهاتهم القيمة أو ارتباطاتهم المذهبية . ومن العبث أن ندعى أن هذه العملية المنظمة لاستيعاب المبادئ المتعددة من الممكن أن تطبق بنجاح فى البحث الاجتماعى كما طبقت فى العلوم الطبيعية . ولكن من العبث أيضا أن تنتهى الى القول بأن المعرفة السليمة للشئون الانسانية لا يمكن الوصول اليها مادام البحث الاجتماعى كثيرا ما يكون موجها توجيهها قيما Value oriented (٨٠) . وعلى الرغم من أن هذه المشكلة لم تحسم بعد نهائيا فى العلوم الاجتماعية الا أنها لا تعوق البحث الاجتماعى .

(80) Nagel Op. Cit. p. 430.

الفصل الثاني

« معنى التفسير »

أولا - الآراء المختلفة في التفسير .

ثانيا - شروط التفسير :

(أ) المطلب المنطقي للتفسير .

(ب) المطلب المعرفي للتفسير .

ثالثا - التفسير والعمليات المنهجية الأخرى :

(أ) التفسير والوصف .

(ب) التفسير والتنبؤ .

(ج) التفسير والتعميم .

اولا - الآراء المختلفة فى التفسير :

اختلفت آراء العلماء وفلاسفة العلم حول ما هية التفسير الا انهم اكدوا على اهميته كهدف واضح للعلوم جميعا وذلك من اجل الوصول الى مستوى ارقى من العلمية . وفى الواقع ان التفسير خاصية اساسية للعلم لان العلم يسعى الى التنظيم وتنسيق معرفتنا بما يجرى فى العالم على اساس مبادئ مفسرة تتيح الاجابة على اسئلة تطرح الاستفهام لماذا ؟ .

وليس هناك من شك فى ان تحليل التفسير The analysis of explanation هو محور اهتمام فلسفة العلم لاننا نبدأ بالبحث العلمى من اجل الوصول الى تفسير للعالم بطريقة أفضل من مجرد الاعتماد على الحس الشائع . وهذا صحيح سواء كان الحدث الذى نفسره اقتصاديا او سياسيا او كيميائيا . فكل ما نريده هو ان نعرف لماذا تكون الظواهر على ما هى عليه بدلا من ان تكون شيئا آخر وذلك مهما كان نوع الظاهرة التى نهتم بها . ويترتب على ذلك اثاره للسؤال : ما هو التفسير السليم ؟ .

ان الشكل العام للتفسير يجد اسمه فى الاستجابات المعرفية الاولى للانسان فى مواجهة المثيرات المحيطة وفى استجابات يقوم بها الادراك الحسى Perception . ثم ينتقل الى الاشكال التصورية conceptual forms فى فكر الانسان . هذا التفسير العام وجد تعبيره التصورى اولا فى الاساطير والخرافات myths ثم فى النظريات الكونية والميتافيزيقية . فالميتافيزيقيا كثيرا ما قدمت مشكلات للعلم ،

(1) Alan Ryan. The Philosophy of Social Sciences. Glasgow: The University press, 1970, p. 47.

• الا ان التطور التجريبي للعلم أدى الى ترك هذا النوع من التفسير (٢) .
ولعل من اوضح الأدلة على أن الفكر الأسطوري ظل محتفظا بمكانته
فترة اطول مما ينبغي ، استمرار ذلك النوع من التعليل المسمى بالتحليل
« الخائى teleological » ، للظواهر ، اعنى تفسير ظواهر
الطبيعة من خلال « الغايات » التى تحققها هذه الظواهر للبشر .
فنحن نتصور مثلا ، أن الشمس تطلع كل صباح لكى تدفئ اجسامنا ،
وإن القمر والنجوم تظهر كل مساء لكى تنير طريقنا او تهدى النائيين
منا فى الليل (٣) .

• ويعتبر التفسير بشكل عام تعبيرا عن تأكيد بطريقة معقولة .
فاذا ما تحدث شخص بلغة لا نفهمها فنحن نطالبه أن يفسر تقريره ،
فاذا ما عدل تقريره بطريقة تجعله أكثر اللفة familiar فهذا يعنى أنه
قد فسر . ويصبح التقرير فى شكله الجديد أكثر قبولا لأنه يثير لدينا
استجابة محددة نصفها بأننا نفهم التقرير . وبشكل عام يقبل التفسير اذا
فسرت الأحداث والتغيرات عن طريق النظر اليها باعتبارها امثلة خاصة
لقانون عام . ان القوانين العامة تفسر تجريتنا لأنها تنظمها وذلك عن
طريق ارجاع الأمثلة الخاصة الى المبادئ العامة . وكلما كان المبدأ
أكثر عمومية وعدد الشواهد التى يمكن الاشارة اليها أكبر كان التفسير
أكثر قبولا . اننا نلاحظ أن تفسيرات الحياة العامة كثيرا ما تعتمد على
مبادئ : ان الأفكار تكون أكثر قبولا عندما تكون أكثر اللفة familiar
او عندما تكون أكثر عمومية ، وإى واحد من المبادئ السابقين يصلح
كأساس للتفسير (٤) .

(2) John W. Yolton. *Explanation*. in *British Journal of Philosophy of Science* Vol. 10 1959 - 60 p. 195.

(٣) د . فؤاد زكريا : التفكير العلمى ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(4) Norman Campbell . *Op. Cit.* p. 77 - 79.

وللتفسير معانى متعددة واحيانا يبدو كان هناك انفصلا بين استخدامات التفسير فى العلم واستخداماته فى السياقات العادية الا ان المعنى العلمى للتفسير يتصل مع معنى واحد فقط من المعانى العادية الشائعة وهو « جعل ما هو غامض مفهوما » ويكون هذا عن طريق ربط ما يبدو خارج نطاق الأحداث بالنطاق ذاته . فمثلا ، فى الحياة اليومية اذا قام شخص بفعل غامض فاننا نفسره عن طريق وصف السياق بطريقة تجعل الفعل مفهوما مع اعطاء التصورات العامة عن الدوافع الانسانية . واذا استاء شخص خلال مناقشة موضوع معين فاننا نسأله لماذا ؟ ويفسر الحدث فى السياق المعتاد عندما نشير الى الموضوع الذى اثر وكان له تاثير على كرامة الرجل . ان التفسير هنا يعنى وضع الغامض داخل سير الأحداث المعتادة . ويحدث شئ مشابه بالنسبة للتفسير فى السياق العلمى . الا اننا فى مجال العلم نجد ان ما يوافق « السير المعتاد للأحداث » لا يوجد ببساطة فى التصورات العادية وانما يقوم من خلال التفسير : اننا نقول اننا قد فسرنا حدثا ما عندما نعطي سابقة (اى شرط سابق) لهذا الحدث ، وهى سابقة لها أهمية خاصة اما لأنها من النوع الذى يمكن تغييره بسهولة أو انها من النوع الذى يتغير بكثرة مع بقاء بقية الشروط كما هى . وهناك مطالب اخرى فى السياق العلمى وهو ان تكون السابقة antecedent (الشرط السابق) متميزة فى تصورات تبين العلاقة بين النتائج التى نفسرها ومجموعات أخرى ، لانه يحدث أن تكون السوابق (الشروط السابقة) موضوعة فى سياق يعطى قيمة معينة لمتغيرات هامة التى لو كان لها قيم أخرى لكأنت قد اعطت نتائج أخرى . ويتضح لنا اذن ان التفسير له خاصيتين أساسيتين : انه يعطى السوابق (الشروط السابقة) الخاصة بالواقعة المفسرة (٥)

(٥) اطلقنا اسم واقعة مفسرة أو الواقعة التى تحتاج الى تفسير على التعبير explicandum وهى تتساوى فى المعنى مع التعبير explanandum الذى سيرد فى موقع آخر .

explicandum فى شكل مجموعة عوامل توضح علاقة هذه الشروط بشروط اخرى وهذا يبين بدقة ما يحتاج الى تفسير . والخاصية الثانية انه قادر على اقامة بناء حيث تكون الارتباطات التى نفسرها فى مستوى معين هى نفسها وقائع مفسره explicanda . وتحتاج الى تفسير فى مستوى آخر . والنتيجة ان التقدم فى العلم حقق نتائج كثيرة خاصة بهيكل النظرية التفسيرية . وهذا يرجع اساسا الى ان مجموعة الارتباطات التى تفسر على مستوى عميق تتصل بمجموعة اوسع . وهكذا يتسع مدى النظرية العلمية كلما تقدم البحث . فهى تضع تحت اطار واحد ظواهر مختلفة للغاية عن طريق تحقيق التجانس لها يبدو مختلفا . واذا اخذنا مثلا على ذلك فسوف نجد ان قوانين كبلر تفسر فى مستوى معين بعض مظاهر حركات الكواكب ، الا ان نفس هذه القوانين تخضع للتفسير بواسطة نيوتن . فى شكل قانون الجاذبية وبعض انواع السرعة . وهكذا نجد ان الاطرادات regularities التى اوضحها كبلر تمثل نوعا واحدا فى مجموعة اوسع من الاطرادات التى تنطبق عليها ايضا قوانين نيوتن . ويقال حينئذ ان نيوتن قد قام بتفسير قوانين كبلر لانه بين الارتباط بين مدى واسع من الظواهر . ونجد نفس الموقف فى الاطرادات التى وضعها قانون بويل وقانون شارلز ، فهذه القوانين تفسر على مستوى اعمق بواسطة النظرية الحركية للغازات Kinetic theory of gases . ان التفسير العلمى اذن يربط بين الظواهر على مدى واسع الا ان من الخطا الاعتقاد ان هذا الربط يشبه خضوع تعميم ما تحت تعميم اعم (٦) .

ويقال عن شيء أنه « فسر » أو « فهم » عندما نكون قد حولنا

(6) Charles Taylor. The explanation of purposive behaviour in T. Berger & Cioffi (eds.) Explanation in the Behavioural Sciences. Cambridge : the University Press 1970. p. 49 - 79, p.

الموقف الى عناصر وارتباطات مالوفة الى حد أننا نقلها كشيء مسلم به .
وفهم موقف ما يعنى من الناحية الاجرائية اكتشاف عناصر مالوفة
وارتباطات بينها ، ويحدث كنتيجة للألفة مع القواعد التى تحكم
(تصف وتفسر) اغلب الأحداث فى العالم الطبيعى مما يمكن الايمان
من التلائم مع تلك الأحداث . وفى حالة غيب القواعد التى يمكن
الاعتماد عليها تحدث محاولات التجربة والخطأ فى محاولة التوافق
الاجتماعى . وتعتبر الأحداث الاجتماعية مثل الحروب والثورات أحداثا
طبيعية بنفس المعنى الذى ينسب الى الأحداث الفيزيائية (٧) .

وإذا كان التفسير يعنى الرجوع الى المؤلف فلا بد ان نلاحظ ان
« الألفة » تعبير نسبى فما يعتبر مالوفا بالنسبة لرجل العلم لا يعتبر
مالوفا بالنسبة لرجل الشارع . ان العالم يسعى دائما الى تطوير نظرية
ذات شكل عام ، نظرية تتيح له التنبؤ بالاضافة الى التفسير . ومادام
هدف العلم هو التنبؤ فلن ترضيه الا الشروط الكافية والضرورية معا .
وذلك على خلاف ما يحدث فى الحياة اليومية التى نكتفى فيها بالشروط
الكافية . ولذا ينظر العالم الى التفسيرات الصالحة فى الحياة اليومية
باعتبارها فروضا تحتاج الى فحص نقدى اثناء البحث عن شروط تكون
ضرورية وكافية (٨) .

وهناك آراء أخرى ترفض اعتبار « الألفة » أساس التفسير وترى

(7) G. A. Lundberg : The Postulates of science & Their
implicacations for Sociology. in Natanson (ed.) Philosophy of
Social Science. pp. 33 - 72. p. 39 .

(8) J. Passmore. Explanation in everyday life, in Science
and in history : in « History & Theory » Vol. 11 No 2 1962 pp.
105 - 123, p. 107.

أن التفسير أساسا يهدف الى تعقيل الوقائع أو جعلها مدركة من جانب عقل يسعى الى الفهم . وعندما نفسر واقعة فاننا نصنفها فى سياق وقائع أخرى بطريقة تلقى الضوء عليها . أن التفسير النظرى لواقعة هو بيان لها يتعامل من جهة مع المظاهر المختلفة لماهيتها ومن جهة أخرى يجيب على السؤال لماذا وهو سؤال خاص بالظروف المتعلقة بوجودها مما يجعل هذا الوجود معقولا . أن التفهم أو الفهم comprehensibility or understandibility هو العامل الأساسى للتفسير وليس الألفة familiarity (٩) والتفسيرات هى تقارير تقدم لارضاء رغبتنا فى فهم العالم من حولنا .

أن التفسيرات لا تخضع للحكم الثابت الذى يدعى انها صالحة فقط فى حالة رد غير المؤلف الى المؤلف لأننا عندما نفسر البهتان الناتج عن تأثير الشمس على الأشياء الملونة بالرجوع الى افتراضات فيزيقية وكيميائية عن مكونات الضوء ومكونات الأشياء الملونة فان التفسير لا يستبعد بحجة انه غير صالح حتى اذا كان المؤلف مصاعا فى عبارات تبدو لأغلب الناس غير مالوفة . أن هناك نقطتين لابد أن يسجلا :

١ - فى حالة عدم قيام التفسير برد غير مالوف الى المؤلف فانه يظل تفسيرا مقبولا مادامت المقدمات قائمة على أساس متين من الأدلة التى كفت عن كونها غير مالوفة فى مكان ما من المجتمع العلمى .

٢ - وحتى فى حالة احتواء المقدمات على أفكار غير مالوفة فهذه الأفكار تشير الى تشابه مع أفكار عامة استخدمت من قبل ومتصلة بموضوعات مالوفة لنا . وتساعد المقارنات analogies على تشبيه الجديد بالقديم وعلى تفادى أن تصبح المقدمات المفسرة غير مالوفة (١٠) .

(9) N. Rescher. Scientific Explanation. New York : The Free Press 1970 . p. 1 - 2.

(10) E. Nagel. Structure of Science p. 46.

ويرفض هوسبرز النظر الى التفسير باعتباره يرد الحدث الى احد الامثلة في سلسلة من الاحداث المعروفة لنا من قبل كان يفسر سلوك الشخص بارجاعه الى دوافع ورغبات مثل التي تحدث لنا وبالتالي تكون مالوفة لنا . على عكس بردجمان Bridgman الذي اكد على كون التفسيرات كلها من هذا النوع وقال في هذا الصدد « انى اعتقد ان الفحص سوف يبين لنا ان جوهر التفسير يكمن فى رد الموقف الى عناصر تكون مالوفة لنا ونقبلها كشيء مفروغ منه بحيث ترضى فضولنا » (١١) .

وبينى هوسبرز رفضه لرأى بردجمان على أساس :

اولا : اننا من الممكن ان نطلب التفسير لاشياء مالوفة لنا كما نطلبه لاشياء مجهولة لنا ، فقد نسال لماذا تسقط الاحجار ، كما نسال لماذا ترتفع الطائرات ؟

ثانيا : قد لا يكون التفسير مالوفا على الاطلاق ، بل قد يكون اقل الفة من الظاهرة التي تحتاج الى تفسير . واذا كان التفسير غير مالوف فقد نصيل الى القول انه لابد من ان يكون كذلك مادام صادقا . ولكن كونه مالوفا ليس له اى علاقة بصدقه validity كتفسير . ان كونه مالوفا موضوع ذاتى - فما هو مالوف لشخص ما قد لا يكون مالوفا بالنسبة لى - ولكن التفسير اذا كان صادقا فهو صادق بالنسبة لكلينا . ان ما يبدو سليما فى الراى الذى يقول برد الشيء الى المالوف هو ان القانون الذى يفسر قد يكون مالوفا . ولكن كون الظاهرة تخضع لقانون

(11) P. W. Bridgman. The Logic of Modern Physics, p. 37
Quoted in J. Hospers : What is explanation. in Essays in Conceptual analysis . by F Flew (ed) London : Macmillan and C. Ltd. 1960 pp 94 - 119 , p. 96.

وكون السلوك يشبه القانون lawlike ومن الممكن التنبؤ به ، كل هذا قد يجعل الظاهرة أقل غموضاً وأكثر ألفة . والآن اذا سألنا ما هو التفسير فان الاجابة بسيطة : ان تفسير حدث هو ببساطة وضعه تحت قانون ، وتفسير قانون هو وضعه تحت قانون آخر . ولا يهم اذا كان القانون يعبر عن الاهداف purposes ام لا ، ولا يهم اذا كان مالوفا ام لا ، فان ما يهم هو كون التفسير صادقا . ان القانون يجب ان يكون صادقا ، وهذا يتضح من استخدام كلمة « قانون » التى تشير الى وجود اطراد فى الطبيعة Uniformity of nature واذا كان هذا الاطراد مجرد خيال او يتضمن استثناءات فنحن لا نسميه قانونا (١٢) .

ويتعرض قاموس الفلسفة لمعنى التفسير فيبين انه من الناحية العلمية هو « منهج لبيان أن الظاهرة او مجموعة الظواهر تخضع لقانون بواسطة علاقات سببية او ارتباطات وضعية » او باختصار « هو تحليل منهجى للظاهرة من أجل ذكر سببها . ان عملية التفسير توحى بالأداء الحقيقى او الوجود الملموس للنتيجة فى السابقة (الشروط السابق) بحيث تعتبر الظاهرة مشتقة ومتطورة ومنفصلة عن سوابقها (شروطها السابقة) . ان عملية التفسير ذاتها ثم قيمة هذا التفسير تتضمن موضوعا هاما هو العلاقة بين السبب والقانون . فبينما يرى بركلى انه يمكن التوحيد بينهما يطالب كونت بالتمييز بين السبب والقانون . والنظريات الحديثة تتدرج من مثالية متطرفة الى وضعية منطقية . ويبدو هذان الطرفان غير كافيين : الاول : بادخاله اشياء كثيرة فى العلم ، والثانى : لاهتمامه بجزء محدود من العلم وهو المعرفة بالقوانين العلمية . وقد اقترح راسل اتجاهها متوسطا واضعا فى اعتباره نقد هيوم للسببية جنبا الى جنب مع اسباب ميل لقبولها . ويتلخص هذا الاتجاه فى :

(أ) أن الأحداث sequence المنتظمة توحي بالعلاقات السببية .

(ب) أن العلاقات السببية هي مجموعة واحدة من التعميمات العلمية وهذا يمثل اتجاها واحدا للأحداث فى الزمان .

(ج) أن العلاقات السببية كما هي يجب ألا تستخدم فى المراحل المتقدمة للتعميمات العلمية وذلك مع توخى العلاقات الوظيفية فى كل الحالات .

وعلى الرغم من أهمية هذه التوجهة من النظر فى مجال المنهج إلا أنها لا تكفى لتغطية كل المشكلة (١٣) .

والتفسير بهذا المعنى هو خطوة فى اتجاه التعميم أى بناء النظرية ، أنه العملية التى تربط الواقعة بآثارها المنطقية وينتائجها أو هو عملية ادخال تقرير الواقعة داخل نسق سليم من التقارير التى تمتد أبعد من مجرد الواقعة المعطاة ، أو هو بناء لجسم مترابط منطقيا من التقارير التى تضم تقرير الواقعة المحتاجه الى تفسير جنباً الى جنب مع التقارير الأخرى . وبصورة أكثر عمومية التفسير هو البحث عن تعميمات ترتبط متغيراتها وظيفيا بطريقة تجعل قيمة أى متغير تحسب بواسطة قيمة المتغيرات الأخرى ، وذلك سواء كانت العلاقات السببية ملحوظة أو متداخلة فى عناصر التعميمات (١٤) .

ويعتبر التفسير أحد الدعامات التى يقوم عليها التمييز بين الحسر الشائع common sense وبين المعرفة العملية . فإذا ما حاول الحس

(13) Thomas Greenwood. Explanation . in D. D. Runes (ed.) Dictionary of Philosophy. New York Philosophical Library. 1972 pp. 104 - 105, p. 104 .

(14) Ibid p. 105.

المشائع اعطاء تفسيرات للوقائع فان تلك التفسيرات غالبا ما تكون خالية من اى اختبارات نقدية لدى اتصالها بالوقائع . ان الرغبة فى التفسير ، تلك الرغبة المنظمة والمحكومة بالدليل الوقائى هى المولد للعلم ، ان تنظيم وترتيب المعرفة على اسس من المبادئ التفسيرية هو الهدف المميز للعلوم . وبالتحديد العلوم تهدف الى الكشف ثم الى التعبير فى عبارات عامة عن الظروف التى تحدث فى ظلها الأحداث . ويمثل ذكر هذه الظروف تفسيرات الأحداث المتماثلة . ويمكن تحقيق هذا الهدف عن طريق تمييز او عزل بعض الخصائص فى موضوع الدراسة المدروس ثم تحقيق نماذج متكررة للعلاقات المتبادلة repeatable patterns of dependence يحدث فيها مواجهة بين العناصر وبعضها . ويترتب على ذلك فى حالة البحث الناجح ان نجد القضايا التى كانت تبدو منعزلة تظهر مرتبطة ببعضها البعض بطريقة محددة بفضل وجودها فى نسق من التفسيرات System of explanations وفى بعض الحالات يمكننا الوصول بالبحث الى افاق بعيدة ، فمن الممكن كشف نماذج من العلاقات تنتشر فى عدد كبير من الوقائع حتى انه يمكن بمساعدة عدد ضئيل من المبادئ التفسيرية بيان ان عدا لا نهائيا من القضايا الخاصة بتلك الوقائع تكون كلا متكاملة من المعرفة . وقد يأخذ هذا الشكل احيانا شكل المنهج الاستنباطى كما هو الحال فى الهندسة البرهانية وفى علم الميكانيكا . ولا تملك كل العلوم الموجودة نظاما سليما للتفسير كما هو الحال بالنسبة لعلم الميكانيكا . فعلى الرغم من ان فكرة التنظيم المنطقى السليم فى كثير من العلوم - سواء فى البحث الاجتماعى او فى كثير من العلوم الطبيعية - تستمر فى لعب دورها كمثال اعلى ideal (حتى بالنسبة لفروع البحث التى لا تستطيع دائما تحقيق هذا المثل الأعلى ، مثل البحث التاريخى) فان هدف الوصول الى تفسيرات للوقائع دائما موجود . ان التفسير اى اقامة علاقات تبادلية بين قضايا غير مرتبطة ظاهريا والعرض المنهجى للصلات بين موضوعات مختلفة ظاهريا ، كل هذا يعتبر علامات مميزة للبحث العلمى .

ان المعرفة العلمية تملك طابعا منهجيا systematic غير موجود

فى الحس الشائع ونتيجة لذلك يحدث التمايز بين النوعين من المعرفة .
ان الحس الشائع قد يعبر عن معرفة سليمة الا أن الحدود التى ينبغى
عليه أن يتوقف عندها غير واضحة . لذلك تقدم العلوم تحسينات
وتطورات للتصورات العامة عن طريق عرض للصلات المنهجية للقضايا
التي تهتم بموضوعات المعرفة العامة . ان كون الحس الشائع يهتم
اهتماما ضئيلا بالتفسير المنهجى للوقائع التى يسجلها يقترب عليه قلة
اهتمام بمدى التطبيق الصحيح للمعتقدات الخاصة به (١٥) .

ان اى اى قاموس سوف يوضح لنا ان السؤال « لماذا ؟ » يستخدم
بدون تمييز لتوضيح مجموعة اشياء قد يكون سبب وضع من الأوضاع
او سبب حدث ما او دوافع شخص او الهدف من فعله . ان هذه الأسئلة
تطالب بسر ما حدث فى الماضى او قد تعبر عن حيرة بسبب وضع
من الأوضاع يكون مختلفا عن المعتاد . وفى الواقع اننا احيانا نقبل
فى التمييز بين البحوث العلمية وبين الأسئلة التاريخية وذلك بسبب عدم
التمييز فى استخدام السؤال « لماذا ؟ » ، ولكن من المهم ان ندرك
ان اهتمامنا بأصل الشئ *origin* ليس مجرد اهتمام تاريخى .
فقد تتضمن الرغبة فى الوصول الى تفسير سببى *causal* أو علمى .
اى ان السائل قد يكون مهتما بشيئين : التفاصيل الخاصة بالموضوع
بالإضافة الى بعض التعميمات التى تربط بعض التفاصيل بتفاصيل
أخرى (١٦) .

وفى الواقع اننا نحكم على نجاح اى علم بمدى قدرته على التفسير ،
والنظرية الخاصة بظاهرة ما ليست الا تفسيراً لتلك الظاهرة ، فلا يصح
اطلاق لفظ « نظرية » على اى شئ خارج نطاق التفسير . ويكون التفسير
اجابة على السؤال التالى : « لماذا تحت ظروف معينة تحدث ظاهرة

(15) Nagel, Op. Cit. p. 4 - 5 .

(16) Brown Op. Cit. p. 11 - 12 .

معينة « . . . وبذلك يكون تفسير كشف ما سواء كان تعميمًا أم قضية متصلة هو عبارة عن العملية التي - باعتبارها نتيجة منطقية أو استنباطا - تتبع قضية عامة أو أكثر تحت ظروف معينة (١٧) .

وإذا كان من الصعب التحكم في متغيرات عن البشر بمبب كونه أكثر تعقيدا من التحكم في متغيرات عن الأشياء فهذا لا يعنى ان التفسير مفقود فى العلوم الاجتماعية . ان الحاجة الى قضايا والى تفسير موجود فى العلوم جميعا وذلك على الرغم من ان مضمون القضايا والتفسير فى العلوم الاجتماعية مختلف عنه فى العلوم الأخرى . فلا بد للعلوم الاجتماعية فيما يرى البعض ان تصبح أكثر تشبها بالعلوم الأخرى وذلك عن طريق اخذ مستويات العلوم الطبيعية فى التفسير . وإذا كان علم الاقتصاد أكثر العلوم الاجتماعية تقدما بسبب توصله الى نظريات على المستويين الجزئى والعام *micro & macro levels* . فانه لا يزال يعانى من عمومية النظريات (مثلا قانون العرض والطلب ليس عاما فالطلب على الروائح العطرية لا يخضع لهذا القانون) . اما التاريخ فيعتبر القطب المقابل لأنه يملك رصيدا كبيرا من النتائج التجريبية عموميتها منخفضة . هو يدعى التفسير ولكنه يتظاهر - أو هذا موقف أغلب المؤرخين - بأنه لا يملك نظريات لأن النظريات لابد أن تتضمن قضايا عامة ، وقد استنتج المؤرخون أن التاريخ خال من النظريات عندما وجدوا أنه ليس هناك قضايا عامة فى موضوع دراستهم . ولكنهم أغفلوا موضوعا هاما وهو أن التاريخ يحوى قضايا عامة الا أنه لا يذكرها . وإذا كان التاريخ يضم تفسيرات كثيرة وليس نظريات فان علم الاجتماع والانثروبولوجيا يظهران باعتبارهما يتضمنان نظريات كثيرة وليس تفسيرات . الا ان فحص النظريات عن قرب يبين أنها تفشل كتفسيرات . فقد تتكون

النظريات من تعريفات غير اجرائية(*) وقد تظهر علاقات بين الخصائص المعروفة في النظريات فتحولها الى تقريرات موجهة oriented statements وفي الحالتين تفشل في أن تصبح أنظمة استنباطية .

ان علم الاجتماع والانثروبولوجيا يملكان تعميمات شديدة العمومية تسمى تعميمات حضارية cultural universals مثل ان المجتمعات كلها متدرجة ... ولكن لكي تصبح صالحة في نظرية لابد للقضية ان تكون عامة ولا بد ايضا ان تكون لها قوة تفسيرية وهى لا تملكها (١٨) . وتبقى المشكلة الرئيسية في العلوم الاجتماعية تلك التى وضعها هوبز : كيف يستطيع سلوك الأفراد خلق خصائص الجماعات ؟ أى أن القضية الرئيسية ليست تحليلا وانما تركيب ، ليس اكتشاف المبادئ الأساسية لأنها معروفة ولكن بيان كيف تختلط المبادئ العامة - كيف تبدو في سلوك كثير من الأفراد والجماعات - على مدى الزمان لتعطى اكثر الظواهر الاجتماعية ثباتا وتحافظ عليها وتغيرها (١٩) .

وفي الواقع ان الموقف من التفسير في العلوم الاجتماعية لا يوجد حوله اتفاق بشكل عام لأنه متصل بالموقف نحو العلوم الاجتماعية عموما ومقدار نجاحها أو فشلها في التوصل الى معرفة بالقوانين

(*) التعريف الاجرائى يرتبط بالقياس ويقوم على تحديد المفاهيم المستخدمة بواسطة اجراءات ، أى دلائل تجريبية او عددية تمثل الظواهر الاجتماعية . وتساعد هذه الاجراءات على توضيح المعنى العلمى للمفهوم . وكمثال على ذلك تعريف الذكاء بواسطة اختبارات الذكاء . ومن هنا يتضح لنا أن التعريفات غير الاجرائية تفتقر الى الدقة العلمية .

(18) G. Homans. The nature of Social Science New York, Harcourt Brace & World 1967, p. 28 - 31.

(19) Homans. Ibid. p. 105.

والنظريات على غرار الموجود في العلوم الطبيعية . ويظهر بالتالى الاتجاهين التقليديين : ان السلوك الانسانى لا يمكن تقديمه في ضوء قوانين ولا بد للتفسير ان يأخذ شكلا آخر او ان العلوم الاجتماعية توازى العلوم الطبيعية في مناهجها التفسيرية . ومهما كان شكل الخلاف فان التفسير يعتبر ضرورة سواء اخذ الشكل الموجود في العلوم الطبيعية او رسم لنفسه طريقا آخر .

ومما لا شك فيه انه قد أصبح هناك مجموعة من العلوم الانسانية تقل فيها بالتدرج مساحة الأرض المتروكة للتفسيرات الحرة التى يدور حولها الخلاف بين المدارس العلمية والمذاهب المتعددة ، واخذ يتسع بالتالى مجال الحقائق العلمية التى تتسم بقدر معقول من اليقين ، والتى تتخلص من الخلافات بين وجهات النظر المتباينة ، كما اخذ يظهر بالتدرج حد أدنى ذو طابع علمى لا مجال للخلاف عليه ، وهذا الحد الأدنى قابل للتوسع باطراد بحيث يكون فى النهاية قاعدة عريضة لهذه العلوم (٢٠) .

ثانيا : شروط التفسير :

ان هناك مجموعة من المبادئ العامة تعتبر ضرورية ولازمة للوصول الى تفسير علمى سليم . ولا تزال هذه المبادئ محل خلاف حول مدى صلاحيتها للتطبيق فى مجال العلوم الاجتماعية فالتفسير قد استقر من حيث الشكل فى أغلب العلوم الطبيعية بينما الخلاف لازال دائرا فى مجال مجموعة العلوم الاجتماعية حول شكل التفسير ، وهل من الضرورى ان يحاكى ما هو موجود فى العلوم الطبيعية أم يتخذ نماذج خاصة به . ولما كانت المشكلة لم تحسم سواء بين العلماء

(٢٠) د. فؤاد زكريا : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، الطليعة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ ، ص ١٨٩

الاجتماعيين او بين فلاسفة العلم والمنهجيين فان دورنا هو عرض الآراء المختلفة مما سوف يساعدنا على التعرف على مدى التقدم الذى تحقق فى هذا الاتجاه .

وسوف نخصص هذا الجزء للحديث عن الشروط التى تصلح - فى رأى البعض - لاقامة تفسير سليم سواء فى العلم الطبيعية او فى العلوم الاجتماعية . وقبل الدخول فى تفاصيل هذا العرض يهنا أن نطلع على بعض الآراء التى تقول بصلاحيه المبادئ العامة للتطبيق على مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء .

لقد وضع همبل واوينهايم مجموعة شروط للتفسير السليم تنطبق على العلوم الطبيعية كما تنطبق خارج ذلك المجال ففى رايهما ان كثيرا من السلوك الحيوانى والبشرى الذى يحدث فى المعمل يفسر فى علم النفس بالرجوع الى قوانين او نظريات عامة للتعلم او التشريط **conditioning** واذا كان التكرار لا يحدث بنفس الدقة والتعميم الموجود فى علم الكيمياء او الفيزياء الا ان الطابع العام لتلك التفسيرات يتمشى مع خصائص التفسير العلمى . ويناقش الفيلسوفان الآراء التى ترفض وجود نموذج التفسير السببى فى العلوم الاجتماعية مبينين أنها تقوم على مبررات غير سليمة . فالمبرر الأول على رفض نموذج التفسير السببى يستند الى القول بأن الأحداث التى تتضمن أنشطة البشر جماعات أم منفردين لها طابع فريد وغير متكرر . وهذا يجعلها - الأحداث - لا تخضع للتفسير السببى على أساس أن التفسير يفترض التكرار فى الظاهرة المعينة ، الا أن هذا المبرر الذى يرفض حتى تطبيق المناهج العلمية فى العلوم الاجتماعية وعلم النفس ينطوى على عدم فهم الطابع المنطقى للتفسير السببى . ان كل حدث سواء فى العلم الطبيعية أو فى العلوم الاجتماعية فريد أى أنه فى خصائصه الدقيقة لا يتكرر . ومن الممكن ان تفسر الحوادث الفردية بواسطة القوانين العامة ذات الطابع

السببى . فالقانون السببى يؤكد على أن أى حادث ذى طابع معين يكون مصاحبا لحادث آخر له أيضا خصائص محددة . وكل ما نحتاجه لاختبار وتطبيق هذه القوانين هو تكرار الأحداث ذات المخصائص السابقة أى تكرار الخصائص وليس شواهدا الفردية .

ويستند المبرر الثانى الرافض للنموذج السببى على القول باستحالة إقامة تعميمات علمية أى مبادئ مفسرة للسلوك الانسانى على أساس ان استجابات الفرد فى ظروف ما لا تعتمد على الظروف نفسه فقط وانما على التاريخ السابق للفرد . غير أن هذا القول ليس له معنى فلا يوجد ما يمنع التعميمات فى أن تضع فى اعتبارها ارتباط السلوك بالتاريخ السابق للفرد (٢١) .

واذا قيل كمبرر ثالث أن تفسير ظواهر السلوك السببى يتطلب الرجوع الى بواعث وبالتالي يحتاج الى تحليل غائى teleological وليس سببى فان هذا لا يجافى الحقيقة كلية فكثير من التفسيرات الخاصة بالأفعال الانسانية فيها اشارة الى أهداف وبواعث ولكن هذا لا يجعلها مختلفة عن التفسيرات السببية فى الكيمياء والطبيعة . هناك فارق واحد فقط هو أن المستقبل يبدو كأنه يؤثر فى السلوك القائم على الباعث بطريقة غير موجودة فى العلوم الطبيعية . الا انه من الواضح فى حالة وجود باعث يوجه السلوك الى هدف معين ان هذا لا يعنى أن الحدث المستقبل الذى لم يتحقق هو الذى يحدد السلوك الحالى لأن من المحتمل الا يتحقق الهدف على الاطلاق . ونستطيع أن نعبر عن ذلك بطريقة

(21) C. G. Hempel & p. Oppenheim : The logic of Explanation in H. Feigl & M. Brodeck (eds.) Readings in the Philosophy of Science. New York : Appleton - Century - Corfts Inc. 1953 p. 325 - 326.

أخرى فنقول ان كل من (ا) وهى رغبة الانسان الموجودة قبل الفعل - فى الوصول الى الهدف المعين و (ب) وهى اعتقاده - الموجود أيضا قبل الفعل - يحددان الفعل ذاته . ان الدوافع والمعتقدات المحددة قبل الفعل تصنف باعتبارها شروطا سابقة للتفسير القائم على الباعث ولا يوجد فارق منهجى بين التفسير القائم على الباعث والتفسير السببى فى هذا الصدد . وكون الدوافع غير خاضعة للملاحظة لا يعنى اختلافا أساسيا بين نوعى التفسير لأن كثيرا ما تكون العوامل المحددة فى التفسير الطبيعى غير خاضعة للملاحظة . ان الخطر المحتمل وقوعه فى التفسير القائم على الباعث هو أن المنهج قد يقوم ببناء تصورات لا تملك قدرة تنبؤية فيفسر الفعل عن طريق نسبه الى بواعث يتصور تأثيرها بعد أن وقع الفعل فعلا . وهذا الاجراء يحتاج لكى يكون صالحا الى الخطوات التالية :

١ - أن تقبل الافتراضات القائمة على البواعث الاختبار .

٢ - وأن تتوافر القوانين العامة الملائمة لتعطى قوة تفسيرية للبواعث المفترضة . وأحيانا يعتبر تفسير الأفعال عن طريق ردها الى البواعث نوعا خاصا من التفسير الغائى . الا أننا رأينا انه اذا صيغ التفسير القائم على الباعث بطريقة سليمة فانه سوف يتفق مع شروط التفسير السببى ويكون التعبير « غائى » غير مناسب اذا قصد به الطابع غير السببى للتفسير أو تحديد الحاضر بواسطة المستقبل . ومن الممكن عندئذ أن ننظر الى تعبير « غائى » باعتباره يشير الى تفسيرات سببية بعض شروطها السابقة عبارة عن بواعث الفاعل agent الذى نفسر أفعاله (٢٢) .

ويرى ريكز ان التفسيرات العلمية لها بداية فى اطراد الطبيعة -

(22) Ibid. p. 327 - 328.

ويعنى بها الطبيعة كلها متضمنة الانسان وافعاله . فالعلم يسعى الى تفسير كل من الأحداث الطبيعية الواقعية المحددة . والقوانين المجردة abstract التى تتعامل معها أثناء تفسيرها للأحداث المعينة . ان النموذج الاساسى هو نموذج واحد - فى رايه - ان الأحداث تفسر عن طريق اخضاعها تحت تعميمات او قوانين ، وهذه القوانين تفسر عن طريق اخضاعها تحت قوانين أخرى أكثر اتساعا . فالتفسير العلمى يعتبر علميا عن طريق :

١ - موضوعه : وهو يركز على شيئين : ما يحدث فى الطبيعة (الأحداث الواقعية المحددة) ، ثم الملاحح العامة للأحداث الطبيعية (القوانين التى تحكمها) .

٢ - منهجه : وهو عبارة عن اخضاع الوقائع التى تحتاج الى تفسير تحت قوانين سبق اختبارها وتأكيدها .

ان تفسير واقعة علميا ليس الا تقييم للأسباب التى تبين لماذا وجدت هذه الواقعة بالذات دون غيرها من الوقائع البديلة . وهذا يحتاج الى الذهاب أبعد من مجرد اثبات وجود الواقعة الى بيان أنها ضرورية ولا يمكن تفادى زفوعها ، أو أنها على الأقل محتملة « ومننظر حدوثها » . ولكن من أين تحصل التفسيرات على هذا المظهر الضرورى - أو على الأقل المحتمل - والاجابة هو من مصدر واحد هو استخدام القوانين . لقد رأينا أن التفسير العلمى ينشأ من الخضوع لقوانين أى عن طريق وضع الشيء المحتاج الى تفسير باعتباره حالة خاصة فى اطار من التعميمات تذكر كيف تعمل الأشياء فى نطاق معين من الظواهر (٢٣) .

(١) المطلب المنطقى للتفسير :

لا شك أن التفسير باعتباره عملية منهجية هامة له شروط لا بد

ان تراعى للوصول الى التفسير السليم . ويعتبر المطلب المنطقي أحد الشروط الهامة التي في ضوئها يكون للتفسير الشكل المعين الذي يقدم به في العلوم . ولما كان الشكل الاستنباطي أحد الاشكال البارزة التي يقدم بها التفسير خاصة في العلوم الطبيعية فقد دار حوله النقاش . هل يجب ان يكون لكل تفسير الشكل الاستنباطي ؟ أى هل هو ضرورة *sine que non* لكل التفسيرات ، وهل يفشل التفسير اذا فشلنا في استنباط الحدث الذي نفسره من التفسير ذاته ؟ هناك حلين : الموقف الأول ان نقول انه من الممكن التخلص من النموذج كلية ، من الممكن ان نقول انه كثيرا ما تستنبط الجملة المحتاجة الى تفسير من التفسير ذاته ولكن لا يمثل هذا أساسا للتفسير . وقد نضيف ان الاستنباط طريقة لتبرير تفسير نكون قد قدمناه ، الا ان اعطاء تفسير سليم لا يعتمد على ذلك . والحل الثانى ان نصر على ان التفسير الكامل يتضمن الاستنباط ، الا ان ما نقدمه في العادة اقل من تفسير كامل . ففي الواقع ان الطريقة الوحيدة للتأكد من التفسير ، لا تكون الا باستنباط الظاهرة من مقدمات نعلم مقدما انها صادقة . ويتكرر نفس السؤال بالنسبة للقانون هل الاستنباط ضرورة ، لا شك أنه في حالات دقيقة يحدث هذا : مثال قوانين حركة الاجرام لكبلر ، فمن الممكن استنباطها من قوانين نيوتن للحركة مع قانون الجاذبية ، والآخر يفسر السابق . ولكن هل هذا مطلب ضرورى لكل تفسير للقوانين ؟ البعض قد يقول نعم ، ويعتبر أى قصور في هذا الاتجاه ليس بتفسير ، واخرون يرون أنه غير ضرورى ، وإن الحالة الاستنباطية هي حالة مثالية ولكن التفسير لا يحتاجها : فمثلا يمكن تفسير القانون في ضوء نظرية عامة جدا لا يستنبط القانون مباشرة منها ولكن تعتبر النظرية تفسير لهذا القانون . وقد يرد الشخص المقتنع بالاستنباط ان من غير المعروف اذا كانت هذه النظرية تعتبر تفسيرا الا بعد الاختبار أى بعد ان يحدث الاستنباط (٢٤) .

ويرى كل من همبل واوينهايم أن الاستنباط هو الشكل الأساسى للتفسير العلمى . فالتفسير مكون من جزئين رئيسيين :

الأول : هو عبارة عن تقرير أوجملة تصف الظاهرة التى تحتاج الى تفسير وتسمى واقعة مفسرة أو واقعة محتاجة الى تفسير explanandum

الثانى : هو مجموعة الجمل المقدمة للتعبير عن الظاهرة وتسمى تقرير تفسيرى أو مقدمات مفسرة explanans (*)

ويقع التقرير التفسيرى فى فئتين فرعيتين : واحدة تحوى الجمل التى تذكر شروط سابقة محددة ، والأخرى مجموعة جمل تمثل قوانين عامة . ولابد لكى يكون التفسير سليما أن تتوافر مجموعة شروط منطقية :

١ - أن تكون القضية الأولى أو الواقعة المحتاجة الى تفسير explanandum نتيجة منطقية أى من الممكن أن تستنبط منطقيا من المعلومات المتضمنة فى التقرير التفسيرى explanans . وخلاف هذا الوضع لا يمثل أساسا صالحا للتفسير .

٢ - لابد أن تحتوى المقدمات المفسرة explanans على قوانين عامة وتعتبر ضرورية لاستخلاص الواقعة explanandum

٣ - لابد أن تكون للمقدمات المفسرة explanans محتوى تجريبى أى أن تكون قابلة للاختبار عن طريق التجربة والملاحظة .

(*) أطلقنا اسم « واقعة مفسرة » أو واقعة محتاجة الى تفسير « على التعبير explanandum واسم « تقرير تفسيرى » أو « مقدمات مفسرة » على التعبير explanans

٤ - لا بد ان تكون الجمل المكونة للمقدمات المفسرة explanans

صادقة true . وهذا شرط أو مطلب تجريبي أكثر منه منطقي (٢٥) .

ويضيف يولتون مطلبين للتفسير العلمى السليم وهما :

١ - أن تكون المقدمات المفسرة متسقة مع ذاتها self - consistent

٢ - أن تبسط ما سوف نقبله أى تقلل من عدد القوانين غير المستنبطة

undeducted Laws

ش ١ ، ش ٢ ... ش ٢ شروط أولية أو	مقدمات مفسرة	تقريرات عن شروط سابقة	ن ١ ، ن ٢ ... قن قوانين عامة	استنتاج منطقي	
واقعة مفسرة	أو واقعة محتاجة	وصف للظاهرة التجريبية المحتاجة الى	الى تفسير		
أو واقعة محتاجة					
explicandum					
وأحيانا تسمى explicandum					

ويضيف هوسبر مطلبا جديدا هو ضرورة أن يشمل التفسير ظواهر أخرى غير التى وضع لتفسيرها أى أنه يجب أن يفسر أحداثا أخرى (سواء ماضية أو حاضرة أو مستقبلية) ولكن يجب أن يخضع للملاحظات التجريبية ، أى أن يقبل الاختبار ، وبدون هذا الشرط لا نستطيع اعتباره تفسيراً فى أى علم من العلوم . وفى الواقع أن هذا الشرط متضمن فى

(25) Hempel & Oppenheim, op. cit p. 321.

(29) John W. Yolton Explanation Op. Cit. p. 197.

المطلب الذى يقول أن التفسير يجب أن يحدث فى ضوء قانون أو قوانين .
 فالقانون قضية عامة عن كل الأحداث فى مجموعتها ، وإذا كان صالحا
 بالنسبة لـ (ا) وهو أحد أعضاء الطائفة (حدث حاضر) فهو صالح
 أيضا بالنسبة لـ (ب ، ج ، د) ، (أحداث مستقبلية) ، وطبيعية
 القانون ذاته أنه يفسر أكثر من حدث واحد ، واختبار التفسيرات واضح
 فى مفهوم القانون ، فالقانون تقرير تجريبي لا طراد فى الطبيعة وباعتباره
 عارضا فهو يخضع للرفض عن طريق الملاحظة . وعلى الرغم من ذلك
 فإنه دائما من المفيد أن نجعل ما هو مفهوم ضمنا واضحا لبيان كيف
 أن المطلب الاستنباطى غير كاف ثم لبيان ما هو المطلب الخاص بالتفسير .
 أن الشرط الثانى الضرورى للتفسير (الأول : المطلب الاستنباطى)
 هو قدرة التفسير على تغطية مجموعة كبيرة من الظواهر الأخرى بخلاف
 الظواهر التى استدعت التفسير (٢٧) .

ويرى ناجل أن هناك شروط للنمط الاستنباطى للتفسير تصنف تحت
 ثلاث عناوين : منطقية logical وتحدد المتطلبات الشكلية للمقدمات
 المفسرة ، ومعرفية epistemic وتشتت العلاقات المعرفية التى يؤخذ
 بها فى المقدمات ، وأخيرا واقعية أو مادية substantive وتوصى بنوعية
 المحتوى (تجريبى أو خلافة) الذى يجب أن تحويه المقدمات (٢٨) .

بالنسبة لتفسيرات الأحداث الفردية individual events
 فإن المقدمات لابد أن تحوى على قانون عام واحد أو عددا من التقريرات
 الفريدة التى تؤكد أن أحداث معينة وقعت فى أوقات وأماكن محددة أو أن
 موضوعات معينة لها خصائص محددة . هذه التقريرات الفريدة سوف
 يشار إليها على أنها « تقريرات الشروط الأولية statements of
 initial conditions أو باختصار (الشروط الأولية) . وتعتبر

(27) Hospers. Op. cit. p. 108.

(28) Nagel. Op. cit. p. 29 - 30.

الشروط الأولية بشكل عام هي الظروف الخاصة التى تنطبق عليها القوانين المتضمنة فى المقدمات المفسرة . الا انه ليس من الممكن ان نذكر فى عبارات عامة اى الظروف سوف تختار لتكون الشروط الأولية لان هذا يتوقف على المضمون الخاص للقوانين المستخدمة كما يتوقف على المشكلات الخاصة التى وضعت تلك القوانين لحلها . وكثيرا ما يكون من الصعب استخدام القوانين والنظريات لمجرد ان الشروط الأولية اللازمة لتطبيقها صعبة الوصول اليها وبالتالي غير معروفة . ان التفسير الاستنباطى العلمى الذى يقوم بتفسير حدوث حدث ما أو امتلاك شيء ما لخاصية معينة يجب ان يتفق مع شرطين منطقيين : ان تحوى المقدمات قانونا واحدا على الأقل يكون وجوده فى المقدمات ضروريا من أجل استنباط الواقعة التى نفسرها explicandum كما يجب ان تحوى المقدمات عددا مناسبا من الشروط الأولية initial conditions .

بالنسبة لتفسير القوانين فان هناك مطلب منطقى معقول وهو ان تحتوى الافتراضات المفسرة على الأقل على مقدمتين مستقلتين *formally independent premises* . ومن الواضح اننا نريد فى التفسير السليم ان نؤكد المقدمات على شيء أكثر مما هو مؤكد فى الواقعة المحتاجة الى تفسير اى يجب ان تكون مقدمة واحدة على الأقل قادرة على تفسير قوانين أخرى عند ربطها بافتراضات اضافية مناسبة . ومن جهة أخرى يجب ان يكون واضحا عدم امكان تفسير تلك المقدمة بمساعدة القانون الذى تقوم بتفسيره ، حتى لو اضيف الافتراضات الاضافية الى القانون . وهناك مطلب اضافى فى التفسيرات الصالحة للقوانين وهو ان تكون اى واحدة من المقدمات « أكثر عمومية » من القانون الذى تفسره . فمثلا قانون ارشميدس أكثر عمومية من القانون « الثلج يعوم على سطح الماء » لأن قانون ارشميدس يؤكد على شيء خاص بالسوائل جميعا وليس سائل معين . وكثيرا ما يقال ان الفيزياء علم أعم من البيولوجيا او ان قانون الروافع أكثر عمومية من قانون الوراثة .

والمقصود بذلك هو ان الظاهرة البيولوجية ممكنة التفسير على اسم قوانين الفيزياء وليس العكس (٢٩) .

ان عملية التفسير تمضى فى اتجاه واحد دون غيره فى سياق من القضايا المكونة للنمط الاستنباطى ، فاذا كانت القضية التى تفسر تستنبط من القضايا العامة فى ظروف معينة فان القضايا العامة لا يمكن بدورها ان تستنبط من اخرى فى نفس السياق . قد تتحول القضايا العامة الى وقائع تحتاج الى تفسير explicanda ، ولكن هذا يحدث فى نظام استنباطى آخر يحتوى على مزيد من القضايا العامة . ونلاحظ اننا كلما تقدمنا نحو مزيد من القضايا العامة كلما اسرعنا فى الوصول فى وقت ما من تاريخ العلم الى قضايا لا يمكن تفسيرها . ولكن هذه الحالة لا يمكن ان تستمر الى الأبد (مثلا قانون المغناطيسية عند نيوتن ظل غير مفسر لمدة مائتى عام الا انه من الممكن الآن بيان انه يتبع نظرية النسبية عند اينشتاين) . وهنا يستعمل العلماء كلمة « نظرية » بمعنى واسع لتعنى مجموعة تفسيرات لظواهر مرتبطة (٣٠) .

(ب) المتطلبات المعرفية للتفسير :

بالاضافة الى الشروط المنطقية السابقة هناك متطلبات معرفية epistemic للتفسيرات السليمة . ان ارسطو يرى ان المقدمات فى التفسير الاستنباطى لابد بالاضافة الى اشياء اخرى ان تكون صادقة اى لا بد ان تكون معروفة الصحة ولا بد ان تكون معروفة اكثر من الواقعة المحتاجة الى تفسير (*) .

(29) Ibid. p. 30 - 40.

(30) Homans, op. cit. p. 25 - 26.

(*) ذكرنا هذا الشرط فى الشروط التى وضعها كل من همبل واوبنهايم .

واذا طبقنا مطلب أرسطو (ان المقدمات لا بد ان تكون معروفة
الصدق) فان قلة من تفسيرات العلم الحديث سوف تقبل باعتبارها
صالحة . وذلك لأننا لا نعلم ما اذا كانت المقدمات المفترضة في تفسيرات
العلوم التجريبية هي حقا صادقة أم لا ؟ وهكذا سوف نستبعد كثيرا من
التفسيرات باعتبارها غير صالحة ، لذلك لا داعي لقبول المتطلبات
الأرسطية للحكم على صدق التفسيرات . ولكن هناك مطلب ضرورى
يخفى الحالة المعرفية للمقدمات المفسرة وهو ان تكون المقدمات المفسرة
صالحة لاقامة حقائق تجريبية وتكون أيضا مؤيدة adequately supported
او ممكنة made probable عن طريق اثبات قائم على المعلومات
المتوفرة وليس عن طريق المادة الملاحظة التى يقوم عليها قبولنا للواقعة
المحتاجة الى تفسير (٣١) .

ان الفسیر الحالى actual لا بد ان يتفق ليس فقط مع المطلب
الشكلى فى ان تكون المقدمات المفسرة - اذا اعتبرت فروضا - قادرة على
جعل النتيجة التفسيرية مؤكدة او محتملة ، وانما لا بد ايضا للتفسير
الحالى ان يتفق مع المطلب المادى فى ان تكون تلك المقدمات مؤكدة
للواقعة fact-asserting (باعتبارها صادقة او ذات احتمال
مرتفع) وان تكون المقدمات العامة مؤكدة للقانون law asserting
وتمثل تعميمات قد اتخذت بعد تأكيد كافى لشكل القانون (٣٢) .

واذا كانت كثير من التفسيرات السببية فى العلوم الطبيعية تتسق مع
نموذج التفسير الاستنباطى الا اننا نجد انه كلما تعقد موقف يحتوى على
متغيرات تحتاج الى تفسير مثل تطبيق القوانين البسيطة الدقيقة التى
تنطبق فى العادة على مواقف مبسطة ومثالية ، نفضل اعتبار التفسير
الاحتمالى Probabilistic explanation افضل تفسير ممكن بالنسبة

(31) Nagel . op. cit. p. 42 - 43.

(32) Rescher. op. cit. p. 19.

لموضوعات الدراسة المعقدة سواء كانت طبيعية أم اجتماعية . وذلك حتى لا تثبط عزيمة علماء النفس والاجتماع للاعتقاد في أن التفسير العلمى الوحيد هو التفسير الاستنباطى . الا انه ينبغي التمييز بين التفسير الاحتمالى بمعنى قوانين تعبر عن ميول tendency laws وبين التفسير الاحصائى باعتباره يحتوى تضمنيات محتملة رقميا numerical probability implications ولا بد أن نسجل أن التفسير الاحصائى مثل التفسير السببى يجب أن يحتوى على تعميم بمثابة قانون law like generalizations اما كمقدمة أو كمبدأ تبريرى (٣٣) .

ويعنى التفسير الاحصائى باستخدام قانون واحد أو مبدأ منهجى واحد . وهناك نوعان من التفسيرات الاحصائية مختلفان منطقيا :

الأول : هو عبارة عن خضوع استنباطى لاطراد احصائى محدود تحت اطراد اكثر وضوحا : وسمى هذا النوع التفسير الاحصائى الاستنباطى deductive statistical explanation .

والنوع الآخر : هو عبارة عن خضوع حدث معين تحت قوانين احصائية بطريقة غير استنباطية ويسمى التفسير الاحصائى الاستقرائى inductive statistical explanation ويتضمن التفسير الاحصائى الاستنباطى استنباطا لتقرير على شكل قانون احصائى من مقدمات تحتوى بالضرورة على قانون واحد أو مبدأ منهجى له شكل احصائى على الأقل . ويتم الاستنباط بواسطة النظرية الرياضية للاحتمال الاحصائى mathematical theory of statistical probability .

هذه النظرية تجعل من الممكن حساب بعض الاحتمالات الموجودة في

(33) Arthur Pap. An Introduction to the Philosophy of Science. London : Eyre & Spottis woods. 1963. p. 345 - 546 .

الواقعة المفسرة على أساس احتمالات أخرى مذكورة في المقدمات المفسرة
سبق ان تاكدت تجريبيا او مسلم بها فرضا (٣٤) .

ان كثير من التفسيرات في النظام العلمى ليست بالشكل الاستنباطى
لان المقدمات المفسرة لا تكشف عن الوقائع المحتاجة الى تفسير الا أنه
على الرغم من كون تلك المقترحات غير كافية منطقيا لتضمن صدق
الوقائع الا انها تكفى لتجعلها محتملة .

ان التفسيرات الاحتمالية توجد عندما تحوى المقدمات المفسرة
افتراضا احصائيا عن مجموعة معينة من العناصر بينما الواقعة المحتاجة
الى تفسير هى تقرير متميز singular عن عضو فردى ينتمى الى
تلك المجموعة . ومن المهم الا نخلط بين شيئين الأول هو مدى صحة
مقدمات التفسير والثانى هو التفسير ذو الصورة الاحتمالية فقد تكون
الافتراضات العامة المتضمنة فى المقدمات معروفة الصحة وكل افتراض مع
ذلك « محتمل » وهذا لا يقضى على التمييز بين الشكل الاستنباطى والشكل
الاحتمالى للتفسير لان التمييز يقوم على الاختلافات فى الطريقة التى ترتبط
بها المقدمات بالوقائع المحتاجة الى تفسير ولا يقوم على الاختلافات
المتصورة فى ادراكنا للمقدمات (٣٥) .

وتقوم التفسيرات المحتملة على قوانين احصائية وليست عامة .
ونلاحظ فى حالة استخدام القوانين غير العامة ان هيكل التفسير
schema of explanation لا يتغير عما هو عليه فى حالة استخدام
القوانين العامة . فالتفسير يعتبر مقبولا اذا نجح فى جعل الواقعة المحتاجة

(34) C. G. Hempel. Aspects of scientific Explanation New
York : The Free Press, 1965 . pp. 380 - 381.

(35) Nagel op. cit. pp. 22 - 23.

الى تفسير صادقة الى درجة كبيرة ، وذلك على الرغم من غياب المنطقى للفرض (٣٦) .

وسواء كان التفسير ذا شكل استنباطى او احتمالى فلا بد للتفسير السليم أن يقوم بأربع وظائف :

١ - يجب أن يوضح العلاقة أو انواع العلاقات التى لابد أن توجد بين الواقعة المفسرة والمقدمات المفسرة ، بين الـ explanandum والـ exp'ans .

٢ - يجب أن يقدم (على الأقل بشكل عام) الاعتبار التى تؤثر على دقة وقوة التفسيرات وتصلح فى نفس الوقت للتمييز بين التفسيرات القوية والضعيفة .

٣ - يجب أن يتيح :

(أ) وسائل للتمييز بين الأشكال المختلفة للتفسير .

(ب) فروق بين التفسيرات المختلفة .

(ج) طريقة لتصنيف التفسيرات .

٤ - يجب أن يوضح مكانة التفسير - وخاصة التفسير العلمى - بالنسبة للنسق العلمى للأشياء ، مبينا مجاله وحدوده وعلاقاته بالعمليات المعرفية الأخرى مثل التنبؤ ومحددات دوره الخاص من خلال المشروع الكلى للفهم العلمى (٣٧) .

(36) Rescher op. cit. p. 175.

(37) Rescher . op. cit. p. 4.

وتصنف التفسيرات في ضوء مجموعة مختلفة من المبادئ فهناك :

(ا) تصنيف حسب نوع السؤال الذى تضعه الواقعة المحتاجة الى

تفسير explanandum وعلى هذا الأساس نجد التفسيرات توضح كيف نقوم بالفعل (التفسيرات العملية) ، وتفسيرات توضح شكل الشيء او كيف يعمل (التفسيرات الوضعية) ، وتفسيرات توضح لماذا حدثت واقعة بالذات (التفسيرات النظرية theoretical) .

(ب) تصنيف حسب نوع الموضوعات الموجودة في الواقعة المحتاجة

الى تفسير explanandum واهمها الأحداث المعينة التى قد تصنف بدورها باعتبارها أحداثا طبيعية تحدث في الطبيعة غير الحية او أفعالا انسانية او قد تكون مجموعة عن الموضوعات (مثل هجرة قبيلة) او قد تكون اشكالا من الاطرادات في الطبيعة او في المجالات الانسانية .

(ج) تصنيف حسب العملية التصويرية conceptual machinery

المستخدمة في المقدمات المفسرة explanans . ومن أهم أنواع التفسير هو التفسير السببي للأحداث ، وتنقسم هذه الفئة الى فئات أخرى أصغر مثل التفسيرات الكيميائية او التفسيرات الميكانيكية او التفسيرات النيروفسيولوجية neurophysiological وهناك نوع آخر هو التفسيرات الدافعية motivational للأفعال الانسانية اما في ضوء الأسباب او في ضوء الدوافع .

(د) تصنيف حسب قوة الرابطة التفسيرية بين الواقعة المحتاجة الى

تفسير والمقدمات المفسرة ونميز هنا بين تفسيرات استنباطية حيث تتبع الواقعة المفسرة المقدمات باعتبارها نتيجة منطقية وتفسيرات احتمالية حيث تكون المعلومات الموجودة في المقدمات كافية فقط لكي تجعل الواقعة المفسرة احتمالية اكثر منها مؤكدة فرضا hypothetically certain

ومن العرض السابق نتبين أن التفسيرات لا بد أن يكون لها الخصائص التالية :

- ١ - أنها تضع السؤال « لماذا » وهو سؤال يبغي البحث عن سبب وليس مجرد سؤال وصفى عن ما هو what أو متى when أو أين where أو كيف how .
- ٢ - أن هذه التفسيرات تتعامل مع أحداث في العالم الطبيعي باعتبارها موضوعاتها ، أو مع مجموعات من الأحداث أو مع اطرادات .
- ٣ - وباستثناء الواقعة العامة التى تقول ان التفسير هو عملية اندراج تحت قوانين فإنه لا يوجد أى تحديدات تفرض على العملية التفسيرية .
- ٤ - أن قوة الرابطة التفسيرية التى تربط المقدمات المفسرة بالنتيجة قد تتغير كثيرا فى التفسير العلمى . فعلى الرغم من تفضيل التفسيرات الأقوى - أى الاستنباطية - فإن العلم يعترف أنه فى بعض السياقات لا يستطيع أن يصل الى هذا وبالتالي يكتفى بالتفسيرات الأقل قوة وهى التفسيرات الاحتمالية Probabilistic (٢٨) .

ثالثا : التفسير والعمليات المنهجية الأخرى :

(١) التفسير والوصف :

ان التفسير والوصف عمليتان هامتان فى المنهج ، كما انهما ترنبطان فى أكثر من موقع فى العلم ، ولكن هل يعنى هذا انهما قابلتان للاندماج بحيث تغنى ايهما عن الأخرى ؟ وفى الواقع ان الآراء قد تعددت حول هذا الموضوع وتفرعت بين دمج للوصف والتفسير فى عملية واحدة وبين تمييز واضح وصريح بينهما يعطى للتفسير مكانة تفوق بكثير ما لمكانة الوصف من أهمية .

ويرى اصحاب الاتجاه الاول انه لا يوجد حد فاصل بين التفسير والوصف ، وعلى الرغم من اننا احيانا نطلب الوصف وحيانا التفسير الا ان الذى يحدث هو ان نفس العبارات تستخدم لتحقيق الهدنين . ومن الممكن مثلا ان يعتبر التعبير « ذهبت الى الصيدلى لأشتري دواء » وصفاً ، اى تقريراً لتحركاتى كاجابة عن السؤال « أين ذهبت ؟ » ومن الممكن ان يكون تفسيراً يوضح سبب تاخىرى فى الخارج (٣٩) . فمن الصعب اذن فصل التفسير عن الوصف لأنه من الواضح فى المثال السابق ان العبارة تفسر وصولى فى ساعة متأخرة بسبب شرائى للدواء من الصيدلى وفى نفس الوقت تصف تحركاتى . وبالتالي فان وظيفة التقرير تعتمد على السؤال الذى يوجه الى . فاذا أخذنا مثالا من العلم فسوف نجد ان وصف ما يحدث فى تجربة كيميائية هو نفسه تفسير لما يحدث فيها . ومن هنا يكون من غير الممكن - حسب هذه الواجهة من النظر - ان نصنف المفاهيم باعتبارها وصفية او تفسيرية بدون الرجوع الى سياق استخدامها (٤٠) .

ومن الخطأ الاعتقاد ان العلم يصف فقط ولا يفسر ، فعندما نقوم بالوصف فنحن ايضا نقوم بالتفسير : ان ذكر قوانين الطبيعة هو وصف لعمل الطبيعة وهذا لا يستبعد التفسير . وعندما نحاول الاجابة على السؤال : لماذا يضاء النور عندما نضغط على مفتاح الكهرباء ؟ فاننا نفسر بوصف ما يحدث ، اى اننا نفسر عن طريق الوصف (٤١) .

فاذا ما اتجهنا الى العلوم الاجتماعية فسوف نرى ان اصحاب هذا الرأى يتمسكون بكون الوصف والتفسير عملية واحدة . فاذا ما تناولنا كمثال السؤال : « لماذا يتزايد ادمان المخدرات فى المجتمعات

(39) Theobald op. cit. p. 39.

(40) Ibid. p. 40 .

(41) Hospers. op. cit. p. 118 .

المقدمة « ؟ وكان جزء من الاجابة هو : « ان الرخاء الاقتصادى يتيح الفرص الاجتماعية والخلقية والمادية للفرار من البيئة التكنولوجية ، ويمثل تعاطى المخدرات أحد طرق الفرار » ، فان هذه الاجابة تعتبر تفسيراً ، ولو انه يتصف بالبساطة . وفى نفس الوقت تعتبر هذه الاجابة ردا جزئيا عن السؤال : « ما هو ادمان المخدرات » ؟ وهو سؤال يحتاج الى تقرير وصفى للظاهرة . ومن هنا يسهل ان نلاحظ ان التقرير الوصفى لما يحدث ممكن ان يكون ببساطة تفسيراً لسبب حدوثه . ونستنتج من هذا ان الوضع فى العلوم الاجتماعية لا يختلف عنه فى العلوم الطبيعية : فلا يمكن تصنيف التقرير أو التصورات التى يحتوئها باعتبارها وصفية فقط أو تفسيرية فقط ، ويتوقف الأمر على السؤال المثار (٤٢) .

اما اصحاب الاتجاه الثانى فيرون ان التفسير عملية هامة تتجاوز مجرد الوصف . ذلك ان مجرد الوصف لا يعنى أكثر من ملاحظة وقائع وتجريب حوادث وظاهرات ، وتسجيلها ، ولكن لن يصل الى قانون علمى او نظرية علمية بمجرد تسجيل ما يحدث ، لابد من تسجيلها والربط بينها وفهم الطريقة التى حدثت بها هذه الحادثة او تلك . والربط والفهم انما هو تفسير (٤٣) . ان الوصف مهما كان مسهبا ليس بتفسير ، بل على العكس كلما وصفنا وقائع أكثر كلما تناقص تكوينها لأنماط (٤٤) .

وفى الواقع ان اول خطوة نحو معرفة الطبيعة تتمثل فى وصفها ويوازى هذا بناء الوقائع . وتتضح هذه العملية فى التعبير بواسطة الكلمات والرموز عن كيفية تكوين الوقائع الخاضعة للوصف من عناصر .

(42) Theobald op. cit. p. 43.

(٤٣) د. محمود زيدان : الاستقرار والمنهج العلمى ، بيروت ،

مكتبة الجامعة الأمريكية ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٩

(44) Agassi : Methological Individualism. In British Journal

of Sociology Vol XI No 3 sept. 1960, pp. 244 - 270, p. 258.

ويتحدد كل عنصر من هذه العناصر بواسطة رمز مألوف او متعارف عليه (وهو اسمها) . ولهذا الغرض لابد من بعض الاجراءات للتعرف على كل عنصر باعتباره منتما الى فئة محددة وله رمز مناسب (٤٥) .

والخطوة التالية لمعرفة الطبيعة هي التفسير . ويتميز باحلال مجموعة مؤلفة من الرموز التي استخدمت من قبل في سياق آخر ، محل كل رمز (او تصور) مستخدم في وصف الطبيعة . وتمثل هذه العملية تقدما في المعرفة ، فمثلا اذا وضعنا مكان كلمة « ماء » العبارة « أنه خليط من الهيدروجين والأكسجين بنسبة ١ الى ٨ » ، فان هذه العبارة تنم عن كشف كيميائي . واذا انتقلنا من الحديث عن حرارة الجسم الى الحديث عن قوة الحركة energy of motion في أصغر اجزائها فان هذا يعتبر تفسيراً فيزيائياً . وهكذا يكون من الممكن التنبؤ بسلوك الأشياء ، كما يمكن استنباط السلوك الحالي من السلوك المعروف من قبل وهو الخاص بالأشياء التي تحددها التصورات المستخدمة في التفسير . فاذا استطعنا تفسير الحرارة على أنها شكل من اشكال حركة بعض الجزيئات الصغيرة ، فانا كنتيجة لذلك نستطيع ان ننسب كل ظواهر الحرارة الى خصائص الحركة غير المرئية للجزيئات الصغيرة . وبالتالي نستطيع ان ننبئ بظواهر الحرارة التي كنا نجهل كل شيء عنها . ان التفسير ليس الا اكتشاف التشابه في الأشياء غير المتشابهة the like in unlike أي الهوية في الاختلاف وكلما قام التفسير برد الأنواع المختلفة الى مجال واحد فان هذه الأنواع تدرج كحالات خاصة في هذا المجال . ونستطيع ان نقول ان التفسير هو تضمين للخاص داخل العام : فتفسر الحرارة والصوت اذا نظر اليهما على أنهما حالات خاصة لحركة جزيئات في غاية الصغر .

ويعتبر « الوصف العام » مرحلة تمهيدية وقد يطلق عليه اسم

قانون ولكنه لا يمثل تفسيرات للعمليات التى يصفها . ويمكننا للوصول الى التفسير ان نوجد عددا من القوانين من نوع محدد فى قانون واحد ، ثم نعتبر هذا القانون حالة خاصة من قانون آخر ، وفى هذه الحالة فان نفس الصيغة سوف تصف عددا من العمليات . فجاليليو يفسر لماذا يقطع الجسم الساقط فى الفضاء مسافة معينة فى فترة محددة ، ونيوتن ايضا يفسر قانون جاليليو عندما يبين انه حالة خاصة لقانون الجاذبية ثم يأتى اينشتاين فيفسر قانون الجاذبية برده الى احد المبادئ العامة للقصور الذاتى . وتنتهى من هذا الى القول بأن تفسير الطبيعة يعنى وصفها بواسطة القوانين (٤٦) .

وهكذا نجد ان التفسير يتجاوز الوصف لأنه يستعين بالوصف بالاضافة الى القوانين لكى يصل الى تحقيق هدفه . ومن هنا يمثل التفسير الاضافة والتقدم فى العلم . ولا يختلف الوضع فى العلوم الاجتماعية كثيرا عن ما هو موجود فى العلوم الطبيعية من حيث الوضع بين الوصف والتفسير . وحتى لو تضمن الوصف الاجتماعى تفسيرات فهناك احتمال كبير أن نكون منهمكين فى بحث تاريخى وليس فى عمل علمى ذلك ان هدف العلم دائما هو تفسير ظاهرة . أو حدث ما كنتيجة لتأثير قوانين عامة . ويضع العالم كهدف أبعد ربط وتفسير تلك القوانين بدورها بواسطة النظريات . اما المؤرخ فيهتم بالأحداث . نفسها ، انه يرغب فى معرفة كيف أصبحت ما هى عليه فبينما يبحث العالم عن التشابهات بين الأحداث بقصد وضعها تحت تعميم واحد ، يقوم المؤرخ بتحديد الخصائص التى تحدد وتميز كل حدث عن غيره من الأحداث (٤٧) .

-
- (46) M. Schlick. Description and Explanation. In p. Wiener (ed.) Readings in Philosophy of science op. cit. p. 470.
- (47) Brown op. cit. p. 27.

(ب) التفسير والتنبؤ :

ان اطلاق صفة العلمية على شكل ما من أشكال الدراسة يغنى
ان لتلك الدراسة هدفا أساسيا هو تفسير الظواهر والتنبؤ بها .
فمما لا شك فيه أن التفسير والتنبؤ عمليتان على درجة كبيرة من الأهمية
في البحث العلمي الا أن الخلاف قد دار حول موضوعات عدة خاصة
بهما . وكان مما اثير حول هذا الموضوع : هل هناك بينهما تشابه
أم اختلاف ؟ ، ارتباط أم انفصال ؟ ، بل لقد ذهب البعض الى مناقشة
كون التنبؤ مفتقدا تماما في العلوم الاجتماعية .

ويركز الذين يؤكدون على التشابه بين التفسير والتنبؤ على البناء
المنطقي بالدرجة الأولى : فالبناء الصوري للتنبؤ هو نفسه بناء التفسير ،
ففي الحالتين لدينا :

(١) شروط مسبقة .

(ب) تقارير عامة او قوانين .

(ج) نتائج مستنبطة من ا ، ب .

ونحن نقوم بتفسير حدث ما عن طريق بحث الشروط المسبقة ثم
التسليم بالتقارير العامة وتطبيقها . ونفس الشيء يحدث بالنسبة
للتنبؤ فنحن نتنبأ بوقوع حادث في المستقبل عن طريق استدلاله من
الشروط المسبقة مع التقارير العامة . يتوقف اذن الأمر على السؤال
المثار : هل نريد أن نقوم بتفسير أم تنبؤ ؟ ويرد فيلسوف العلم « كارل
بوبر » على هذا السؤال : « فإذا كان موضوعنا هو ان نجد الشروط
الأولية او بعض القوانين العامة (او كليهما) لكي نستنبط منها تكهنا
او تقديرا لما يحتمل ان يحدث ، فمعنى ذلك أننا بصدد البحث عن
تفسير وتصبح الواقعة المحتاجة الى تفسير explicandum هي هذا

التكهن أو التقدير المعطى the given prognosis . اما اذا اعتبرنا الشروط الأولية والقوانين معطاة من قبل فلا تحتاج الى بحث وانما تستخدم من اجل استنباط التكهن أو التقدير من أجل الوصول الى معلومات جديدة ، فمعنى ذلك اننا بصدد القيام بالتنبؤ (٤٨) . من هذا يتضح لنا اننا في موقف التفسير نحاول ان نجد المقدمات الصادقة التى نستنبط منها النتيجة التى تم التحقق منها من قبل ، اما فى التنبؤ ، فاننا نتحقق من المقدمات قبل التحقق من النتيجة (٤٩) . ان الاختلاف الوحيد بين التفسير والتنبؤ اذن هو البعد الزمنى فبينما ينظر التنبؤ الى الامام لما سوف يحدث ، ينظر التفسير الى الخلف ابتداء مما هو موجود حاليا وانتهاء بما حدث من قبل .

ويؤكد « همبل » ايضا على التشابه بين التفسير والتنبؤ ، فشروط قيام التفسير هى نفسها شروط قيام التنبؤ ، ولا يعتبر التفسير مقبولا الا اذا كانت مقدماته صالحة كأساس للتنبؤ بالظاهرة . ان هذه القدرة على التنبؤ هى التى تعطى للتفسير العلمى اهميته ، ويقدر استطاعتنا تفسير الحوادث التجريبية بقدر ما استطعنا الوصول الى الهدف الأساسى للبحث العلمى . ان تسجيل الظاهرة وحده غير كاف ولا بد من التوصل الى تعميمات نظرية تسمح لنا بالتنبؤ باحداث جديدة (٥٠) .

ويقوم بعض فلاسفة العلم باختلاف بين التفسير والتنبؤ على اساس تباین القوة المنطقية لكل منهما . فبينما على التفسير ان يقوم بتقييم نتائجه عن طريق ابراز السبب القوى الذى دعى الى تفسير ظاهرة

(48) Popper Unity of Method in the Natural and Social Sciences op. cit. p. 35.

(49) Pap. op. cit. p. 344.

(50) Hempel and Oppenheim . The Logic of Explanation op. cit. p. 323.

بعينها دون ظاهرة أخرى بديلة ، فان نتائج التنبؤ لا تحتاج الى تقييم بهذا المعنى ويكفى امكان الاحتفاظ بهذه النتيجة دون أى بديل آخر مشابه . ويؤكد « ريكر » ضرورة ادراك اللاتماثل بين التفسير والتنبؤ من أجل اقامة منهج للتنبؤ - وهو ما أهمل طويلا من جانب فلاسفة العلم في رايه . فلا بد إذن من البحث عن امكانات العملية التنبؤية بصورة مستقلة عن عمليات التفسير (٥١) .

وقد لا يهتم البعض بالتشابه او الاختلاف بين التفسير والتنبؤ بقدر الاهتمام بتميز العمليتين . فمن الخطأ القول بأن التنبؤ هو نتاج ضرورى للتفسير لأنه كما يوجد تفسير مع تنبؤ فانه يوجد تفسير بدون تنبؤ بالاضافة الى وجود أمثلة لتنبؤ بدون تفسير . ذلك ان التنبؤ ما هو الا احد الوسائل لاقامة الفرض ، ولا يبدأ العلماء فى العادة بفروض وانما ينطلقون ابتداء من معلومات تحتاج الى تفسير ثم يلى ذلك صياغة الفروض كمحاولات لتفسير المعلومات .

ولا تقدم التفسيرات السليمة تنبؤات بالضرورة كما لا تعتبر كل التنبؤات تفسيرات سليمة . فقد يوجد التنبؤ دون وجود التفسير مثل قولنا : « سوف تشرف الشمس غدا » . وقد نقوم بتفسير حدث ما دون ان يعنى ذلك قدرتنا على التنبؤ بحدوثه حاليا او حتى مستقبلا مثل العبارة : « اعتقد انى اصببت بالمرض بسبب تناولى لحما فاسدا » . ليس المطلوب اذن من التفسيرات ان تملك قدرة تنبؤية حتى تقبل كتفسيرات ونستطيع تفسير القوانين العلمية (عن طريق النظريات) بينما نعجز عن التنبؤ بها . فنقوم مثلا بتفسير القوانين الفونومولوجية للديناميكا الحرارية بالرجوع الى الميكانيكا الاحصائية ، دون ان يتضمن هذا أى تنبؤ بها لاننا نعرف عنها ما يكفى منذ البداية . واحيانا نكون فى غاية الثقة من تفسيرنا ولكننا نعجز عن التنبؤ اعتمادا عليه ويرجع

ذلك الى اننا نحتاج لكى نتحدث عن زمن حدوث الشيء ، وما سوف يحدث (وهو ما يحتاجه التنبؤ) ، نحتاج الى قياس كمى quantification من نوع معين ، وهو ما لا يعتبر ضروريا فى بناء التفسيرات (٥٢) .

وكثيرا ما يثار موضوع عدم قدرة العلوم الاجتماعية على التنبؤ الدقيق بسبب تدخل القرارات البشرية التى لا يمكن التنبؤ بها بصورة حاسمة . ويرجع عدم القدرة على التنبؤ بأفعال البشر بالدقة العلمية المطلوبة الى صعوبة قيامنا بتصوير مقدم للظروف التى سيوجد فيها هؤلاء البشر . وحتى اذا كنا بصدد مجموعة ظروف حاضرة فاننا لا نملك تأكيدا دقيقا وصادقا لطريقة تفكير او احساس او تصرفات البشر . ولا يرجع ذلك الى ان طريقة الفرد فى التفكير او الاحساس او الفعل لا تعتمد على اسباب ، او اننا نشك فى نقص المعلومات . وانما يرجع الى ان الأفعال والمشاعر ليست مجرد نتيجة للظروف الحاضرة ولكنها نتيجة كل من الظروف الحاضرة وصفات الأفراد أنفسهم . وتتأثر صفات الأفراد بمؤثرات عديدة ومتنوعة ، فكل ما حدث للفرد خلال حياته يملك هذا التأثير . وحتى لو بلغت علومنا عن الطبيعة البشرية درجة الكمال من الناحية النظرية اى حتى اذا استطعنا ان نحدد الصفات البشرية من المعلومات المتوفرة كما نحدد مدار الكواكب ، حتى فى هذه الحالة ، فان المعلومات تفتقد التشابه بالنسبة للحالات المختلفة بالاضافة الى عدم توفرها بشكل كاف . لذا فاننا نصل الى القول باننا لا نستطيع القيام بتنبؤات ايجابية فى هذا المجال (٥١) .

ويحذر ريكز العالم الاجتماعى من الوقوع فى متاعب اذا حاول اثناء

(52) Theobald op. cit pp. 105 - 106.

(53) J.S. Mill on the Logic of the social sciences in Wiener (ed.) op. cit p. 29.

تفسيره لحدث ما أن يقوم بالتنبؤ بأحداث أخرى شبيهة . ذلك أن هذه الأحداث ، التى يحاول التنبؤ بها ، سوف تقع فى نسق غير معزول عن تأثير العوامل التى لا يستطيع تأكيدها مسبقا . فمثلا يستطيع عالم الفلك أن يعد تقويما *almanac* متعلقا بالملاحة أو السفن لأنه يستطيع التنبؤ بحركات الأجسام داخل نظام معزول عن أى تأثير خارجي . لما وزير مالية الحكومة البريطانية فلا يستطيع أن يعد تقويما اقتصاديا مماثلا . ذلك أننا لو فرضنا أن لديه معرفة كافية من أجل تفسير كامل لكافة مستويات الأسعار والانتاج والتصدير ورؤس الأموال ... الخ فإن تنبؤاته للمستويات المستقبلية ستتأثر بعوامل غير متوقعة ، يحتمل أن تؤدي الى تأثيرات متراكمة تحول دون التنبؤ (٥٤) .

يتضح لنا مما سبق أن تدخل العامل البشرى فى العلوم الاجتماعية ليس قاصرا على الاجراءات السابقة على التنبؤ وإنما يؤثر أيضا على الخطوات التالية لها . فقد تؤثر معرفة الناس بالتنبؤ على تصرفاتهم بحيث تجعل التنبؤات تحدث. أو تمتنع عن الحدوث ، وفى الحالتين تنتفى الدقة العلمية .

ولكننا نسال هل تفوق العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية فى هذا الصدد يرجع بالفعل الى العامل البشرى أم أن التفاوت يأتى من خطأ الوقوع فى المقارنة بين عالم العمل الذى تؤخذ منه تنبؤات الأحداث الطبيعية وعالم الواقع الذى تجرى فيه أحداث بشرية . ليس من الجحاف أن نقارن بين نسق معزول يمثل عالم العمل ونسق مفتوح على التأثيرات المتنوعة ويمثل العالم الاجتماعى الواقعى . إلا يجوز إذا قارنا بين العالم الواقعى الذى تجرى فيه الأحداث الطبيعية بالعالم الواقعى للظواهر الاجتماعية أن نجد تساويا فى فرص التوصل الى تنبؤات ؟

(54) Watkins op. cit. p. 723 (footnote) .

ومما لا شك فيه أن التنبؤات الخاصة بواقع لا يمكن معالجته أو تنظيمه قليلا ما تصيب . أن عالم الأرصاد الجوية - وهو باحث في المجال الطبيعي - يقضى وقتا صعبا في الوصول الى تنبؤ بالجو لفنطرة اربعة وعشرين ساعة قادمة - أو لمدة يومين أو ثلاث . ذلك ان المتغيرات كثيرة ومتداخلة ومن الصعب الحصول على معلومات كاملة عن بعضها . أما العلماء الاقتصاديون فوضعهم أفضل قليلا لأنهم يستطيعون التنبؤ بالعمالة والدخل ، والتصدير وعائد الضرائب خلال ستة اشهر قادمة أو عام أو اثنين . وإذا فشلوا فلديهم أعذار قوية ، فقد يرجع هذا الفشل الى تدخل من جانب مؤسسات أو جماعات قوى تعمل على ابطال التنبؤات(٥٥) .

يتميز التفسير اذن عن التنبؤ سواء من ناحية البناء المنطقي(٥٦) أو مجموعة العوامل التى تتدخل فى طريق تحقيق كل منهما ، لذا فان التفسير هو عملية قائمة بذاتها تحتاج الى الدراسة المنفصلة وذلك سواء فى العلوم الطبيعية أو فى العلوم الاجتماعية .

(ج) التفسير والتعميم :

ان السير الطبيعي للعلوم يقوم على التوصل الى تعميمات تجريبية كنتيجة مباشرة للوصف ثم تفسير هذه التعميمات فى ضوء نظرية مقبولة . هذه التعميمات هى عبارة عن قوانين مثل قانون بويل فى مجال العلوم الطبيعية أو قانون العرض والطلب فى مجال العلوم الاجتماعية .

ومن الخطأ الخلط بين التفسير والقوانين أو التعميمات . فالقوانين والتعميمات لا تقوم وحدها بالتفسير ، فهى عبارة عن تلخيص لما تم

(55) Machlup op . Cit . p . 173 .

(٥٦) نستطيع القول ان التنبؤ يتضمن استبصارا لما يأتى ، بينما يشير التفسير الى تراجع بقصد التوصل الى الاسباب .

ملاحظته ، أن النظريات وحدها هي التي تتيح التفسير أى الفهم الكامل
لملاحظاتنا (٥٧) .

ويتضمن التفسير القول بأنه لا يوجد قانون أولى أى لا يوجد
قانون يعتبر مبدأ كل القوانين (ولا يسبقه شيء) ، وانما كل قانون
يعتمد على قوانين سابقة ويؤدى بنا الى قوانين تالية . ومن ثم تصل
الى النظرية العلمية . فالنظرية العلمية هي مجموعة قوانين عامة
يرتبط احدها بالآخر ارتباطا متسقا يعتمد بعضها على بعض وهي جميعا
متعلقة بنوع واحد من الظواهر ، وكل قانون في هذه النظرية العلمية
أو تلك انما يفسر جانبا معينا من تلك الظواهر ، بحيث ان مجموعة
تلك القوانين المؤلفة للنظرية العلمية تفسر تلك الظواهر من كل
جوانبها (٥٨) .

ان قانون بويل نفسه لا يفسر تقريبا ، على الرغم من انه يتيح
التنبؤ بسلوك الغازات . ان التفسير السليم يحتاج الى تفسير لقانون
بويل نفسه . اما النظرية فهي تفسير كاف في العلوم الطبيعية ، فالنظرية
الحركية Kinetic Theory هي عبارة عن تفسير لسلوك الغازات ،
فهي تتيح معرفة ما يحدث : انها تعبر عن وجود اشياء تسمى جزيئات
وتخضع للقوانين العامة للحركة .

ويميز د . زكى نجيب محمود بين التفسير والقانون كالتالى : حين
نصف الطبيعة بقوانينها ، أى حين نصفها بكشفنا عن اوجه الشبه بين
ما يبدو عليه التباين من ظواهرها ، نكون قد خطونا خطوة وبقيت
خطوة . فكما اننا نطوى الحوادث الجزئية المتعددة تحت قانون واحد
اذا رايناها تطرد معا على غرار واحد ، فاننا بعد ذلك نعود فنلتمس

(57) Theobald. op. cit. p. 76.

(٥٨) د . محمود زيدان : مرجع سابق ، ص ١٤٦

أوجه الشبه بين مجموعة القوانين التى انتهينا إليها ، لعلنا نجد بعضها يندمج فى بعضها الآخر ، فإذا عرفنا أن قانوننا ما هو فى الحقيقة متفرع من قانون آخر أعم منه ، أدخلنا الأخص فى دائرة الأعم ، وكان ذلك منا بمثابة تفسيره كما كان ادخالنا للحادثة الجزئية الواحدة تحت قانون يشملها هى وغيرها مما يطرد معها فى الحدوث ، تفسيراً لها . فمثلاً للحرارة قوانينها الخاصة - فى علم الطبيعة - وكذلك للضوء قوانينه الخاصة ، لكننا قد نجد بالبحث أن قوانين الحرارة والصوت معا ، تدخل كلها تحت قوانين حركات الذرة ، فإذا وجدنا شيئاً كهذا ، كان ذلك بمثابة التفسير لهاتين المجموعتين من القوانين «(٥٩)» ان تفسير القوانين العلمية معناه اندماج عدة قوانين من نوع بعينه تحت قانون واحد ، فنحن نفسر القانون العلمى حين ننظر اليه على أنه حالة خاصة من حالات قانون آخر أعم «(٦٠)» .

وكثيراً ما يثار فى مجال العلوم الاجتماعية امكانية التوصل الى القوانين ، فإذا كانت هذه العلوم تدرس الظواهر الفردية والخاصة فمعنى ذلك فيما يرى البعض اننا لن نصل الى قوانين : ان كل فرد فى هذه الحالة هو ظاهرة فريدة بينما اهتمام القانون منحصر فيما هو عام فى شواهد وامثلة عديدة . ويغفل هذا الراى كون القانون يتعامل مع ما هو مشترك ، ولا يعنى التفرد فى ظاهرة ما أو فرد ما أو مجتمع ما انه لا يشترك مع غيره من الظواهر أو الأفراد أو المجتمعات فى خصائص معينة ، ففى الواقع ان تفرد موضوع الدراسة لا يعنى أكثر من أن هذا الموضوع لا يشترك مع الظواهر الأخرى فى كافة الخصائص .

(٥٩) د. زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى ، مرجع سابق ،

ص ٢٩٥

(60) M. Schlick philosophy of Nature p. 15 Quoted in .

(٦٠) د. زكى نجيب محمود : المرجع السابق .

ويهتم القانون بالتكرار ، وليس من المهم ان يكون التكرار خاص بالشيء نفسه ويكفى أن ما يحدث يشبه السابق بشكل يخدم أهداف التعميم ، وينطبق هذا الشرط على قوانين البشر كما ينطبق على القوانين الأخرى (٦١) .

ولا يوجد ما يحتم التزام العلوم الاجتماعية بالقوانين العلمية او السببية ، ومن الممكن اللجوء الى القوانين الاحصائية التي تتحكم في مجموعة كبيرة من الظواهر . وقد رأى بعض العلماء وفلاسفة العلم امثال ماكس فيبر M. Weber ان البحث عن القوانين ليس هدفا في حد ذاته بقدر ما هو وسيلة لتحقيق أهداف أخرى ، ولا يعنى هذا التخلي عن البحث للوصول الى قوانين . ان التوصل الى الاطرادات (التعميم) هو وسيلة وليس غاية : فنحن نريد كشف ما هو عام ومجرد لكى نفهم ما هو فردى وواقعى ، ولاشك ان أى معرفة عامة هى مساهمة فى كل من الفهم والتفسير (٦٢) .

ويتأثر التفسير بالفانون ، فان تفسر شيئا هو ان نتبين انه حالة خاصة لما هو معروف بشكل عام . وهنا تختلف التفسيرات باختلاف القضايا العامة التى تقع ، مع الشروط الخاصة ، ضمن مقدمات الاستدلالات التفسيرية . ولا تكمن الضرورة فى مقدمات التفسير وانما فى العلاقة بين المقدمات والنتيجة المترتبة عليها . وليس من الضروري ان يكون المبدأ العام او القانون المتضمن فى مقدمات التفسير قانونا علميا او سببيا ، وكل ما نحتاجه هو ضرورة منطقية وليست علمية او سببية .

(61) A. Kaplan. The conduct of Inquiry : Methodology for Behavioral Science. New York Chandler Publishing Co. 1964. p. 117 .

(62) Ibid p. 115.

الفصل الثالث

« الاتجاه الوضعى »

- تمهيد : لمحة تاريخية .
- اولا : اتجاه اوجست كونت ونظريته الى التفسير .
- ثانيا : نظرة نقدية الى اتجاه كونت .
- ثالثا : اتجاه اميل دوركايم ونظريته الى التفسير .
- رابعا : نظرة نقدية الى اتجاه دوركايم .
- خامسا : اتجاه الوضعيات المحدثّة والسلوكية ونظريتهما الى التفسير .
- سادسا : نظرة نقدية الى اتجاه الوضعيات المحدثّة والسلوكية .

تمهيد :

ذكرنا من قبل اننا سنستعرض الاتجاهات الحالية في العلوم الاجتماعية ، وقد يتساءل البعض هل الوضعية اتجاه معاصر ؟ وما علاقته بالعلوم الاجتماعية ؟ وما قيمته في هذا المجال ؟ ونبدأ فنقول ان المدرسة الوضعية لم تبدأ في القرن العشرين وإنما تمتلك جذورا وأصولا ممتدة في الماضي السحيق . ولم يمعها هذا من الاستمرار والتطور حتى أصبحت ما هي عليه الآن على أيدي علماء مبرزين أمثال ناجل وهملر وبوبر وغيرهم .

وانه لمن المفيد ان نستعرض بإيجاز شديد تطور هذا الاتجاه فان المعروف والشائع هو ان الوضعية بدأت على يد أوجست كونت في القرن التاسع عشر ، الا اننا لو بحثنا في الماضي نجد أفكارا وضعية ، بعضها لم يرق الى مستوى يجعله يصير اتجاهًا ، وبعضها كان قاب قوسين أو أدنى من ذلك .

ان محاولات القدماء السابقين على سقراط لم يخل بعضها من أفكار وضعية ، ولعل أبرزها تلك التي أوردتها المدرسة الذرية والسوفسطائيون ، بتأكيدهم على الخبرة كطريق الى المعرفة ، وإلى أهمية الرجوع الى الطبيعة . ويقول لقيوس في هذه الشذرة التي تمثل أيضا رأى ديمقريطس « لا شيء يحدث للأشياء ولكن يصدر كل شيء عن سبب وبالضرورة » ومعنى الضرورة هنا يفيد الارتباط الضروري أو الحتمي الطبيعية مما يقترب من فكرة القانون الطبيعي (١) . وقد لخص بروتاجوراس مذهب النسبي في عبارته المشهورة « الانسان هو مقياس كل شيء ، مقياس وجود الموجود منها وما لا يوجد » . وقد فسرت

(١) د . اميره مطر : الفلسفة عند اليونان ، القاهرة ، دار مطابع

الشعب ، ١٩٦٥ ، ص ٨٣

نظريته في المعرفة على ضوء هذه العبارة ، ويظهر منها أنه اعتمد على
الخبرة الحسية كطريقة للمعرفة الانسانية (٢) .

اما ارسطو فكان وضعيا فيما قدمه لنا من دراسات اجتماعية :
يصف ويشرح ويحلل ويقارن ثم يكشف وجود النقص وعلل الفساد فيقرر
ما يراه محققا للمعايير السوية والأغراض النبيلة التي يهدف اليها من وراء
دراساته النظرية (٣) . لقد تأثر ارسطو بكل من الطبيعيين من جهة
وباستاذة افلاطون من جهة أخرى ، الا أن افلاطون مال بشدة الى
الاتجاه العقلي بينما حاول ارسطو اكمال النقص الموجود لدى سابقيه .
ان تحليل ارسطو للدساتير المعروفة وأنظمة الحكم المختلفة تظهر نزعته
الواقعية التحليلية القائمة على استقراء الأحداث التاريخية والاعتماد على
المنهج التجريبي بما يتضمنه من خطوات تقوم على الملاحظة والاستقراء .

وقد اهتم ارسطو بالتفسير في كتب الطبيعة او الفيزيكا ، فقد رأى
أن افلاطون والمثاليين لم يعنوا الا بالعلة الصورية والفلاسفة الطبيعيين
لم يعنوا الا بالعلة المادية ، اما التفسير الصحيح للطبيعة عنده فهو
الذي يضيف أيضا الى هاتين العلتين العلة الفاعلة والغائية (٤) .
ان العلل عند ارسطو هي الأسباب فان مهمة علم الطبيعة في نظرة
هي معرفة أسباب ما يحدث فيها من تغير . الا أننا نلاحظ أن المعاني
التي قصد اليها بكلمة « علة » او « سبب » تختلف عما يفهم من هذه
الكلمة في استعمالنا اليومي وفي استعمالنا العلمي اليوم على السواء .
وليست الغاية المقصودة جزءا من العلة في لغة العلم ولا الماهية التي

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠

(٣) د. مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب

الاول : تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره . القاهرة ، الدار القومية
للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٥٦

(٤) د. اميرة مطر : مرجع سابق ، ص ١٧١

تجعل من الشيء ما هو ، جزءا من العلة ، فلا يجوز - مثلا - اذا اردت ان اعلل كسوف الشمس او فيضان النهر ان أسأل ما الغاية المقصودة من هذه الظاهرة او تلك ، ولا ان أسأل على أى صورة تكون ماهية الظاهرة ، بل السؤال ينصرف الى ما قد حدث قبل حدوث الظاهرة بحيث يكون حدوثه دائما مع حدوثها (٥) .

واننا لنجد في العصور الوسطى بعض الأفكار الوضعية المعبرة عن اهتمام متزايد بدراسة الطبيعة والبحث الكونى والفيزياء وذلك بهدف استبعاد المقولات الأرسطية من وصف الطبيعة . الا أن هذه الأفكار لم ترق الى درجة تمثل وجهة نظر متميزة ومؤثرة . فمثلا وضع ويليام أوكام مبدأ سمي باسم « نصل أوكام » *Ockham's Razor* يقوم على القول بان الخبرة وحدها هى المحك . وقد قام أوكام ببرد مقولات أرسطو الى اثنين المادة والكيف *substance and quality* على أساس أن تلك المقولتين تشيران وحدهما الى حقائق فى عالمنا . وقد كان هدف تفكير أوكام هو اسبعاد التصورات المفولية من الفلسفة على أساس أن المعرفة ليست الا مجموعة المعلومات التى تؤكدتها الخبرة (٦) .

وقد بدأ الموقف الوضعى يتضح مع مولد الميكانيكا الحديثة فى القرن السابع عشر . وعلى الرغم من أن فكر جاليليليس وضعى فى جملته الا أنه اقام تصورا للعلم يمكن ان نسميه وضعيا . فيمكن ان نقول ان جاليليو هو أول من صاغ بشكل مميز ما يمكن أن نسميه مذهب الظواهر *phenomenalism* معارضا به التأويل التقليدى للعالم فى ضوء الأشكال المادية *substantial* . لقد كان الوصف السابق للواقع يقوم

(٥) د . زكى نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ، القاهرة ، مكتبة

الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢

(6) L. Kolakowski . Positivist philosophy . Translated by

Norbert Guterman . Middlessex : Pelican Books 1972 p. 22 .

على رد الأسباب في الظواهر الملاحظة الى طبيعة غير تجريبية (مثلا اعتبار الثقل سببا في سقوط الأجسام) ، ثم بدأ يتضح أن هذه الطريقة في التفكير لا تمثل معرفة ذات قيمة ، وأن الطبائع لا تفسر شيئا . وأصبحت مهمة العلم أن يقدم وصفا كميا للظواهر القابلة للقياس .

وعلى الرغم من أن ديكارت وليبنز لا يمكن أيضا اعتبارهما من الفلاسفة الوضعيين إلا أن كلاهما شارك في الرأي الوضعي الذي يرى أن تفسير العالم في ضوء قوى غير مرئية لا يمكن إخضاعها للتحقق التجريبي ، وهو تفسير لا معنى له . لقد آمن كلاهما بالعلم وبدوره في كشف الألغاز وملاء الثغرات بالمعرفة الحقيقية بدلا من تلك الأشكال المزيفة من الصياغات اللفظية .

أما باركلي فقد استبعد أي عنصر غير ضروري من التفسيرات ، ودعا الى التخلص من النظرة اللاحادية الى العالم التي ترى أن القوى الطبيعية بذاتها هي المسئولة عن كل العالم المرئي . أن باركلي وإن كان أسما في نزعته من حيث أنه لم يقبل المعاني المجردة أو الأسماء الكلية في معناها الميتافيزيقي ، إلا أنه لم يتطرق في هذه النزعة الاسمية كما تطرف الوضعيون المناطقة (٧) إلا أن باركلي حين رد الأشياء الى الأفكار واعتبر المحسوسات مجرد صور عقلية ، قد أخفق في تفسير اتفاق الناس في معرفتها ، لأن أرجاع الأفكار الى الله لا يحل هذا الاشكال (٨) .

ويعتبر دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) أول من نستطيع أن نصفه بأنه وضعى بدون تحفظات كالتي أوردناها بالنسبة للمفكرين السابقين ، حتى أنه قيل عنه « أنه أول فيلسوف وضعى بالمعنى الشامل

(٧) د. يحيى هويدى : باركلي ، القاهرة . دار المعارف (نوابغ

الفكر الغربى) ، ١٩٦٠ ، ص ٢٧

(٨) د. زكى نجيب محمود : مرجع سابق ، ص ٣١

الدقيق « (٩) ، كما قيل عنه أنه جد الوضعية المنطقية بغير منازع (١٠) .
وهذا لاتجاهه التجريبي المنطقي ورفضه للتفكير القبلى من اجل الكشف
عن اسرار الكون . لقد قام هيوم بتقسيم ادراكات العقل الى مجموعتين
متميزتين :

الاولى : تضم الانطباعات الحسية impressions التى تتمثل فى
كل ادراكاتنا عندما نسمع ، او نرى ، او نحس ، او نحب ، او نكره ،
او نتمنى ، او نريد .

الثانية : هى « الأفكار » وهى الادراكات القائمة فى الذاكرة وفى ملكة
الخيال ، وتشتق هذه الأفكار بالكامل من الانطباعات الحسية .

وقد رأى هيوم أن عملية الفهم تتعامل اما مع علاقات بين أفكار
واما مع وقائع ، فاما عن العلاقات بين الأفكار فيمكن دراستها دون
الرجوع الى شئ خارجها اى دون الرجوع الى الملاحظة : ويتمثل هذا
فى علاقات التشابه ، والتقابل ، ودرجة الصفات المنسوبة ونسبها الكمية .
وتعتبر دراسة هذه العلاقات موضوعا للعلوم الرياضية التى تؤدى الى
معرفة مؤكدة تماما الا انها لا تخبرنا بشئ عما تشير اليه . وأما عن
الأحكام الخاصة بالوقائع فان هيوم يراها على عكس القضايا الرياضية
تنبئنا عن اشياء خاصة بالوجود : فهى تؤكد على وجود حدث ما ، الا انها
فى نفس الوقت لا تشير الى اى نوع من الضرورة . وقد أدى هذا النوع
من التحليل لدى هيوم الى نتائج هامة ، فمن القضايا السببية نستطيع
التنبؤ ان حدثا ما سوف يقع وذلك بناء على حدث آخر . ولم تكتسب
هذه المعرفة بين السبب والنتيجة عن طريق مجرد تحليل للعبارات ،

(٩) د. توفيق الطويل : اسس الفلسفة . القاهرة . دار النهضة
العربية ، ١٩٦٧ ، ص ٢٥٦

(١٠) المرجع لمن سبق ، ص ٢٧٩

ولا هى اولية أو قبلية ، وانما نصل اليها عن طريق الخبرة والتجربة .
وقد عاب النقاد على تفسيرات هيوم اثارها لبدا السببية الذى اعتبره
هو نفسه غير قابل للتحقق .

وقبل ان ننتقل للحديث عن ممثلى الوضعية التقليدية والوضعية
بصورتها المعاصرة ، يجدر بنا أن نشير الى جهود فيلسوف وعالم اجتماع
عربى كبير هو ابن خلدون . لقد كان ابن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٦
مؤسسا لعلم الاجتماع بحق قبل فيكو وكونت ودوركايم بمئات السنين .
وقد اطلق ابن خلدون على هذا العلم اسم « علم العمران والاجتماع
البشرى » . وكان ابن خلدون وضعيا فى نظريته الى الوقائع الاجتماعية ،
فقد اعتبر الظواهر الاجتماعية غير منفصلة عن الظواهر الطبيعية من
جهة وعن الظواهر الاجتماعية الأخرى من جهة ثانية . وقد عنى
ابن خلدون بتفسير الظواهر الاجتماعية فلم يردها الى قوى غير طبيعية
او ارادات الأفراد وانما أرجعها الى قوانين مستخدما فى ذلك منطق
التعليل . وفى هذا الصدد يقول : « انا نشاهد هذا العالم بما فيه
من المخلوقات كلها على هيئة من التركيب والاحكام وربط الاسباب
بالمسببات واتصال الأكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لا تنقض
عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته » (١١) .

لقد حرص ابن خلدون على فهم الحوادث وتفسيرها عن طريق
الكشف عن القوانين والاسباب . اما الطريقة العلمية التى يوصى
ابن خلدون باتباعها فهى طريقة مبتكرة تعتمد على دراسة القوانين التى
يخضع لها المجتمع ، وعلى المقارنة بين أنواع المجتمعات ومختلف
الشعوب . وهى الطريقة التى يشير اليها بقوله « وسلكت فى ترتيبه
وتبويبه مسلكا غريبا أو طريقة مبتدعة واسلويا ، وشرحت فيه من احوال

(١١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٠ - ٨٦ مأخوذة عن كتاب

د. مصطفى الخشاب ، مرجع سابق ، ص ١٥٠

العمران ما يمتعك بعلل الكوائن واسبابها ، ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على احوال من قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك (١٢) وهنا نرى انه يريد منها علميا بمعنى الكلمة ، لانه يهدف الى الكشف عن القوانين التي يمكن استخدامها في تفسير الماضي والتنبؤ بالمستقبل (١٣) .

اولا : اتجاه اوجست كونت ونظرته الى التفسير

ان اهتمامنا بكونت (١٤) (١٧٩٨ - ١٨٥٧) وتمييزنا له من بين الوضعيين للحديث عنه بتفصيل لا يرجع الى كونه مؤسسا لعلم الاجتماع ، او رائدا في هذا المجال فحسب وانما لانه من اهم الشخصيات في تاريخ العلوم الاجتماعية ، وفهمنا له يساعدنا ولا شك على فهم ما نملكه حاليا من تراث علمي ومنهجي .

كان كونت اول من قدم بوضوح تام نسقا من التحليل المتعلق بالعلم الجديد وموضوعه . وقد تضمنت أعماله توضيحات لأشياء عديدة ، هي في واقع الامر موضوعات اساسية خاصة بالنظرية والمنهج معا : مثل الحذر في ذكر الفروض التي تخضع للاختبار ، واستخدام المنهج المقارن .

-
- (١٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤ ، مأخوذة من كتاب د. محمود قاسم . المنطق الحديث ومناهج البحث . القاهرة . مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٣ . ص ٢٩٧
- (١٣) د. قاسم : مرجع سابق ، ص ٢٩٧
- (١٤) لكونت مؤلفين رئيسيين :

1 — « Cours de philosophie positive » (professes a partir de 1826 , publiées de (1830 à 42) , 6 Volumes, 60 leçons.

2 — « Systèmes de politique positive instituant la Religion de l'humanité » entrepris vers 1845 publié en 1854, 4 Volumes.

والتصنيف الدقيق للمجتمعات ، والطريقة الجديدة في ادراك العلاقة بين
علم النفس وعلم الاجتماع ، والاتجاه المنظم في دراسة التاريخ .
وفي الواقع ان كثيرا من الموضوعات التي اثارها اصبحت نقطة البداية التي
سار على دربها العلماء ما يقرب من مائة وخمسين عاما . وكمثال
لهذه الموضوعات نذكر تحليل طبيعة المجتمع الأساسية - مؤسسته
الرئيسية ، والتغيرات ، والتطورات التاريخية التي طرأت عليها كالأساس
المادى للمجتمع (تكوين رأس المال وتراكمه وتركيزه وانتقاله) ،
وتقسيم العمل ، واللغة ، والأسرة ، والدين ، والعلاقة بين البروتستانتية
والعلم ، والتطور الجديد في اشكال الملكية المتبدى في تطور الرأسمالية
الصناعية . كل هذا ظهر في مؤلفاته الهامة الأولى . مثل مؤلفه « دروس
في الفلسفة الوضعية » وبصورة اكثر تطورا في مؤلفه « انساق علم السياسة
الوضعى » (١٥) . وفي الواقع ان كونت يمثل حدا فاصلا بين الفلسفة
التأملية وبين الفكر الوضعى او العلمى .

• واذا تأملنا فكر كونت وفلسفته نجد ان هدفه الأول كان التفسير .
ولم يكن المنهج الذى سار عليه الا وسيلة للوصول الى تلك الغاية .
لقد نظر كونت الى العلم على انه واقعة اجتماعية ، ومن هذا المنظور
يمكن وصف مراحلها الماضية وتقدير احتمالات المستقبل ، فالعلم ليس
الا اداة لزيادة تحكم الانسان فى ظروف حياته الطبيعية والاجتماعية .

ولا يمكن فهم « قانون كونت للحالات الثلاث » الا اذا وضعنا نصب
اعيننا انه يصف حقائق اجتماعية ويتعامل مع مضمون المعرفة الانسانية
كاحدى مكونات الحياة الاجتماعية . ان الانسانية قد مرت بمراحل
ثلاث تتميز كل منها بخصائص معينة . وقد افرد كونت درسه الأول

(15) K. Thompson « Auguste Comte : The Foundation of
Sociology » . New York , John Willy and Sons 1975. (Introduction
by R . Fletcher PDX) .

في مجموعة « دروسه عن الفلسفة الوضعية » للحديث عن هذا القانون ،
محددا اطواره السابقة ، مركزا على مرحلته الحالية وهي الوضعية .

وتعتبر المرحلة الأولى ، وهي المرحلة اللاهوتية أو الدينية ، عن
تطور البشرية ابتداء من عبادة الصنم fetichism مارة بالشرك .
(تعدد الالهة) polytheism منتهية بالتوحيد monotheism وتوافق
هذه المرحلة اكثر فترات الحياة بداءة وهي الثيوقراطية أو الحكومة
الدينية Theocracy ويمر كل علم بهذا الطور ، فهو لا زال في مرحلة
البحث عن الطبيعة المختلفة للأشياء لذلك يتساءل « لماذا تحدث
الأشياء ؟ » . وتأتى الاجابة عن طريق بناء كائنات الهية قائمة داخل
التصور الذاتى للانسان . ويبدو الطريق الذى تسلكه الطبيعة كسلسلة
من المعجزات تقوم بها قوى عليا تحكم العالم المرئى .

ولا شك ان العقل في هذا الطور الأول يحاول تفسير الكون ،
الا انه يعجز عن الفكك من قوى المطلق حيث يفسر كل شئ بواسطة
رده الى ارادات متعسفة مملوكة لكائنات تتعالى عن الطبيعة
surnatural (١٦) . فالعقل يفسر الظواهر بنسبتها الى قوى مشخصة
فريدة خارجة عن نطاق الظاهرة كالالهة والأرواح والشياطين وما اليها
كان يفسر الظواهر بنسبتها الى الله عز وجل او الى أرواح النبات (١٧) .
وهذه هي الطريقة العقلية البدائية في تفسير الكون . واذن فليس المراد
بها البحوث النظرية في المسائل الالهية على النحو المعروف في العصر
الحاضر . واذن يكون التفسير اللاهوتى البدائى تفسيرا خرافيسا
أو اسطوريا (١٨) .

(16) Auguste Compte. Cours de Philosophie Positive (1ere
et 2eme lecons) . Introduction et notes par Ch. Lalo . Librairie
Hachette, 1931 PXXVI.

(١٧) د. الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨

(١٨) د. قاسم ، مرجع سابق ، ص ٣١٧

وإذا انتقلنا الى الطور الثانى وهى الحالة الميتافيزيقية او المجردة ،
فسنجد ان العقل أصبح اكثر نضجا عن ذى قبل ، فلم يعد يبحث عن
اسباب تتعالى عن طبيعة الاحداث . الا ان العقل فى هذه المرحلة لا زال
يجد فى طلب « طبيعة الأشياء » ولا زال يريد التوصل الى « سبب »
الظواهر . الا ان نظرة العقل هنا مخالفة لما كانت عليه فى المرحلة
الأولى ، فهو وان كان يخلق آلهة ولكنها غير دينية ، هى آلهة طبيعية :
حيث يكون المسئول عن الوقائع الملاحظة « قوى مجردة » او « صفات »
او « كليات لفظية » يعتقد انها حقيقية .

ان العقل فى المرحلة الثانية يطلب ايضا التفسير . وهو يفسر الظواهر
بنسبتها الى معان مجردة او قوى ميتافيزيقية وعلل أولى لا يقوى على
اثباتها . كان يفسر ظاهرة النمو فى النبات بنسبتها الى قوة النبات (١٩) .

وقد ادت الحالة الميتافيزيقية وظيفه كبرى وهى النقد والهدم للفلسفة
البدائية ، وذلك عندما استعاضت عن الارادات الالهية بالقوى الطبيعية .

وتتميز المرحلة الثالثة والأخيرة ، وهى الحالة الوضعية او العلمية ،
فى كونها لا تحاول أن تجيب على أسئلة شبيهة بالأسئلة المثارة فى
المرحلتين السابقتين ، بل وتمتبعدها وتكشف تماهتها وطابعها اللفظى .
ان العقل الوضعى يكف عن البحث وراء الطبيعة المختفية للأشياء فهو
يرفض التعرف على المطلق وعلى منشا وهدف العلم .

ان العقل الوضعى فى الطور الثالث يسأل كيف تحدث الظواهر ،
وما الطريق الذى تسير فيه ، انه يجمع الوقائع ويبدا فى دراسة قوانين
الظواهر أى العلاقات بين الظواهر المتتابعة والعلاقات بين الظواهر
المتشابهة . ولا يسمح العقل فى هذه الحالة للتفكير الاستنباطى أن يمضى

بعيدا وانما يخضعه للتحكم الدائم للوقائع « الموضوعية » (٢٠) ، انه
يكف عن استخدام تعبيرات ليس لها مقابل في الواقع .

واذا كان العقل في المرحلتين السابقتين قد حاول التفسير سواء
بالرجوع الى قوى متعالية عن الطبيعة او الى قوى مجردة ، فهو
في المرحلة الثالثة يطمح أيضا الى التفسير . ويقول كونت في هذا الصدد
« ان تفسير الوقائع في شكلها الحقيقي ليس اكثر من الربط القائم بين
مختلف الظواهر المحددة *phénomènes particuliers* وبين بعض
الوقائع العامة *faits généraux* التى يحاول التقدم
العلمى جاهدا ان ينقص من عددها » (٢١) ان العقل قد توصل أخيرا
الى المنهج الذى يفسر جميع الظواهر طبيعية كانت ام اجتماعية
تفسيرا علميا .

ان كونت يرد التفسير هنا الى وقائع والى علاقات ضرورية بين
الوقائع ، والى قوانين . فلا رجعة اذن الى الخيال او التجريد ، ولا يوجد
بعد اليوم الا وقائع خاصة وعامة . ان التطور الداخلى لكل طور أدى
الى التوصل الى مبدأ واحد للتفسير ، بعد ان كان يوجد مبادئ
متعددة : فقد اصبح هناك اله واحد ، وطبيعة واحدة ، وقانون واحد
للعالم بأسره . ان الفكر الوضعى يسعى الى اليقين ، وفى سعيه هذا
يهدم اليقين الزائف . انه يفترض تفسيرا حتميا للظواهر - ولا يعنى هذا
وجود اسباب « ميتافيزيقية » - ولكن بمعنى انه يبحث عن ادخال كافة
الظواهر الملاحظة فى قوانين عامة . وتشمل هذه القوانين او الاطرادات
الملاحظة فى الظواهر مجموعة الأحداث . كان العقل فى هذه المرحلة
يقصر ظاهرة النمو بنسبتها الى العوامل الطبيعية والكيميائية والقوانين
المؤلفة لهذه الظاهرة (٢١) .

(20) Kolakowski op. cit. p. 70.

(٢١) د . الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩

ومادام الهدف الاول للعقل هو الكشف عن القوانين العامة الثابتة التى تحكم الظواهر فلا بد له من اصطناع منهج يتلائم مع هذا الهدف ، منهج يقوم على استخدام الملاحظة والتجربة والمقارنة .

بعد ان فرغ كونت من الحديث عن « قانون » الحالات الثلاث يمضى الى تعريف الفلسفة الوضعية مبرزاً دور القانون فيها . فقد حلت فكرة القانون محل فكرة العلل الاولى او العلل الغائية ، واصبح هدف العقل الوضعى فى ضوء ماضيه وحاضره هو تكوين فيزياء اجتماعية (أى علم الاجتماع) من جهة ، تصنيف مجموعة العلوم من جهة اخرى . ويقول كونت « ان الطابع الاساسى للفلسفة الوضعية هو النظر الى الظواهر كافة باعتبارها خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة ، ويعتبر الكشف عنها وردّها الى اقل عدد ممكن ، هدفاً لكل جهودنا » (٢٢) .

لقد اراد كونت ان يضع منهجاً يتفق مع موضوع دراسته ، أى متلائماً مع علم الاجتماع باعتباره يشغل مكانه خاصة فى سلسلة العلوم ، وهذه المكانة هى التى تحدد لعلم الاجتماع منهجه . لقد صنف كونت العلوم فى الدرس الثانى من (دروس الفلسفة الوضعية) الا ان هذا التصنيف ينصب فقط على العلم النظرية ، اما العلوم التطبيقية فهى توابع لها . ان العلوم العامة او المجردة هى الاساسية بينما العلوم الواقعية لا تملك استقلالاً ذاتياً ، ولا يمكن رد العلوم الاساسية الى أى علم آخر او ردّها الى بعضها البعض . ويرى كونت ان هذه العلوم تمر بمراحل تطوّر الا ان معدل تطورها يختلف من علم الى آخر ، وانتقال علم ما من مرحلة الى مرحلة اخرى اعلى من الاولى لا يحدث صدفة وانما بفضل بحوثها وبفضل علاقاتها بالاحتياجات الاجتماعية . وبالتالي تكون العلوم نظاماً او تدرجاً طبيعياً حسب اربعة معايير هى :

١ - العمومية او البساطة فى الموضوع .

٢ - الاعتماد المنطقي أو التسلسل العقلي .

٣ - السهولة في التدريس .

٤ - التطور التاريخي (٢٣) .

فيكون النظام على الشكل التالي : أكثر العلوم بساطة في الموضوع وأكثرها عمومية في الصدق هي العلوم الرياضية التي تتعامل مع جميع أشكال العلاقات الخاضعة للقياس بين الظواهر ، بعدها يأتى علم الفلك ثم الفيزياء ثم الكيمياء فالبيولوجيا وأخيرا علم الاجتماع . وقد أقام كونت الرياضة على رأس العلوم لأنها علم متخصص ومنهج عام في الوقت نفسه كما أنها لا تملك موضوعات واقعية في الطبيعة ولكنها أداة نستطيع تطبيقها بدرجات متفاوتة في بقية العلوم .

ولما كان علم الاجتماع يقع بعد البيولوجيا في التصنيف فإنه ولا شك قد تأثر بها ، وبالتالي فإنه سوف ينبنى على كل ما أقيم حول طبيعة الإنسان من حيث التشرح والفسولوجيا (التي كانت تضم ما نسميه اليوم بعلم النفس) . ويقوم علم الاجتماع بتحديد المسار العام ومراحل تطور الحضارة . ان منهج كونت العام القائم على المقارنات التاريخية كنقطة بداية يهدف الى تحديد الاتجاه العام للتطور البشرى في علاقته بالتصورات الرئيسية للإنسان تجاه النظام الطبيعي والاجتماعي (٣٤) .

ويعتبر كونت التاريخ منهجا رابعا للبحث في علم الاجتماع الى جانب الملاحظة والتجربة والمقارنة . ان خطط كونت من أجل الاصلاح الاجتماعي ترتبط بصورة ما بتاريخ العالم حيث توجد فكرة سائدة اخذها كونت عن سان سيمون . هذه الصورة تقسم التاريخ الانساني

(23) *Compte. op. cit. p. XIX .*

(24) *Thompson. op. Cit. p. 17.*

الى فترات متتالية بعضها « عضوى Organic » وبعضها نقدى Critical . وخلال الفترات العضوية ، حيث تعتبر الاختلافات الاجتماعية تقسيمات طبيعية للوظائف الاجتماعية الضرورية ، تحاول المجتمعات المحافظة على النظام الموروث . فى هذه المرحلة الزمنية يعامل المجتمع باعتباره كيانا متعاليا عن الفرد *Supra individual entity* له قيم خاصة به تفوق قيم الفرد الذى هو جزء منه . وفى الفترات النقدية التى تحاول تحطيم النظام الموجود ، يرى المجتمع نفسه على عكس الصورة السابقة كمجموع لأفراد منفصلين ، وهكذا يفقد الوجود المستقل وتصبح قيمة هى قيم الأفراد باعتبارهم افرادا . ولا يحدث هذا التعاقب بين المرحلتين العضوية والنقدية بشكل متتال وانما يضى فى خط صاعد يمكن أن ننظر اليه على انه تقدم . لقد آمن كونت بالخصائص الضرورية والطبيعية للحياة الاجتماعية ، وبأن المجتمع ليس اداة لبعض الصراعات بين الأفراد ولكنه « كل عضوى » . ونحن جزء منه لأن لدينا ميل الى الحياة معا وهذا يعتبر مستقلا عن المصالح الفردية . وبشكل أكثر عمومية ، لا يوجد تطور اجتماعى قادر على تغير الخصائص البنائية الدائمة للحياة الجمعية . ان قوانين تطور المعرفة الانسانية هى قوانين تاريخية بالدرجة الاولى (٢٥) .

وبين علم الاجتماع الوضعى ان الفرد ليس الا بناء عقليا بينما المجتمع يمثل الحقيقة الأصلية . وهكذا تكون الحياة الاجتماعية « طبيعية » مثل وظائف الجنس البشرى ، والناس يعيشون فى المجتمع لأن هذه هى طبيعة الأجناس وليس لأن الناس يعتقدون انهم بحياتهم معا سوف يتمتعون بمزايا لن يجدوها اذا عاشوا متفردين .

ولما كان منهج كل العلوم واحدا ، ولما كان منهج علم الاجتماع متأثرا بالوضع المترتب على كونه جاء متأخرا فى سلسلة العلوم -

وبالتالى سوف يعتمد على التطورات المستمرة فى العلوم الأخرى -
لما كان الوضع على هذا الشكل فان مناهج علم الاجتماع تحتاج الى
التفرع قسمين :

الأول : خاص بالعلم وحده ويسمى « طرقا مباشرة » .

والثانى : ينشأ عن الاتصال بين علم الاجتماع والعلم الأخرى
ويسمى « طرقا غير مباشرة » .

فتعتبر الملاحظة والتجربة والمقارنة طرقا مباشرة ، ويقول كونت
« ان اى ملاحظة لأى شكل من الظواهر مستحيلة ما لم توجه منذ البداية
وتفكر فى النهاية فى ضوء نظرية ما » (٢٦) . لقد اقترح كونت قواعد
المنهج الاجتماعى فى الدرس الثامن والأربعين من دروس الفلسفة
الوضعية . ولذلك عندما أكد على ضرورة الاهتمام بدراسة الوقائع
الاجتماعية مثلما ندرس الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية
والفسيولوجية .

ولم يفت كونت ان يدرس الناحية الدينية فى المجتمع ، لأن الأفراد
فى ميسس الحاجة الى مجموعة منظمة من العفائد ، يتفق عليها الأفراد
جميعا . وهذا لا يتأتى الا اذا الغينا الديانات القائمة وصهرناها فى دين
جديد . وهذا ما حدا به ان يضع لنا بجانب النظم السابقة نظاما دينيا
جديدا هو « الدين الوضعى » . ويدور هذا الدين حول عبارة الانسانية
كفكرة . اى ان فكرة الانسانية تحل فى نظره محل فكرة « الله »
فى الديانات الراقية المعروفة . ووظيفة هذه الديانات كما يراها كونت
هى تحقيق وحدة دينية فى العالم بأسره ، لأن جميع الأفراد
سيتجهون بقلوبهم وعقولهم نحو فكرة واحدة ومركز واحد فتبطل الشرور
والاثام وتتفنى المنازعات والحروب وتعيش الاجناس البشرية الثلاثة ،

(26) Quoted in Thompson op. cit. p. 21.

الجنس الأبيض والأصفر والأسود التي تمثل في الانسانية الذكاء والعمل والعاطفة في عصر ذهبي (٢٧) .

ان الوضعية في تحطيمها للأديان القديمة القائمة على المعتقدات اللاهوتية او الدينية لم تحطم الدين نفسه ، لأنه عنصر دائم في البناء الاجتماعي . فهو الرابطة الضرورية التي تجعل هذا البناء متماسكا ، وتحل الانسانية محل تلك الآلهة اللاهوتية ، فهي تعلو على الفرد لأنها تتكون من كل الافراد ، الأحياء منهم والأموات والذين لم يولدوا بعد .

وتأتى فكرة الانسانية في نهاية سلسلة ييдаها كونت بدراسة النظام في حالة استقراره او الاستاتيكا الاجتماعية ، حيث المجتمع ليس مجرد مجموعة افراد قادرين على الحياة بمفردهم وانما هو واقع مستقل وتلقائي *réalité spontanée* ، يتميز أساسا بأنه كلى ، والمعطى الاساسى والبسيط فيه ليس هو الانسان ولكنه الأسرة . ويعتبر كونت هنا أن البشرية بأكملها تتمثل في مجتمع واحد بحيث تلعب كل جماعة دورا تاريخيا خاصا وضروريا الا انه تابع ولا يملك معنى كاملا خاصا به الا في داخل الكل . وتأتى الديناميكا الاجتماعية كحلقة اساسية في علم الاجتماع لأن المنهج الخاص به يقوم على الملاحظة التاريخية . ويمكن حينئذ دراسة أى كائن حى في ظواهره المتعددة في ضوء بعدين اساسيين : في ضوء البعد الاستاتيكي وفي ضوء البعد الديناميكي ، أى كمتحفز للقادم على الفعل وكفاعل بحق (٢٨) . ويعرض كونت في الديناميكا الاجتماعية فكرته عن التقدم ورده على الاعتراضات التي وجهت الى هذه الفكرة . وهو لديه أكثر أهمية من الفرع السابق ، لأنه اهتدى اليه

(٢٧) أوجست كونت : الانجيل الوضعى ، د. الخشاب ، مرجع

سابق ، ص ٢٤٧

(28) *Compte op. cit.* p. 35.

عندما كشف عن قانون الحالات الثلاث ، ولأنه يفسر طبيعة الظاهرة الاجتماعية كما كان يفهمها ، وهى انتقال التقاليد من جيل الى جيل (٢٩) .

اما بالنسبة لعلم النفس ، فلم يتحدث عنه كونت كعلم مستقل الاساسا ، وفى اغلب الاحيان كان يضمن أجزاء منه فى كل من الفسيولوجيا والبيولوجيا . فكان يمكن عن طريقه تفسير بعض مظاهر السلوك الانسانى .
اى أن علم النفس يحتاج دائما الى استكمال من جانب علم اجتماع التفاعل وبواسطة التطور التاريخى ، وذلك لكى يتصدى لتفسير الظواهر الاجتماعية . ويقول كونت فى هذا الصدد : « فى وسعنا ان ندرك فى كافة الظواهر الاجتماعية ، القوانين الفسيولوجية للفرد ، ثم يأتى شئ آخر فيعدل من تأثير تلك القوانين وهو تأثير الأفراد على بعضهم البعض ، ويزيد الأمر تعقيدا بالنسبة للجنس البشرى تأثير الأجيال السابقة على الأجيال اللاحقة » (٣٠) .

ثانيا : نظرية نقدية الى اتجاه كونت

اختلفت الآراء من فلسفة كونت ومنهجه ، ومما لا شك فيه أن ما نادى به كونت قد استمر وازدهر وتبلور فى صورة ناضجة ، مع من جاء بعده من المفكرين الذين تتبعوا خطاه وساروا فى نفس الاتجاه . الا أن هذا لا يمنع من ان يكون فى منهجه بعض القصور ، ولا يعنى هذا أن كل نقد وجه اليه سليما ، فاحيانا نجد فى آراء كونت نفسه ردا على كثير من الانتقادات التى أثارت .

وقد واجه « قانون الحالات الثلاث » انتقادات كثيرة : ويقول

(٢٩) د . قاسم ، مرجع سابق ، ص ٣٢٤

(30) The Positive Philosophy of Auguste Comte , trans.
by H. Martineao Vol. 1. Quoted in Thompson op. cit. p. 29.

د. الخشاب في هذا الصدد : « ان قانون الحالات الثلاث الذي يعبر عن التطور الفكري هو نفسه القانون العام الذي يفسر جميع مظاهر التطور الاجتماعى . غير انه من الواضح ان كونت يحمل قانونه فوق ما ينبغى ويخرج به عن نطاق التطور العقلى الى تطور الانسانية بالاجمال . وهو فوق ذلك بين الفساد من وجوه اخرى » (٣١) .

الا انه في واقع الامر ان كونت قد وصف القوانين بأنها مؤقتة ونسبية . وحتى تقسيم الدراسة في علم الاجتماع الى استاتيكا اجتماعية وديناميكا اجتماعية هو تقسيم مؤقت . ويقول كونت : « ان هذا التقسيم ضرورى لأغراض البحث ، الا انه يجب الا يتجاوز هذا الاستخدام . فكما رأينا في البيولوجيا ، لقد أصبح التمييز ضعيفا مع تقدم العلم ، وعندما يتكون نهائيا علم الفيزياء الاجتماعية فاننا سوف نرى ان هذا التقسيم سوف يستمر فقط لأغراض تحليلية ولكن ليس باعتباره وسيلة لتقسيم العلم » (٣٢) .

وفي الحقيقة ان المبادئ المنهجية العامة التى وضعها كونت لتفسير الظواهر الاجتماعية لازالت مستمرة الى الآن وكانها معاصرة . لقد رأى كونت أن الوقائع السياسية والاجتماعية ليست موضوعا لأحكام القيمة وانما يجب تفسيرها عن طريق اكتشاف العلاقات العامة التى تربط الظاهرة فى نسق معين ، وايضا عن طريق ارتباط تلك الظواهر ، موضع الدراسة ، بظواهر اخرى موجودة معها او سابقة عليها .

وقد اصطنع كونت طرائق بحث متنوعة لأنه رأى ان موضوعات الدراسة فى علم الاجتماع معقدة . لذا قال بالملاحظة والتجربة والمقارنة والمنهج التاريخى . ويعتبر منهج التاريخ الذى نادى به ايجابيا ، فهو

(٣١) د. الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩

(32) *Compte Positive Philosophy* Vol . 2 p . 218 . Quoted in Thompson Op .Cit. p. 19.

لم يكتف بالمنهج المنصب على الواقع الملموس فحسب وإنما امتد به ليشمل الماضى والمستقبل ، فلم يهمل كونت تأثير الأجيال على الدراسات الانسانية . الا أننا يجب أن نلاحظ أن ما ناقشه كونت فى هذا الموضوع يختلف عما نسميه اليوم بالتاريخ ، فقد قصد بمنهجه التاريخى مجرد البحث عن مقتاليات اجتماعية متطورة مجردة لا تزيد عن كونها مجموعات من الأحداث والاتجاهات تقوم بوضع خطط حدسية عن التغير التاريخى . معنى ذلك أنه لم يهتم بالبحث فى المعلومات التاريخية ذاتها .

ومما لا شك فيه أن كونت قد أعجب بمنهج العلوم الطبيعية وبالذات بنظرية الجاذبية الأرضية لنيوتن ، حتى أنه رأى أن كافة الظواهر العامة تفسر بواسطتها ، لأنها تربط كافة الظواهر الفلكية ، معا . لذا جعل كافة الظواهر تابعة للقوانين الطبيعية . ويتمثل دور الباحث فى البحث عن القوانين وليس فى البحث عن الأسباب ، وذلك بهدف ردها الى أقل عدد ممكن . أى أن دور الباحث يقتصر على تحليل الشروط المتعلقة بالظواهر والربط بينها بواسطة علاقات تتابع وتشابه طبيعية . وإذا كنا نتعجب لهذا الربط بين القوانين الطبيعية والاجتماعية فإن ما يغتفر لكونت هذه الوجهة من النظر أن القانون فى رأيه ليس حتميا كما تصور البعض ، كما أن وضع علم الاجتماع فى سلسلة العلوم يجعله متأثرا بتلك العلوم . بيد أن اعضاء الطابع العلمى على علم الاجتماع لا يعنى ضرورة استعارة نماذج ومناهج العلوم الطبيعية ، فهو وإن كان قد جعل هذا العلم متأثرا بالعلوم التى سبقته الا أنه ميز بين المجال الانسانى والمجال اللا انسانى كما أنه تفادى كل من التفسيرات المادية والتفسيرات العقلية (٣٣) .

ان تصنيف العلوم الذى وضعه كونت قد ترك الباب مفتوحا أمام

(33) Thompson op. cit. p. 27.

علوم أخرى تضاف اليه على أن تثبت جدارتها ، ويمكن اعتبار لجوء كونت الى المنهج التاريخي محاولة للتفسير خارج التفسيرات المادية الصرفة .

الا أن علينا أن نعترف بأن تعليقات كونت حول فائدة العلوم ، جعلته يقع في نوع من الجمود جعله يرفض مجالات واسعة ، ويقوم باستبعادها على أساس أنها غير ذات قيمة أو على أساس أنها « ميتافيزيقية » . وبهذا الشكل تخلص من نظرية الاحتمالات ، وعلم الفيزياء الفلكية ، وبحوث عن بناء المادة ، ونظرية التطور (النشوء والارتقاء) وحتى دراسات عن أصل المجتمع (٣٤) .

ولم يكتف بالتأكيد على القوانين لأن الوضعية تركز على أكثر من هذا ، تركز على وجود علاقات بين المعرفة والتنبؤ والفعل .
أي أن اهتمام كونت بالتنبؤ مرتبط بمستقبل علم الاجتماع ذاته باعتباره جزءا من نمط محدد للتغير الاجتماعي .

أما نظرة كونت الى علم النفس فهي قاصرة لأنه حصر اهتمامه في الظواهر الاجتماعية وأهمل الاهتمام بعلم النفس . فقد تغاضى عن كون البشر لديهم معرفة داخلية بأنفسهم تختلف عن معرفتهم بالأشياء الخارجة . وترد نظرة كونت الناقصة تجاه علم النفس الى وضع هذا العلم في العصر الذي عاش فيه كونت وما شاب هذا العلم من تأخر .



ثالثا : اتجاه أميل دوركايم ونظرته الى التفسير

إذا كنا قد تحدثنا عن « كونت » باعتباره مؤسسا لعلم الاجتماع فإن حديثنا عن دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) لا يقل أهمية وذلك باعتباره

(34) Kolakowski op . cit. p. 67.

أول من وضع علم الاجتماع على أسس علمية . وكان هدف دوركايم هو التوصل الى علم اجتماع موضوعى ومنهجى ، لذا سبق غيره من المفكرين فى تعريف الظاهرة الاجتماعية ثم تحديد أسس الدراسة العلمية للوصول الى نتائج يعتد بها . ولم يكتف بهذا القدر فحسب وانما مضى الى تطبيق منهجه فى دراسة الظواهر الاجتماعية مستخدما لأول مرة المناهج الاحصائية فى البحث الاجتماعى .

وكان دوركايم أول من وضع قواعد لتفسير الوقائع الاجتماعية ، مفردا لها الفصل الخامس من كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » . ولا شك اننا سوف نشعر اثناء استعراضنا لأراء دوركايم فى هذا الموضوع بالذات بقيمة العمل الذى قام به ، ومما يؤكد هذا الشعور استمرارية أعماله كنموذج لأحد الانجازات الهامة فى تاريخ الفكر الاجتماعى من ناحية وكانتاج له معنى وأهمية فى ضوء الاتجاهات الفكرية المعاصرة من ناحية ثانية .

ان علم الاجتماع كما يتصوره دوركايم ليس الا دراسة لوقائع اجتماعية اساسا ، وتفسيرا لهذه الوقائع بطريقة اجتماعية . وقد استهدف دوركايم فى كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » أن يدلل على انه يوجد او لا بد أن يوجد علم اجتماع موضوعى يتوافق مع نموذج العلوم الأخرى ، موضوعه هو الواقعة الاجتماعية . ويحتاج مثل هذا العلم الى شيئين :

أولا : لابد أن يكون موضوعه محددًا أى متميزًا عن موضوعات العلوم الأخرى .

ثانيا : لابد أن يوجد هذا الموضوع على نحو يتيح ملاحظته وتفسيره

بطريقة شبيهة بملاحظة وتفسير وقائع العلوم الأخرى (٣٥) .

وقد أكد دوركايم في مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب المذكور ان المنهج الذى يقترحه للدراسة ليس الا عملا مؤقتا لان المناهج تتغير مع تقدم العلم ، فعلى اساس هذا الراى ينبغي علينا ان ننظر الى منهجه .

ولقد دافع دور كايم عن تعريفه للوقائع الاجتماعية بأنها «اشياء» مؤكدا على اختلافها عن الأشياء المادية من نواحى عدة على الرغم من وقوعها معها على نفس المستوى . ويعرف دور كايم هذا « الشئ » الذى جعله محمولا للوقائع الاجتماعية بأنه : ذلك الموضوع للمعرفة الذى لا يمكن ادراكه بوضوح بمجرد القيام بعملية تحليل عقلى ، ذلك انه يمثل كل ما لا يستطيع العقل فهمه الا اذا انتقل خارج ذاته بواسطة الملاحظات والتجارب ، ويكون هذا عن طريق السير التدريجى من الخصائص الخارجية القابلة للادراك بشكل مباشر الى الخصائص الأقل وضوحا والأكثر عمقا . ولا يعنى تناول الوقائع كاشياء تصنيفها فى مقولة من مقولات الواقع وانما يعنى ملاحظتها فى ضوء اتجاه عقلى معين ، اى القيام بدراستها متمسكين بمبدأ معين يقوم على كوننا نجهل تماما طبيعة هذه الوقائع وعلى كون خصائصها المميزة واسبابها المجهولة لا يمكن كشفها بسهولة عن طريق منهج الاستبطان introspection مهما كان دقيقا . وقد اعتبر دور كايم كل موضوعات العلم اشياء ، باستثناء موضوعات العلوم الرياضية . وحتى علم النفس أصبح علما

(35) R. Aron. Main Currents in Sociological Thought 2 trans. by Richard Howard and Helen Weaver. Mid. : Penguin Books Inc. 1972 p. 70. -

موضوعيا ، تقوم قاعدته الأساسية على دراسة الوقائع العقلية من الخارج
اي كاشياء (٣٦) .

ولا يستدعى القول بهذه القاعدة (دراسة الوقائع كاشياء) اى تصور
ميتافيزيقى ، او اى تأمل نظرى داخل الفرد . وانما تطالب هذه
القاعدة الباحث الاجتماعى ان يعيش فى حالة ذهنية شبيهة بالتى يعيشها
العلماء الفيزيائيون والكيميائيون والفسولوجيون عندما ينطلقون الى كشف
منطقة لم بطرقوها من قبل فى مجالهم العلمى . واذا ما وصل الباحث
الى العالم الاجتماعى المنشود فعليه ان يتزود بالوعى بكونه ينفذ الى
المجهول ، وعليه ان يشعر انه فى حضرة وقائع لا زالت قوانينها مجهولة
بالنسبة له مثلما كانت وقائع الحياة مجهولة قبل قيام علم البيولوجيا .
يجب اذن على الباحث الاجتماعى ان يكون مستعدا ومهيأ للوصول الى
كتشوف سوف تعتبر مفاجئة بالنسبة له وقد تصيبه بخيبة امل (٣٧) .

ويبرر دوركايم نظريته ومنهجه بالرجوع الى القصور فى الموقف العلمى
المعاصر له ، الذى لا يوضح للعلماء اهم النظم الاجتماعية كالدولة ،
والامرة ، وحق الملكية ، والعقد ، والعقاب والمسئولية ، فهناك جهل
شبه تام بالاسباب التى تعتمد عليها النظم ، والوظائف التى تقوم بها ،
والقوانين المتعلقة بتطورها . ان الفكرة التى لدينا عن الأعمال الجمعية ،
من حيث ماهيتها وكيف يجب ان تكون ، هى عامل من عوامل تطورها .
الا ان هذه الفكرة ذاتها ليست الا واقعة تحتاج لكى تتحدد ان تخضع
للدراسة من الخارج . ويعتبر موضوع المعرفة هو ذلك التصور الذى
يملكه المجموع ، وليس الطريقة التى يتمثل بواسطتها مفكر معين النظم
بطرق فردية . ان تصور المجموع ، فى رأى دور كايم ، هو وحدة

(36) E. Durkeim, Les règles de la Méthode Sociologique.

Paris Presse Universitaire de France 1949. p. XIII.

(37) Ibid. p. XIV.

القصور الفعال ، ولا يمكن الوصول اليه بمجرد ملاحظة داخلية لذا
وجب البحث عن رموز خارجية *Signes extérieurs* لتجعله
محسوسا . وبالإضافة الى ذلك نجد أن هذا التصور لم ينشأ من فراغ
وانما هو نتيجة أسباب خارجية ، علينا أن نعلمها لكي نستطيع تقدير
دورها في المستقبل . ويعتبر دور كايم هذا المنهج وحده هو الفعال ومهما
فعلنا فانتنا ولا بد أن نرجع دائما اليه (٣٨) .

لقد اعتبر دور كايم الظواهر الاجتماعية خارجية بالنسبة للفرد .
وإذا كان من الصحيح أن الخلية الحية لا تملك أى شيء خارج مكوناتها
المعدنية *minerals* وأن المجتمع لا يحوى شيئا خلاف الأفراد ، فإن
هذا لا يمنع من القول بأنه من المستحيل أن تكون ظواهر الحياة كامنة
في ذرات غاز الهيدروجين والأكسجين والكربون والأزوت ، لأننا في هذه
الحالة لن نستطيع تفسير حدوث الحركة الحية داخل العناصر غير الحية ،
فالحياة واحدة لا تنقسم . أن سيولة الماء وخواصه لا تكمن في الغازات
المكونة له ، مأخوذة كل على حدة وانما ترجع الى المادة المعقدة
المركبة من اجتماع الغازات . فاذا طبقنا هذا المبدأ على علم الاجتماع ،
فسوف نجد أننا اذا افترضنا ان التركيب المكون لأي مجتمع من نوع
خاص *suigeneris* مولد لظواهر جديدة مختلفة عن الظواهر التي
تحدث في الوعي الفردي ، فلا بد حينئذ ان نقبل القول بأن هذه
الوقائع المعينة تكمن في المجتمع نفسه الذي ينتجها وليس في أجزاء
المجتمع أى أعضائه . وبهذا المعنى تكون الوقائع خارجة عن الوعي
الفردي للأفراد ، تماما مثل كون خصائص الحياة خارجة عن المواد
المعدنية التي تكون الكائن الحي (٣٩) .

(38) Ibid p. XV.

(39) Ibid p. XVI.

ويمستغل دور كايم هذه النتيجة التى توصل اليها لى يبرر فصله بين علم النفس وعلم الاجتماع . فالوقائع الاجتماعية لا تختلف عن الوقائع النفسية من حيث النوع *qualité* فحسب وانما هى تملك ايضا اساسا مختلفا ، فالمجموعتان (الوقائع الاجتماعية والنفسية) تتحركان فى نفس الوسط ولا ترتبطان بنفس الشروط . ان فكر الجماعة ليس هو فكر الأفراد ، ولكل منهما قوانينه الخاصة . ومن هنا نقول ان كل علم منهما يتميز تماما عن الآخر . ومن المؤكد تماما ان مادة الحياة الاجتماعية لا يمكن ان تفسر بواسطة عوامل نفسية خالصة اى عن طريق حالات الوعى الفردى . ولكى نفهم الطريقة التى يتمثل بها مجتمع ذاته والعالم من حوله ، لابد ان نضع فى الاعتبار طبيعة المجتمع وليس الأفراد (٤٠) .

ويؤكد دوركايم على وجود رموز خارجية ترد اليها الوقائع ، على الباحث ان يتعرف عليها ويعرف مكانها ولا يخلطها بوقائع اخرى . ان المفروض فى البحث هو تحديده بقدر الامكان فان ما نحتاجه فى حالة التعريف الاولى هو توضيح خصائص الظاهرة وملاحظتها قبل البحث (٤١) .

لقد اعتقد دور كايم فى كل من العقل والعلم وبنى منهجه على تأكيد مذهب السببية او العلية وانطباقه على الظواهر الاجتماعية ، وقد حدد دور كايم هدفه فى قوله : « العمل على مد العقلية العلمية لتشمل السلوك الانسانى وذلك عن طريق بيان ان النظر الى الماضى قد يرد الى علاقات عله ومعلول ، ثم ادخال عملية اخرى عقلية قد تحول السلوك الانسانى الى قواعد للفعل فى المستقبل (٤٢) » . وقد رأى دور كايم ان طبيعة

(40) Ibid. p. XVII.

(41) Ibid. p. XX.

(42) Ibid. p. IX.

الدراسة الاجتماعية سوف تتيح للفلسفة أن تفهم الطبيعة بشكل أفضل ،
فإن العلم ولا شك سوف يكون ذا فائدة للبشرية ، وباعتبار علم الاجتماع
هلما فلا بد له أن يجمع بين الاهتمامات النظرية والاهتمامات العملية .
ويقوم العلم الاجتماعى فيما يرى دوركايم على ثلاث افتراضات رئيسية :

الأولى : أن هناك وحدة في الطبيعة .

والثانية : أن الظواهر الاجتماعية جزء من عالم الطبيعة الموضوعى
(أى أنها واقعية) .

والثالثة : أن الظواهر الطبيعية تخضع لقوانينها ومبادئها الخاصة ،
وهى قوانين ومبادئ طبيعية . ويتبع ذلك أن تصبح الظواهر الاجتماعية
صالحة للدراسة العملية (٤٣) .

لقد قام دور كايم بإبراز العامل الاجتماعى المحدد الذى يمثل
موضوع دراسة علم الاجتماع ويقول دور كايم فى هذا الصدد : « عندما
أقوم بمسئولياتى كاخ أو زوج أو مواطن ، وعندما ألزم بعقودى ، فأنى
أقوم بواجبات تتحدد خارج ذاتى . وحتى لو اتفقت مع احساساتى
واحسست أن واقعها ذاتى فإن هذا الواقع لا زال موضوعيا لآنى لم اخلف
بنفسى » (٤٤) . وهكذا يمكن عزل المسئوليات والاتفاقات والواجبات
والقوانين والعادات باعتبارها موضوعات خاصة للدراسة ، تتمثل
ملاحظها البارزة فى كونها « خارجية » بالنسبة لآى فرد وتمارس فى نفس
الوقت ضغطا عليه . فإذا ما وقعت هذه الموضوعات فى مجال اهتمامنا
فإن هذا يعنى أننا فى مجال علم الاجتماع .

(43) E. A. Tiryakian, Sociologism and Existentialism.

Englwood Cliffs : Prentice Hall Inc. 1962, p. 14.

(44) E. Durkeim « Régles de la Méthode Sociologique » in
J. Rex , Emile Durkeim in The Founding Fathers of Social
Science ed . by T. Raison, London : Penguin Books 1969 p. 129.

لقد رأى دور كايم أن الظاهرة الاجتماعية حتى ولو لم تملك وجودا مستقلا خاصا بها فإن من صميم عمل عالم الاجتماع أو الباحث الاجتماعى أن ينسب لها مثل هذا الوجود . وذلك عن طريق التوصل الى معدلات احصائية تعتبر مؤشرات للتيارات الاجتماعية وليس مجرد حصر لظواهر فردية منفصلة . وسوف نرى كيف طبق دوركايم تجريبا تلك الافكار فى كتاباته الأخرى خاصة فى مؤلفيه «تقسيم العمل الاجتماعى» ، «والانتحار» .

لقد أكد دوركايم على خضوع المجتمع لقوانين ، بدونها يصبح العلم الاجتماعى مستحيلا . فهو يرى أن مبدا ارتباط الظواهر فى الطبيعة ارتباطا صميما لم يفشل فى أى مجال من مجالات الطبيعة ، ولما كانت المجتمعات الانسانية جزءا من الطبيعة فلا شك أن هذا المبدأ يصدق عليها بالضرورة . وإذا كان دوركايم قد أخضع المجتمعات للقوانين فمعنى ذلك أنه يستبعد كل ما هو حادث ويركز على الاطرادات والتكرارات فى السلوك الانسانى . ويقول دوركايم فى هذا الصدد : « إذا أردنا لعلم الاجتماع أن تقوم له قائمة ، فلا بد من افتراض طبيعة خاصة للمجتمعات تكون نتيجة لطبيعة العناصر المكونة لها ، وترتيب هذه العناصر . هذه الطبيعة الخاصة للمجتمعات هى منبع الظواهر الاجتماعية » (٤٥) .

ويؤكد دوركايم على أهمية وجود منهج علمى ملائم لطبيعة الأشياء المدروسة ولتطلبات العلم . فلا يكفى أن نملك موضوعا محددا علميا لكى نكشف الاطرادات والاتماط والقوانين فى المجتمع ، وإنما لابد من منهج علمى يؤدى الى نتائج يعتد بها .

أن موضوع علم الاجتماع ، حسبما يرى دوركايم ، هو بناء نظريات عن السلوك الانسانى استقرايا ، على أساس ملاحظات سابقة لهذا

(45) E. Durkeim . Montesquieu and Rousseau, transl. by R. Manheim , Michigan : University of Michigan Press 1960 p. 13.

السلوك . ولا بد لهذه الملاحظات التى نجرىها على الخصائص الخارجية الظاهرة للسلوك ان تكون سابقة على النظرية Pre - theoretical ما دامت النظرية تشتق منها . وتتميز هذه الملاحظات بإبتعادها عن افكار القائمين بالفعل Actors تجاه افعالهم الخاصة او افعال الآخرين . فعلى الملاحظ ان يحاول بكل الطرق ان يفصل نفسه عن افكار الحس الشائع ، الموجودة لدى القائمين بالفعل لأن هذه الأفكار ، فى العادة ، ليس لها اساس فى الواقع . فعلى الباحث الاجتماعى اذن ان يكون تصورات خارج اطار بحثه وان يبتعد عن تصورات الحياة اليومية لأنها ليست الا تعبيراً عن انطباعات مشوشة موجودة لدى العامة . كما ان عليه ان يهتم بالوقائع القابلة للمقارنة . ويقول دوركايم : « لا بد ان نلاحظ الواقعة الاجتماعية مثلما نلاحظ اشياء العالم الخارجى ، أى من الخارج ، ومن الضرورى اجراء التجربة والقيام بالاستقراء ، اما اذا استحالت التجربة فعلى الباحث ان يجد وسيلة لكى يقوم بمقارنات موضوعية تقوم بنفس الوظيفة » (٤٦) .

وقد اهتم دوركايم اساسا بالتوصل الى التفسير ، واغلب ما كتبه لم يكن الا تحقيقاً لهذه الغاية ، ونذكر فى هذا الصدد مؤلفاته الهامة مثل « تقسيم العمل الاجتماعى » و « الانتحار » و « الأشكال الأولية للحياة الدينية » الذى كتب فيه يقول : « ان الهدف النهائى لعلم الاجتماع هو تفسير الواقع وهذا الواقع ليس الا الانسان خاصة انسان العصر الحديث » (٤٧) . اما فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ، فقد افرد به فصلاً خاصاً للحديث عن « قواعد تفسير الوقائع الاجتماعية » .

(46) E. Durkeim, L'évolution Pédagogique en France, II Paris : Librairie Felix Alcan 1912 p. 217.

(47) E. Durkeim. Les Formes élémentaires de la vie religieuse . Paris : Felix Alcan 1912 p. 2.

ان كل العلوم الاجتماعية تعتمد أولا على كشف المعلومات وثانيا على تفسيرها . واننا لنجد لدى دوركايم منهجا واسعا لتفسير الوقائع الاجتماعية . واذا كنا قد رأينا خلال عرضنا لوجهة نظره عن الوقائع الاجتماعية اصراره على الطابع الاجتماعى لظواهر مثل العادات والتقاليد والقوانين والمجتمعات ... الخ ، فاننا لنجد اصرارا مشابها بالنسبة لتفسير تلك الظواهر . اى اننا منذ البداية نواجه بتصميم دوركايم على التفسير الاجتماعى للظواهر الاجتماعية ، وفي الفصل الخامس من كتاب القواعد نجد تفرقة حاسمة بين الفردى والاجتماعى وتفرقة اخرى بين النفسى والاجتماعى . ان دوركايم لم يقلل من قيمة علم النفس . فلم يشكك في كون الانسان يفكر ويحس ويمتلك وعيا ، الا ان هذا لا يعنى اشتقاق الظواهر الاجتماعية من الحالات غير الاجتماعية . وانما على عكس ذلك ، تشتق خصائص الانسان من المجتمع ، بل لقد اعتبر ان المجتمع والحياة الاجتماعية ضروريين بالنسبة للانسان الحديث . ومن هذا المنطلق ادان محاولات السابقين عليه .

لقد اخذ دروكايم على السابقين تقديم الظواهر في ضوء النفع العائد منها والدور الذى تلعبه . فهكذا أرجع كونت قوى الجنس البشرى المتطورة الى الميل الاساسى الذى يدفع الانسان بشكل مباشر الى تحسين وضعه بصفة مستمرة وفي ضوء اى ظرف موجود (٤٨) . كما أرجع سبنسر هذه القوى الى اكبر قدر من السعادة . وفي ضوء هذا المبدأ فسر تكوين المجتمع بواسطة الفوائد العائدة من التعاون ، وفسر قيام الحكومة بواسطة الفائدة الناجمة عن تنظيم التعاون العسكرى (٤٩) .

(48) Comte , Cours de Philosophie Positive, IV p. 262 in Durkeim « Régles de la méthode sociologique » op . cit. p. 89.

(49) Spencer. Sociologie III p. 336 in Durkeim Ibid. p. 89.

وقد رأى دوركايم ان المنهج السابق ذكره يخلط بين موضوعين مختلفين تمام الاختلاف ، فبيان ان واقعة ما ذات نفع لا يعنى تفسير نشأتها او كيف أصبحت ما هى عليه . وذلك لأن الاستخدامات التى يتضح فيها نفع الواقعة ، وان كانت تفترض الخصائص المحددة التى تتصف بها الواقعة ، الا انها لا تخلقها . ان الحاجة *besoin* التى نشعر بها تجاه الأشياء لا تكفى لكى تحدد شكلها وبالتالي فانه لا يمكنها ان تتفزع الأشياء من اللا وجود لكى تضى عليها وجودا . فوجودها يرجع الى اسباب ذات طبيعة مخالفة . ويعطى دوركايم مثالا على ذلك : فاذا اردنا ان نضى على حكومة ما السلطة التى تحتاجها ، فلا يكفينا ان نستشعر الحاجة الى ذلك بل علينا ان نتوجه الى المصادر التى يشتق منها وحدها كل سلطة ، اى نقوم بتكوين عادات وتقاليد وفكر مشترك ... الخ ، ومن اجل ذلك لا بد من المضى فى سلسلة الاسباب والنتائج حتى نصل الى نقطة يمكن فيها للفعل الانسانى ان يؤثر بفعالية . ان الواقعة اذن غير مرتبطة بالفائدة ، وقد توجد دون ان يكون لها اى نفع سواء كان ذلك على شكل عدم ارتباطها بهدف اساسى او كانت الواقعة تملك فائدة فى الماضى ثم فقدتها واستمرت فى الوجود بحكم العادة . بدليل ان هناك حالات تتغير فيها وظيفة بعض الانظمة الاجتماعية دون ان يكون فى هذا ما يبرر ان تغير من طبيعتها . ان الوضع اذن شبيه بما هو موجود فى البيولوجيا : فالعضو مستقل عن الوظيفة التى يؤديها اى انه قد يستخدم فى الأغراض المختلفة على الرغم من استمراره كما هو ، ومعنى هذا ان الاسباب التى تؤدى الى وجوده تستقل تماما عن الاهداف التى يستخدم فيها (٥٠) .

ويعتبر دوركايم ان الوقائع الاجتماعية مطردة ، فى حالة توافر الظروف المتماثلة . وعلى هذا الاساس يقيم القاعدة الاساسية فى التفسير

(50) Durkeim, *Les règles de la méthode sociologique* op cit. p. 89 - 91 .

التي يقول فيها : « عندما نكون بصدد تفسير ظاهرة اجتماعية معينة ، فعلينا أن نبحث عن كل من المبدأ الفعال الذي أدى إليها ، والوظيفة التي تقوم بها ، على أن يقوم كل بحث منها على حده » (٥١) . ويؤكد دوركايم على تفضيله للتعبير « وظيفة » عن التعبير « غاية » أو « هدف » ، ذلك أن الظواهر الاجتماعية لا توجد في ضوء النتائج المفيدة التي تنتجها . إن مهمة الباحث تنحصر في تحديد التوافق بين الظاهرة موضع البحث والحاجات العامة للكائن الاجتماعى ، دون الاهتمام بمعرفة ما إذا كانت الظواهر هادفة أم لا ، لأن الموضوعات المرتبطة بالغايات والأهداف تكون ذاتية ولا يمكن التعامل معها بطريقة علمية . وتوضح القاعدة أن السبب وحده غير كاف في تفسير واقعة حيوية ولا بد من أن نحدد الوظيفة أى الدور الذى تقوم به الواقعة في تحقيق الانسجام العام harmonie générale (٥٢) .

إن تفسير دوركايم للواقعة الاجتماعية يقوم على فكرة أساسية هى أن للوقائع الاجتماعية وجودا موضوعيا . وبالتالي فهى لا ترد ولا تفسر بواسطة وقائع أو ظواهر أخرى أقل تعقيدا أى غير اجتماعية . وكما لا يمكن تفسير الظواهر النفسية للوعى أو الشعور بردها إلى الخواص الفسيولوجية للخلايا العصبية ، وكما لا يمكن تفسير الظواهر الفسيولوجية والبيولوجية بردها إلى الخواص الفيزيائية ، كذلك يجب علينا ، فيما يرى دوركايم ، أن نتفادى النزعة الردية في تفسير طبيعة العنصر الاجتماعى والطريقة التى يعمل بها (٥٣) .

وقبل أن نتحدث تفصيلا عن مفهوم « مجتمع » في فكر دوركايم والدور الذى يلعبه في التفسير يحسن بنا أن نستعرض الأدلة التى أوردها

(51) Ibid. p. 95 .

(52) Ibid. p. 97.

(53) E. Durkeim, Sociologie et philosophie , Paris : Presse Universitaire de France 1951 p. 33.

دوركايم للتدليل على فساد مناهج التفسير السابقة عليه . فكما استبعد النزعة النفعية في تفسير الظواهر الاجتماعية كان لابد ان يرفض ايضا النزعة النفسية . فهو يرى ان السابقين قد نظروا الى المجتمع على انه نسقا من الوسائل التي اقامها الانسان من اجل بعض الأهداف ، وهذه الأهداف لا يمكن الا ان تكون فردية مادام وجود الأفراد سابق على وجود المجتمع . ويترتب على هذا الرأي ان تنبسط من الفرد كافة الأفكار والاحتياجات التي حددت تكوين المجتمع . وما دام كل شيء قد اتى من الانسان فلا بد ان يفسر عن طريقه . وبالإضافة الى ذلك فان المجتمع لا يحوى الا أشكالاً من الوعي الفردى واليها يرجع كل تطور اجتماعى . ومن الطبيعى ان يترتب على ذلك ان تكوين القوانين الاجتماعية تواجد لقوانين اعم هي قوانين علم النفس (٥٤) . ومن ثم اخذ دوركايم على كونه انسياقه في هذا الاتجاه ، واستشهد بأفكار كونت نفسه في كتابه « دروس في الفلسفة الوضعية » ليبين ان الواقعة المسيطرة على الحياة الاجتماعية في نظر كونت هي التقدم ، والتقدم يعتمد على عامل نفسى هو الميل الذى يدفع الانسان ان يطور من طبيعته الخاصة . والوقائع الاجتماعية عند كونت قد تشتق مباشرة من الطبيعة الانسانية ، ونستطيع استنتاجها بشكل مباشر من المراحل الأولى في التاريخ بدون الحاجة الى الملاحظة . ويعترف دوركايم بأن كونت لم يتمسك بهذا التفسير في المراحل المتقدمة من التطور الا ان هذه الاستحالة في رايه هي مجرد استحالة عملية ، والعلاقة بين القوانين الأساسية للطبيعة الانسانية وبين النتائج المترتبة على التقدم لا تتيح التحليل ، ما دامت اكثر الأشكال تعقيدا في الحضارة لا تخرج عن كونها الحياة النفسية المتطورة . ان علم النفس اذن له الكلمة الأخيرة عند كونت ، ويستدل على ذلك بقول كونت نفسه : « لا يمكن قبول أى قانون للتتابع الاجتماعى - ويشير بذلك الى المنهج

(54) Durkeim . Les règles de la méthode sociologique op.

cit. p. 97 .

التاريخى - الا بعد ان يرتبط عقليا سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة
بالنظرية الوضعية للطبيعة الانسانية « (٥٥) .

وقد رأى دوركايم ان سبنسر اتبع نفس الطريقة فى التفسير ، فقد
قال بعاملين اساسيين مؤثرين على الظواهر الاجتماعية هما : « الوسط
الكونى » ، « والتكوين الفيزيائى والأخلاقي للفرد » . الا ان الاول
لا يستطيع التأثير فى المجتمع الا من خلال الثانى الذى يعتبر دافعا الى
التطور الاجتماعى . فاذا كانت المجتمعات تتكون فلكى تسمح للفرد
بتحقيق طبيعته الخاصة ، وكل تطور فى المجتمع ليس له هدفا الا الوصول
الى ذلك . وقد خصص سبنسر فيما يرى دوركايم كتابه الاول فى مؤلفه
« مبادئ علم الاجتماع Principes de sociologie » لدراسة
الانسان البدائى من النواحي الفيزيائية والانفعالية والفكرية . ومعنى
ذلك ان كل شئ يخرج عن الطبيعة الانسانية (٥٦) .

وقد ترتب على تلك الاتجاهات السابقة ، فيما يرى دوركايم ،
نيوع التفسير النفسى فى الدراسات الاجتماعية . ففسر النظام الأسرى
بواسطة المشاعر التى يحملها كل من الأهل نحو الأطفال ، والأطفال
نحو الأهل . وفسر الزواج عن طريق المزايا التى تتاح لكل من الزوجين
وذريتهما ، وفسر الألم عن طريق الغضب الذى يثيره أى ضرر كبير فى
مصالح الفرد . وهكذا امكن تفسير كل الحياة الاقتصادية فى ضوء هذا
العامل الذاتى الفردى (٥٧) .

(55) Compte . Cours de philosophie positive p. 335 Quoted
in Durkeim Les regles de la méthode sociologique op. cit. p.98.

(56) E. Durkeim . Les règles de la méthode soctologique
op. cit. p. 99. .

(57) Ibid p. 100.

ويؤكد دوركايم على عدم صلاحية هذه الطريقة في تفسير الظواهر الاجتماعية لأن علم الاجتماع ليس أحد لوازم علم النفس والا كيف نفسر تسلل العنصر الاجتماعي الى الفرد واجتياحه الجارف له . ان هناك ولا شك سلطة ينحني امامها الفرد عندما يقوم بالفعل او الشعور او التفكير الاجتماعي ، وعبثا يحاول ادراكها . ان هذه الدفعة الخارجية التي يشعر بها الفرد لا تأتي منه ، ويعجز ما يجري بداخله عن تفسيرها . حقيقة اننا نستطيع التحكم في انفسنا ، فنحن نستطيع ان نحتوي ميولنا وعاداتنا وحتى غرائزنا ونوقف نموها بواسطة فعل قائم على الكبت . الا ان حركات الكبت هذه لا يمكن ان تختلط مع افعال القهر الاجتماعي . ان عمليات الكبت طاردة *centrifuge* بينما عمليات القهر الاجتماعي جاذبة . الاولى : تتكون من الوعي الفردي وتحاول بعد ذلك الانطلاق الى الخارج ، والثانية : تبدأ خارج الفرد ثم تحاول ان تجعله يبدو من الخارج على شاكلها . ان الكبت هو الوسيلة التي يحاول بها القهر والالزام الاجتماعي التأثير نفسيا الا انه ليس في حد ذاته قهرا او الزاماً (٥٨) .

ويصل دوركايم بعد ان استبعد العنصر الفردي الى طبيعة المجتمع لكي يفسر عن طريقها الظواهر الاجتماعية . ان المجتمع يفرض على الفرد طرقاً للفعل والتفكير ، وهذا الضغط الذي يمارسه « الكل » *le tout* على الفرد ليس الا الرمز المميز للوقائع الاجتماعية . هذا « الكل » الذي يتحدث عنه ليس مجموع اجزائه وانما هو شيء اخر مختلف وله خصائص تتميز عن خصائص العناصر المكونة له . فالمجتمع اذن ليس مجموع افراده وانما هو النسق المكون من ارتباط الافراد ، وهو يمثل واقعة محددة لها خصائصها الذاتية . واذا كان المجتمع يحتاج للوعي الفردي كشرط ضروري الا ان هذا الشرط ليس بكاف ، ولا بد بالاضافة

الى ذلك ان يرتبط كل وعى فردى بوعى فردى آخر بطريقة معينة ، ومن هذا الارتباط تنتج الحياة الاجتماعية ومن هنا فان هذا الارتباط يفسرها . وتندمج النفوس الفردية وتتداخل وتتحد لكى تعطى كائنا نفسيا له طبيعة جديدة وهو « الوعى الجمعى » المتميز عن وعى الأفراد . فعلى ان نحصر بحثنا فى طبيعة هذا الوعى ، وليس فى الوحدات المكونة له ، لكى نتوصل الى الأسباب القريبة والمحددة للوقائع التى تحدث . ان المجموع يفكر ، ويحس ويفعل بطريقة تخالف تماما أعضائه اذا عزل كل منهم عن الآخر . فاذا بدأنا بالأفراد فلن نستطيع ان نفهم ماذا يدور فى الجماعة ، وبالتالي كلما فسرنا ظاهرة اجتماعية بواسطة ظاهرة نفسية فهذا التفسير باطل بالضرورة (٥٩) .

ان هذا الارتباط هو مصدر كل جبرية : فبسبب مولدى ، أنا مرتبط قسرا بشعب معين ، وحتى لو قبلت هذا الارتباط فان جنسيتى تظل قسرا حتى لو كان مقبولا ، وكل ما هو اجبارى يستمد مصدره من خارج الفرد . وما دمنا لم نخرج من التاريخ فان واقعة الترابط لها نفس خصائص الوقائع الأخرى ، وبالتالي تفسر بنفس الطريقة . ولما كانت كل المجتمعات قد صدرت عن مجتمعات أخرى يمكننا ان نتأكد أنه لم توجد لحظة واحدة ، فى سلسلة التطور الاجتماعى ، كان على الأفراد خلالها ان يفكروا اذا ما كانوا جزءا من الحياة الجمعية أم لا . ان التماثلات والانفعالات والميول الجمعية لا ترجع أبدا الى أسباب متماثلة فى بعض حالات الوعى ولكنها ترجع الى الظروف التى وجد فيها الجسم الاجتماعى فى شموله او كليته (٦٠) .

ويلور دوركايم خلاصة مناقشته فى القاعدة التى تقول : « يجب علينا البحث عن السبب المحدد للواقعة الاجتماعية فى الوقائع الاجتماعية

(59) Ibid. p. 102.

(60) Ibid. p. 104.

السابقة وليس في حالات الوعي الفردي » . وما ينطبق على « السبب » ينطبق أيضا على « الوظيفة » ، فوظيفة الواقع الاجتماعى لا يمكن الا ان تكون اجتماعية . ثم يضيف دوركايم الغاية الى الوظيفة فيقول : « يجب ان نبحث عن وظيفة أى واقعة اجتماعية في علاقتها بالغاية أو الهدف الاجتماعى *fin social* » (٦١) . وعلى الرغم من ان دوركايم جعل للمجتمع دورا رئيسيا واساسيا في تفسير الوقائع الاجتماعية ، الا انه لم يستبعد الوقائع النفسية تماما من التفسير . لقد رأى انها اساسية لارتباطها بالوقائع الاجتماعية ، وانتهى الى ان الوقائع النفسية لا تستطيع ان تفسر الحياة الجمعية ولكنها تستطيع ان تساعد على تفسيرها ، على ان يكون واضحا ان الحياة الجمعية لا تشق اطلاقا من الحياة الفردية .

واذا استعرضنا آراء دوركايم في التفسير من خلال مؤلفاته الرئيسية فسوف نجد انه في كتابه الأول « تقسيم العمل الاجتماعى » *De la disision du travail social* « وهو رسالته للدكتوراه ، ان دوركايم مازال متأثرا بأراء كونت . فدار اهتمامه في هذه المرحلة حول العلاقة بين الأفراد والمجموع . ويمكن التعبير عن هذا الموضوع على النحو التالى : كيف يستطيع التعدد بين الأفراد ان يكون مجتمعا ؟ أى كيف يستطيع الأفراد تحقيق شرط الوجود الاجتماعى عن طريق التوصل الى اتفاق على رأى واحد ؟ وتتحدد اجابة دوركايم على هذا السؤال عن طريق تفريقه بين نوعين من التماسك : التماسك الآلى والتماسك العضوى .

ان النظام الاجتماعى لا يمكن تفسيره كما يفعل البعض في ضوء المنفعة الذاتية للأفراد . فلا بد من وجود شئ مختلف عن الميول الفردية

الخالصة يربط بين الأفراد في كليات اجتماعية . هذا « الشيء » هو نوع من التماسك الاجتماعي . في المجتمعات البسيطة يسمى « بالتماسك الكلى » ، ويقوم على التشابه : فالأفراد هنا يشبهون بعضهم البعض ، والأفكار والاحساسات والقيم المشتركة تجمع الكل . ان التماسك في هذه المجتمعات يرجع الى كون الأفراد ليسوا مختلفين .

اما في المجتمعات المتقدمة فيسمى التماسك « بالتماسك العضوي » الذي يقوم على تقسيم العمل . ان الاتفاق في هذا النمط من التماسك ليس الا نتيجة للاختلاف بين الأفراد ، اي ان الأفراد لم يعدوا متشابهين وانما حدث بينهم اختلاف ، وهذا الاختلاف هو السبب في وحدة المجموع . وترجع تسمية هذا التماسك بالعضوي الى ان أجزاء الكائن الحي تشبه بعضها البعض : فكل عضو فيه يقوم بوظيفة ، للقلب والرئتان وظيفتان مختلفتان عن وظيفة العقل ، ولهذا السبب لا يمكن الاستغناء عن أي منهم في الحياة . وهذا ما يحدث بالضبط في المجتمع (٦٢) . فتقسيم العمل في هذه المجتمعات ليس وسيلة لمضاعفة السعادة البشرية ولكنه واقعة خلقية واجتماعية هدفها تماسك المجتمع .

ويعرف دوركايم الوعي الجمعي *collective consciousness* في هذا الكتاب « بأنه نسق من المعتقدات والمشاعر العامة الموجودة لدى متوسط أعضاء جماعة ما » (٦٣) . ويعتبر دوركايم هذا النسق كيانا قائما بذاته ، فالوعي الجمعي الذي يعتمد وجوده على المشاعر والمعتقدات الموجودة لدى الوعي الفردي يعتبر مستقلا ، على الأقل من الناحية التحليلية ، عن الوعي الفردي ، إنه يتطور حسب قوانينه الخاصة وليس كنتيجة للوعي الفردي . ان الفرد قد نشأ عن المجتمع ، فيما

(62) Aron op cit. p. 21.

(63) Ibid. p. 24.

يرى دوركايم ، ولم ينشأ المجتمع عن افراد . وتمثل هذه الفكرة جوهر العلم الاجتماعى لديه . وتتضمن هذه الفكرة معنيين غير متعارضين :

المعنى الاول : يتمثل فى السبق التاريخى للمجتمعات التى يتشابه فيها الأفراد ، وحيث يضيع الفرد فى وسط المجموع ، على المجتمعات التى اكتسب افرادها وعيا بفرديتهم ويقدرتهم على التعبير عنها . ان المجتمعات الجمعية ، حيث يشبه كل فرد الآخر ، تاتى فى المقدمة زمنيا ؛ ومن هذا التقديم التاريخى يأتى تقديم منطقى فى تفسير الظواهر الاجتماعية . ان القول بأن البشر قد قسموا العمل بينهم من أجل زيادة الناتج الجمعى يصدد دوركايم لأنه يقوم على افتراض أن الأفراد يختلفون ويعون هذا الاختلاف قبل أن يحدث الاختلاف الاجتماعى . ان هذا الوعى بالفردية لا يمكن أن يوجد قبل التماسك الاجتماعى فى ضوء الرغبة فى زيادة الناتج الجمعى .

اما المعنى الثانى : المشتق من نشأة الفرد من المجتمع فهى تتمثل فى الفكرة الأساسية التى لازمت دوركايم فى كافة كتاباته والتى يفسر بواسطتها علم الاجتماع ، وهى أسبقية الكل على الأجزاء ، أى استحالة رد الكل الاجتماعى الى مجموع عناصره . ويعنى ذلك تفسير العناصر بواسطة الكل وليس العكس . ومن هنا تفسر الظواهر الفردية بواسطة الظواهر الجمعية ولا تفسر الظواهر الجمعية اطلاقا فى ضوء الظواهر الفردية (٦٤) .

ان الظاهرة التى يحاول دوركايم تفسيرها ، وهى تقسيم العمل ، تختلف فى مفهومها عن المفهوم الموجود لدى رجال الاقتصاد . ان تقسيم العمل الذى يتحدث عنه دوركايم هو بناء structure للمجتمع ككل ،

معبرا عنه في شكل تقسيم فنى او اقتصادى للعماله . وقد حاول دوركايم ان يدرس هذه الظاهرة بالطريقة الموضوعية التى قال بها وهى الدراسة من الخارج . ولذا حاول ان يجد طريقة لدراسة هذه الظواهر التى لا يمكن ادراكها بشكل مباشر . وقد وجد ان الظواهر فى تقسيم العمل معبر عنها فى صورة ظواهر قانونية . لذا ميز بين نوعين من القوانين يختص كل منها باحد انواع التماسك : اولها هو القانون القمعى الذى يعاقب الاثام والجرائم ، وثانيها هو القانون الرجعى *restitutive* او التعاونى الذى لا يختص بالعقاب وانما باعادة الاشياء الى النظام اذا وقع جرم ما او بتنظيم التعاون بين الافراد (٦٥) .

ويرفض دوركايم هنا ايضا تفسير تقسيم العمل برده الى اتفاق الافراد العقلانى من اجل زيادة الناتج العام عن طريق تقسيم المهام بينهم . ان المجتمع الحديث فى رايه لا يقوم على العقد كما قال اصحاب نظرية العقد من امثال هريبرت سبنسر . ان دوركايم يعترف بتزايد دور العقود فى المجتمعات الحديثة ، تلك العقود التى تبرم بحرية بين الافراد . ولكن يجب ان نلاحظ ان هذا العنصر العقدى هو احد مشتقات البناء الاجتماعى او احد مشتقات الوعى الجمعى فى المجتمع الحديث . وهكذا نعود مرة ثانية الى اولوية البناء على الفرد واسبقية النمط الاجتماعى على الظواهر الفردية .

ان دوركايم فى تفسيره لظاهرة تقسيم العمل يهدف الى تحديد سبب الظاهرة ، وما دامت ظاهرة اجتماعية اساسا ، فلا مندوحة ان يكون سبب الظاهرة اجتماعيا ايضا ، وذلك تمشيا مع مبدأ التجانس بين العلة والمعلول . تفهم اذن ظاهرة تقسيم العمل بواسطة ظاهرة اجتماعية اخرى تتمثل فى مجموعة مؤتلفة من عدة اشياء هى حجم المجتمع وكثافته

(65) Ibid. p. 27.

المادية بالاضافة الى كثافته الخلقية (٦٦) . وهنا تتضح احدى المبادئ التى قررها دوركايم بعد ذلك فى كتاب القواعد وهو تفسير الظاهرة الاجتماعية عن طريق ظاهرة اجتماعية اخرى . وهكذا تتحدد الفكرة الرئيسية لدى دوركايم وهى ان الفرد ليس الا تعبيراً عن الظاهرة الجمعية .

واذا كان دوركايم قد حدد بجلاء مبادئ التفسير السليم فى كتاب القواعد فانه مضى فى كتاب التالى عليه وهو « الانتحار ، دراسة اجتماعية » *Le Suicide , étude sociologique* الى اختبار مبادئه . ففى هذا الكتاب تتضح بجلاء كافة مبادئ التفسير الرئيسية : النظرة الواقعية الى المجتمع باعتباره « ظاهرة كلية » تعلق على مجموع عناصرها ، والتصورات الخاصة بالتمثيلات الجمعية والوعى الجمعى ، واخيراً استخدام منهج المقارنة بين مختلف الجماعات والمجتمعات وقد عبر عن أهمية المقارنة بقوله : ان المقارنة وحدها تتيح التوصل الى التفسير ، ومن هنا اذا كنا بصدد وقائع قابلة للمقارنة فاننا نستطيع القيام ببحث علمى ، ويزيد من فرص نجاح البحث امتلاك الوقائع لكل ما يمكن أن نقارنه بنجاح » (٦٧) .

لقد اختار دوركايم موضوع الانتحار كظاهرة تستحق الدراسة نتيجة لاهتمامه بمحنة المجتمع الحديث المتبدية فى التفكك الاجتماعى وضعف العلاقات بين الافراد . وقد اختار دوركايم استخدام الطريقة الاحصائية فى الدراسة لأنه وجد ان التجربة غير صالحة بسبب تميز الطابع العام

(66) Ibid. 31.

(67) E. Durkeim. Suicide . a study in sociology . trans. by J. A. Spaulding and G. Sympson . London : Routledge and Kegan Paul 1952, p. 41.

على حساب الخاص في تلك الواقعة الاجتماعية . وميزة الاحصاء انه يركز على المظاهر الجماعية للسلوك لانه يقدم علاقة بين واقعتين اجتماعيتين وهكذا درس دوركايم الانتحار كواقعة اجتماعية من أجل التوصل الى العلاقة بين نسبة المنتحرين وكل من الدولة المدنية ، والدين ، واسلوب الحياة . هذه الطريقة تتجاهل بشكل الى المظاهر الفردية لكل انتحار ، ذلك انه وجد ان الاحصاءات المتاحة لا تدعم أى افتراض قائم على ارجاع تفسير معدلات الانتحار الى أسباب فردية .

وقد توصل دوركايم الى ان العزاب ينتحرون في المتوسط بنسبة اكبر من المتزوجين ، والمتزوجون بدون أطفال أكثر من المتزوجين بأطفال ، والبروتستانت ينتحرون بنسبة اكبر من الكاثوليك ، والكاثوليك أكثر من اليهود . وترتفع نسب الانتحار في زمن الهدوء السياسى والسلام أكثر من زمن الازمات السياسية او الدبلوماسية او الحروب .

وقد بين دوركايم ان هناك انواعا من الانتحار ، فبالإضافة الى الانتحار من خلال الأنانية والانتحار من خلال الغيرة يوجد الانتحار اللامعيارى suicide anomic ، وهو الذى يصيب الفرد نتيجة وجوده في المجتمعات الحديثة . وهنا لا يخضع الوجود الاجتماعى للتقاليد ، فالأفراد في تنافس ، ينتظرون الكثير من الحياة ويطالبون بالكثير . وهم في خطر مستمر من الشعور بالألم نتيجة عدم التناسب بين ما يطمعون اليه وما قد تحقق منه . وقد ساعد هذا الجو من القلق وعدم الرضاء على نمو الدافع الانتحارى (٦٨) . ويقول دوركايم في هذا الصدد : « ان اللامعيارية . او اختلال المعايير an-mic هى عامل محدد ومطرّد للانتحار في مجتمعاتنا الحديثة . ويختلف هذا النوع من الانتحار عن الأنواع الأخرى لا لمجرد اعتماده على الربط بين الفرد والمجتمع

ولكن لصلته بالطريقة التى ينظم بها المجتمع نفسه . ان الانتحار الأتلاشى ينتج عن شعور الانسان بأنه لا يوجد ما يربطه بالحياة ، والانتحار الغيرى يرجع الى أن أساس الوجود يبدو للفرد خارج نطلق الحياة ذاتها . أما النوع الثالث فيحدث نتيجة اختلال نشاط الانسان وما ينتج عنه من معاناة ، ويسبب نشأة هذا النوع من الانتحار نطلق عليه اسم انتحار لا معيارى ، suicide anomie (٦٩) .

ويمكن تلخيص نظرية دوركايم انه نظر الى الانتحار كظاهرة فردية ترجع اساسا الى أسباب اجتماعية . فتوجد قوى اجتماعية يسميها دوركايم دوافع انتحارية تخترق المجتمع ، يكون منشأها جمعيا وليس فرديا . هذه القوى هى السبب الحقيقى للانتحار . ان هذه الدوافع الانتحارية لا توجد ممثلة فى شخص نكون قد اخترناه للدراسة ، بناء على اختيار عشوائى ، لأن اقدام شخص ما على الانتحار يرجع ولا شك الى أنه كان لديه استعدادا مشتقا من تكوينه النفسى ، او ضعفه العصبى او اضطرابه العقلى . الا أن نفس الظروف التى تخلق الدوافع الانتحارية هى نفسها التى تخلق الاستعداد النفسى ، وذلك لأن الأفراد الذين يعيشون فى المجتمعات الحديثة يتصفون بحساسية مرهفة وبالتالي يكونوا سريعى التأثير . ان الاسباب الحقيقية اذن هى القوى الاجتماعية . وهى تختلف من مجتمع الى آخر ومن ديانة الى اخرى ، كما انها تنشأ من الجماعة وليس من الأفراد مأخوذين كل على حدة . وهذا يعود بنا الى الموضوع الرئيسى وهو ان المجتمع بطبيعته غير متجانس فى علاقته بالأفراد ، وأن هناك ظواهر أى قوى تنبع عن الشكل الجمعى وليس من مجموع الأفراد . ويمكن أكثر من ذلك القول أن الأفراد معاقدين يصدر عنهم ظواهر لا يمكن تفسيرها الا اذا اخذت ككل واحد . وينتج عن ذلك وجود ظواهر اجتماعية معينة تسيطر على الظواهر الفردية ، واغوى مثال على ذلك

هى القوى الاجتماعية التى تدفع بالافراد الى حتفهم . بينما يعتقد كل فرد منهم انه بطيع نفسه فقط (٧٠) .

واكد دوركايم على اهمية النظام discipline فى كتابه « الاشكال الاولى للحياة الدينية Les formes élémentaires de la religion ويخضع الانسان للنظام بواسطة قوة عليا ليست الا المجتمع نفسه . وقد بين دوركايم فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ان السببية او العلية تأتى من المجتمع وحده . ومن هنا فان النزعة التجريبية غير سليمة لأنها لا تستطيع ان تفسر كيف تظهر التصورات او المقولات . والنزعة العقلية القبلية apriorism ايضا غير سليمة لأنها لا تفسر شيئا ، فهى تضع فى العقل البشرى ، على شكل معطيات لا تتغير ، نفس الشيء الذى يحتاج الى تفسير . ان ما فهمته النزعة القبلية هو ان الحس لا يمكن ان يعطى تصورات او مقولات وان هناك فى العقل شيء آخر خلاف معطيات الحس . ولكن ما لم يفهمه كلاهما – النزعة الحسية والنزعة القبلية – هو ان هذا الشيء اكثر من مجرد معطيات حسية وان له منشا origin ، وهذا المنشأ هو تفسير له . وتعتبر الحياة الجمعية هى المنشأ والأصل والتفسير للتصورات والمقولات . ان المجتمع فى رأى دوركايم هو العملية التى بواسطتها تصل الافكار الى التعميم وفى نفس الوقت الى السلطة التى تحدد كل من التصورات والمقولات (٧١) .

وقد اضاف دوركايم على الدين مكانة مؤثرة فى تكوين الحضارة ، لانه رأى فى تفسيره له انه باعتباره ، اعلى تعبير عن القوى الجمعية قد صدر عن تفاعلات الافراد فى داخل الجماعة الاجتماعية . وليست المعتقدات والطقوس الدينية الا تعبيراً رمزياً عن القوة الخلقية للمجتمع نفسه .

(70) Aron op. cit. p. 44.

(71) Aron op. cit. p. 65.

وقد ادى به هذا الى النظر الى كل من الدين والمجتمع باعتبارهما مرتبطان مصائريا (٧٢) .

ان التفسير الاجتماعى للدين هو من ناحية تعبير جمعى راجع الى تجمع الافراد فى نفس المكان ، ومن ناحية اخرى يستدعى القول بان المجتمع نفسه هو موضوع عبادة الفرد من حيث لا يدري (٧٣) .

وقد ميز دوركايم بين علم الاجتماع والتاريخ ، فبينما يكون التاريخ وصفيا فان علم الاجتماع يكون تفسيريا . وقد اعتبر دوركايم ان وصف فكرة او نظام ما لا يعتبر تفسيريا له (٧٤) . ان التحليلات التاريخية فى رايه لا تكشف عز اسباب او وظائف نظام ما على الرغم من تناولها لمراحل النظام . فاهـؤرخ فى اهتمامه بالحدث الفريد يهمل كل ما هو مشترك بين الاحداث ، لذا يعجز عن عقد المقارنات فى تحليلاته التاريخية .

لقد راي دوركايم ان التفسير التاريخى الذى يعتمد على الماضى لا يعتبر تفسيراً علمياً صادقا ، فالظاهرة الاجتماعية تفسر فى ضوء الظروف المصاحبة لها عن طريق العلاقة السببية . وقد وضع قاعدة تقول : « يجب علينا ان نبحث عن الاصل الاول لكل عملية اجتماعية ذات اهمية معينة فى تكوين الوسط الاجتماعى الداخلى » (٧٥) ذلك ان الظاهرة الاجتماعية تتاثر بواقعة الترابط ، اى الطريقة التى تتجمع حسبها الاجزاء المكونة للمجتمع ، وتتحد هذه الاجزاء لتكون « كلا محددا » هو الوسط الداخلى . وقد اعتبر دوركايم هذه العناصر المكونة للوسط نوعين : اشياء

(72) Tiryakian op. cit. p. 42.

(73) Aron op. cit. p. 69.

(74) E. Durkeim. La science positive de la morale en Allemagne. Revue Philosophique XXIV (1887) p. 282.

(75) E. Durkeim, Les règles de méthode sociologique op. Cit. p. 111.

واشخاص وتشير الأشياء ، بالاضافة الى الموضوعات المادية الموجودة في المجتمع ، الى نتائج النشاط الاجتماعى السابق ، والقانون السائد ، والمعادن القائمة ، والأعمال الأدبية والفنية ... الخ . ولكن ما يحدد التغيرات الاجتماعية لا يصدر عن هذه الأشياء لأنها لا تنتج أى قوة محركة ، فهى المادة التى تنطبق عليها القوى الحية فى المجتمع دون أن تصدر عنها أى قوة حية . فيتبقى إذن كعامل نشط ، العنصر الإنسانى وحده . ومن واجب عالم الاجتماع أن يحاول كشف الخصائص المتعددة لهذا الوسط فهى الكفيلة بأن تؤثر على مجرى الظواهر الاجتماعية .

ويخبرنا دوركايم أنه قد أمكنه التوصل الى مجموعتين من الخصائص هى : عدد الوحدات الاجتماعية أو حجم المجتمع ، ثم درجة تركيز الحجم *le degré de la concentration de la masse* التى أسماها « الكثافة الديناميكية » ، ويعرفها بأنها أى حجم فى تناسبه مع عدد الأفراد المرتبطين بعلاقات . هذه العلاقات ليست فقط علاقات تجارية وإنما أخلاقية أيضا أى أن الأفراد يتبادلون الخدمات كما يعيشون حياة مشتركة ، ولذا فإن ما يعبر بجدارة عن الكثافة الديناميكية لشعب ما هو درجة التحام *coalescence* القطاعات الاجتماعية (٧٦) .

وقد أضفى دوركايم على المفهوم الخاص بالوسط الاجتماعى أهمية عظمى كعامل محدد للتطور الجمعى . فإذا ما استبعد فإن علم الاجتماع يصبح عاجزا عن إقامة أى علاقة سببية . وقد انتهى دوركايم الى النتيجة التى تقول « أن الأحداث الحالية فى الحياة الاجتماعية لا تشق من الوضع الحالى للمجتمع ، ولكن من الحوادث السابقة أى من السوابق التاريخية ، وسوف تنحصر التفسيرات الاجتماعية فى ربط الحاضر بالماضى » (٧٧) .

(76) Ibid. p. 112.

(77) Ibid. p. 116.

وقد انتهى دوركايم الى تقرير اهمية التاريخ بالنسبة للانسان في علاقاته بالآخرين . فقد اعتبر دوركايم ان الطبيعة الانسانية متغيرة وان التاريخ ليس مجرد اطار تدور بداخله حياة الانسان بل انه يشكل ويغير ويخلق الانسان . فالانسان ليس الانتاج التاريخ ، والطريقة التى يرتبط بها العالم - متضمنة الطريقة التى يدرك بها علاقاته بالآخرين - تختلف من زمن الى آخر ، ومن مكان الى آخر . وهذه التغيرات فى طبيعة الانسان ليست بتغيرات ثانوية ، وانما لها دلالة كبيرة (٧٨) . ان هذه الفكرة التى طورها دوركايم فى اواخر اعماله تدل على اهتمام متزايد بتقبل النزعة الفردية . ونستطيع بناء على ذلك القول ان منطق للتفسير عند دوركايم كان اجتماعيا وتاريخيا فى الوقت ذاته (٧٩) .

* * *

رابعاً : نظرة نقدية الى اتجاه دوركايم

نتبين من العرض السابق لفكر دوركايم انه كان فيلسوفا وصعيا مؤمنا بالتفكير العلمى وهذا ما حدا به الى النظر الى الوقائع الاجتماعية كاشياء ، فالوقائع الاجتماعية فى نظرة حقيقية ومتميزة تماما مثل الوقائع الطبيعية ، ولا يمكن فهمها فى ضوء اى شىء خارجها . وقد حدد دوركايم خاصيتين أساسيتين تتميز بهما الواقعة الاجتماعية : أولهما ، انها خارجية بالنسبة للفرد ، وثانيهما ، انها تمارس ضغطا عليه . ويعنى النظر الى

(78) E. Durkeim . Introduction à la morale ed . by M. Mauss.
Revue philosolique LXXXIX - XC 1920 pp. 79 - 97 p. 88 Quoted
in Tiryakian op. cit. p. 51.

(٧٩) د . محمد عارف : المنهج فى علم الاجتماع ، الجزء الأول :
المنهج الكيفى والمنهج الكمى فى علم الاجتماع ، القاهرة ، دار الثقافة
للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ٣٠

الوقائع كاشياء خارجية التخلص من التصورات المسبقة والأحكام المسبقة التي تجعلنا عاجزين عن معرفة الوقائع بطريقة علمية . والقسر والالزام المصاحبان للواقعة الاجتماعية نابع من كونها تفرض نفسها على الأفراد وتجبرهم على ملاحظتها . فاذا نظرنا من هذا المنطلق الى المعنى الشيء والخارجي الذي ينمبه دوركايم الى الظواهر فسوف ينتفى ولا شك النقد الذي وجه اليه باعتباره اراد تفسير الوقائع الاجتماعية في ضوء العوامل الطبيعية ، ففي واقع الأمر أن دوركايم قد استعار من العلوم الطبيعية المنهج أو الشكل دون المضمون .

وهو اعتبر دوركايم ان الوقائع تمثل الطريقة التي يرى بها المجتمع نفسه وما يحيط به . والتعبيرات النمطية الشائعة للحياة الجمعية هي كل من المبادئ الأخلاقية ، والمعتقدات والممارسات الدينية ، والرموز القانونية والأساطير ، والفلكلور والأمثال ، والحكم ، وأخيرا اللغة وهي أكثر الطرق تعبيرا عن الجماعة أو المجتمع في علاقته بالعالم (٨٠) .

ولقد رأى دوركايم ان التفسير يمثل هدف علم الاجتماع ودليلا على قدرته العلمية ، وقد حاول ان يبين في مؤلفاته ما ينبغي أن يكون عليه التفسير . لقد شعر دوركايم أن عليه ان يقدم أدلة على رايه هذا ، ويرجع هذا الى عدة أسباب :

أولا : وجود النزعة العقلية لديه وبالتالي الاتجاه الفلسفي في طابعه الفكري ، ويدعوه هذا الاتجاه الى مناقشة ما يستحق التثبيت منه ، مناقشة تتفحص الافتراضات والتأثيرات التي يستدعيها الموقف المتخذ .

ثانيا : كان لدى دوركايم الرغبة القوية في اقناع الرأى المعارض والرأى الشاك فلم يكن يريد ان يتابع طريقة في استقلال عن وجهات نظر

(80) Tiryakian op. cit. p. 17.

الآخرين . وقد رأى ان الاراء المقاومة لدعاوى علم الاجتماع هى آراء غير مسئولة ، و احيانا خطره وكان لديه الاحساس بانه يعيش مرحلة ازمة اجتماعية .

ثالثا : كان دوركايم يهدف الى تأسيس مدرسة ، اى مجموعة من الباحثين يساهمون فى بحث مشترك بحيث يحولون كافة الدراسات الاجتماعية الى فروع لعلم موحد هو العلم الاجتماعى . لذا استشعر دوركايم الحاجة الى وضع برنامج ناجح من المبادئ يذير طريق البحث فى المستقبل . ومن هنا كان كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » (٨١) لقد جعل دوركايم من المفهوم « مجتمع » النقطة المركزية فى فكره وهذه الكلمة هى اكثر الكلمات شيوعا وتعقيدا فى كتاباته . وقد تجاوز تصور دوركايم للمجتمع مجموع الافراد المكونين له ليمثل نسقا او واقعا محسدا . لقد اعتبر دوركايم الواقع الاجتماعى منفصلا عن الواقع الفردى ، وفسر الظواهر الاجتماعية سواء الفردية او الجمعية بواسطة الظواهر الاجتماعية .

ولقد تضاربت الآراء حول تصور دوركايم للمجتمع . فقد اعتبر البعض هذه النظرة اتجاه سوسيولوجى ولكنه ليس مطلقا ما دام لم يعتبر الفرد مجرد نتيجة للمجتمع وانما فصل بينهما كمجرد خطوة لازمة لتصوير المجتمع نفسه ، ثم اعتبر التفاعل بين التنظيم الاجتماعى والاحتياجات البشرية اهم نقطة فى تفسير التطور من شكل معين الى شكل آخر (٨٢) . بينما اعتبرت نظرة دوركايم من جانب مفكرين آخرين بأنها اقامت تفرقة حاسمة بين الفرد والمجتمع (٨٣) .

(81) S. Lukes . Emile Durkeim . New York: Harper and Row Publishers 1972 p. 226.

(82) P. Q. Hirst . Durkeim, Bernard and Epistemology. London : Routledge and Kegan Paul 1975 p. 146.

(٨٣) د . قاسم ، مرجع سابق ، ص ٣٤٠

وفى الواقع أن مفهوم أو تصور دوركايم « للمجتمع » هو ، من وجهة نظره ، الكلمة الأخيرة التى ترد إليها التفسيرات فى كافة المجالات ونحن وإن كنا قد تعرضنا لتصور دوركايم للمجتمع فى كتاباته الرئيسية إلا أنه أيضا تحدث عنها فى مؤلفاته الأخرى . وفى كتابه المشترك مع مارسيل موس **M. Mauss** تحت عنوان « التصنيف البدائى » نجده ، قد اهتم بالتصنيفات الرمزية ذات الطبيعة الخلقية أو الدينية وميزها عن التصنيفات ذات النسق التى أسماها تصنيفات تكنونولوجية . وقد اعتقد دوركايم وموس أن العقل الإنسانى يفتقد القدرة على بناء انساق معقدة للتصنيف الذى نجده فى كل المجتمعات والذى يعتبر نتاج حضارى غير موجود فى الطبيعة . ويتساءل المفكران عن النموذج الذى اشتقت منه هذه التصنيفات للأفكار وتجبىء الاجابة مؤكدة على أن هذا النموذج لا يمكن إلا أن يكون المجتمع نفسه . أن المقولات المنطقية هى المقولات الاجتماعية ، وأول مجموعة للأشياء كانت مجموعة البشر ، ليس فقط كشكل خارجى وإنما كعلاقات لها طبيعة اجتماعية وإذا نظرنا الى مجموع الأشياء كنسق واحد فسبب ذلك أن المجتمع نفسه يخضع لهذه النظرة ، وبالتالي فإن السلسلة المنطقية ليست إلا مظهرا آخر من السلسلة الاجتماعية ووحدة المعرفة ليست إلا وحدة الكل الاجتماعى التى امتدت لتشمل الكون بأكمله (٨٤) .

وفى مقالة كتبها دوركايم قرب أخريات حياته « **Le dualisme de la nature humaine et ses conditions sociales** » اهتم بالتركيز على ثنائية الروح والجسم . وقد تناول دوركايم هذه الثنائية كتعبير جمعى يحتاج الى تفسير اجتماعى يظهر الواقعية خلف

(84) E. Durkheim , M. Mauss. *Primitive Classification*, trans. & ed . by Rodney Needham . Chicago. The University of Chicago Press 1963 , p. 8 , 9 .

هذا المفهوم الثنائي للطبيعة البشرية . لذا رفض الحلول التجريبية والحلول المثالية لتفسير هذه الثنائية لأن الاتجاه الأول انكر وجود ثنائية حقيقية في الانسان بناء على ان الانشطة العقلية والخلقية لا تختلف عن الانشطة والاحساسات الجسمية الاخرى . اما الاتجاه المثالي ففسد رأى الواقع مكونا من افكارا (تصورات) ولا يوجد بالتالى صراع حقيقى بين الانسان والعالم أو بداخل الانسان ذاته . ويعتبر دوركايم ان النزعتين عاجزتان عن تفسير سبب احساس الانسان على مر التاريخ بتعارض الخلقى . . ويرى دوركايم ان فكرة كون الروح غير فان وان الحياة مستقلة عن الوجود الغائى للجسم هى فكرة واقعية . فان حياة المجتمع اطول من حياة الفرد ، فالأفراد يولدون ويموتون بينما يستمر المجتمع . ان فكرة الروح باعتباره افضل جزء فينا واسمى من الجسم ، هذه الفكرة تتضمن عنصرا مقدسا يفرض على الفرد ، وهو انعكاس لتفوق المجتمع على الفرد وتأثيره الخلقى عليه . ويقول دوركايم فى هذا الصدد : « ان كل واحد منا يعيش حياة مزوجة : احدهما فردية خالصة ذات اصل نفسى ، والثانية خارجة عنها *extraindividual* باعتبارنا امتدادا للمجتمع » (٨٥) . والصراع الذى نشعر به بين مطالب الروح ومطالب الجسم ليس الا انعكاسا للواقعة فى كون مطالب المجتمع تختلف تماما عن المطالب التى تفرزها الطبيعة الفردية (البيوفيزيائية *Byophysical*) . ان المجتمع اذن يعتبر قوة خلقية متقدمة على الفرد ، فهو واقع نفسى اكثر ثراء وتعقيدا من أى فرد لأنه يستفيد من مساهمات كل اعضاءه . الا ان المجتمع يعتمد على وعى الأفراد لأنه لا يوجد الا اذا فكر فيه الأشخاص ، وبالتالي فانه يملك طابعا مزدوجا فهو مباطن ومتعال معا . انه يوجد لدى الفرد ولكنه فى نفس الوقت يتجاوزه . ان

(85) E. Durkheim. « Le dualisme de la nature humaine et ses conditions sociales » *Scientia* XV (1914) pp. 206 - 221., p. 216 Quited in Tiryakian op. cit. p. 49.

المجتمع هو الذى حرر الانسان من الطبيعة الحيوانية ، واعطاه الشخصية ،
وجعل منه انسانا اى كائنا اخلاقيا . وباختصار فان المجتمع هو الذى
جعل منا بشرا ، فان لم تكن اجتماعيين فمن المستحيل ان نكون
متحضرين (٨٦) .

لقد افرد دوركايم لعلم الاجتماع مكانة بارزة تفوق المجالات
الأخرى ، وهو يقول : « ان المجتمع اقوى شبكة من القوى المادية
والخلفية موجودة في الطبيعة . واننا لا نرى في اى مجال آخر مثل
هذا الثراء في المعطيات المختلفة بهذه الكثافة المرتفعة » (٨٧) وقد اعتبرت
هذه النظرة ميتافيزيقية وانعكاس لموقف كونت من علم الاجتماع حينما
افرد له مكانة رفيعة على اساس انه يدرس الظواهر الأكثر تعقيدا .

ويقوم التفسير في فكر دوركايم على مبادئ رئيسية ثلاث : انه تفسير
سببى يقوم على الوظيفة التى تؤديها الواقعة الاجتماعية ، وهذا يتأتى
بفضل الطبيعة القابلة للمقارنة التى تتميز بها العلوم الاجتماعية . وقد
قام دوركايم بنقد « قانون الحالات الثلاث » عند كونت لافتقاده الى
العلاقة السببية واعتبره قانونا تجريبيا او نظرة شاملة الى التاريخ
الماضى للجنس البشرى ، كما انه تساعل عن امكانية ظهور « حالة »
رابعة جديدة في المستقبل (٨٨) .

ويعتبر دوركايم ان اسباب الظواهر الاجتماعية داخلية بالنسبة
للمجتمع ، وعلى هذا الاساس رفض النظرية التى تجعل المجتمع يشق

(86) Tiryakian , op. cit. p. 64.

(87) E. Durkeim. Les formes élémentaires de la vie religieuse p. 637. Quoted in Tiryakian op. cit. p.

(88) Durkeim. Les règles de la méthode sociologique op. cit. p. 117.

من الفرد . ويأخذ عليها انها تبحث لايخراج الداخل الى الخارج لانها تفسر الكائن الاجتماعى بواسطة شيء آخر مختلف عنه ، فهي تحاول استنتاج الكل من الجزء (٨٩) ان تفسير الظاهرة الاجتماعية في رأى دوركايم تعنى البحث عن السبب وهذا يعنى البحث في الظواهر السابقة التى ادت اليها . وقد وجد دوركايم ان التفسير السببى هو خاصية كافة العلوم ولا بد بالتالى ان يكون ايضا الطريق الطبيعى لعلم الاجتماع .

وبعد التوصل الى السبب يحتاج التفسير الى البحث عن الوظيفة التى تؤديها الظاهرة الاجتماعية . وفي الواقع ان هذا الاتجاه لدى دوركايم كان مصدرا لكثير من الفزعات الوظيفية المعاصرة **Functionalism** في علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، ان دوركايم وجد استحالة فهم أى شكل من اشكال السلوك الاجتماعى من مجرد وصف شكله او استخدامه لأن هذا ينتهى بنا الى مجرد نظرية وصفية ذرية وهى القطب المقابل للتفسير . وما نحتاجه بالفعل هو تحديد وظيفة الواقعة في المجتمع . وقد اعطى كمثال على ذلك : العقوبة . وتسأل ما هو سبب العقوبة ؟ وقد تكون الاجابة المباشرة هى ان سببها الجريمة او العدوان المعين الذى نتجت عنه العقوبة . الا ان هذه الاجابة لا تنبئنا عن وظيفة العقوبة التى يلاحظ دوركايم انها لا تفهم الا في علاقتها ، ليس فقط بعدوان معين او عقوبة معينة ، وانما في علاقتها بنظام اجتماعى اوسع تعتبر العقوبة جزءا منه . ان وظيفة العقوبة بنائية ، اى انها تشارك في العمليات المؤثرة في تدعيم نظام اجتماعى معين . ان ما يؤكد عليه دوركايم هو ان معالجة طبيعة الواقعة الاجتماعية لا تكون تامة حتى نتوصل الى الوظيفة التى تلعبها ، آخذين في الاعتبار بقيقة المجتمع . وقد تكون الواقعة مبتذلة امام الوعى او لا عقلية او متطرفة في الخرافة ، الا ان هذا لا يمنع دراستها على شريطة ان تكون مستمرة

زمنيا . ولا يمكن فهم هذا الاستمرار الزمنى الا فى ضوء الوظيفة التى تلعبها الواقعة بالنسبة للأفراد المؤمنين بها أو الجماعة التى تقبلها . وبهذا الشكل بين دوركايم ان وظيفة الدين اجتماعية وليست فلسفية أو عقائدية أو كونية . وقد اعتبر مؤلفه « الاشكال الأولية للحياة الدينية » من أكثر أعماله اثارة لاهتمام الباحثين المعاصرين خاصة ما كتبه عن المظاهر الوظيفية للظواهر الاجتماعية (٩٠) .

وقد رأى دوركايم أن الطريقة الوحيدة للوصول الى فهم للعملية السببية فى أى علاقة ، هو من خلال مقارنتها بعمليات أخرى بواسطة علاقات معرفية ، هذه المقارنة تهدف أساسا الى التوصل ، من خلال الملاحظات المقارنة ومن خلال التحليل ، الى العوامل السببية أو الأساسية فى العملية الاجتماعية . ويشترط دوركايم على المقارنة ، لى تكون منهاجا علميا صالحا للدراسة ، أن تقوم بين ابنىة وعمليات أى « أنماط اجتماعية » أو أشكال السلوك بحيث يؤخذ فى الاعتبار كل من الوظيفة ، والمغزى السياقى ، والمعنى ، مثلما يؤخذ فى الاعتبار السلوك الواضح الصريح . فيقول دوركايم « تختلف الوقائع الاجتماعية باختلاف النسق الاجتماعى التى هى جزء منه ، ولا يمكن فهمها الا اذا فصلت عنه . لذلك لا يمكن مقارنة واقعيتين مختلفتين لمجرد أنهما تظهران متشابهتان ، فلا بد أن يكون المجتمعان أساسا يشبهان بعضهما البعض . ويكون المنهج مستحيلا اذا لم توجد الأنماط الاجتماعية ، ولا يمكن تطبيق هذا المنهج بنجاح الا من خلال نمط واحد » (٩١) .

ولا شك أن نزعة دوركايم الوضعية ، وأخذه بالتفكير العلمى ، مع ادخاله لمناهج جديدة فى الدراسة الاجتماعية قد ادى به الى وضع أسس

(90) Nisbet op. cit. p. 67, 68.

(91) E. Durkeim. *Elementary Forms of Religious Life*. Trans.

by Swain, J. W . Quoted in Nisbet Ibid. p. 69.

علمية للتفسير سبق بها المفكرين في عصره . وقد اثر دوركايم بشكل لم يسبق له مثيل في الاتجاه الفكرى والاجتماعى التالى له ونذكر منه الوضعيات المحدثة والوظيفية ، بالاضافة الى المدارس الفكرية الاخرى التى قامت لتعارضه .



خامسا : اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية ونظرتهما الى التفسير

قامت الاتجاهات الوضعية المعاصرة كامتداد لأعمال كل من صالح وبوانكاريه وفريجه وفنجشتين وميل وكونت ، وتشكلت في مدارس عديدة تتجمع حول مجموعة مبادئ اساسية . ولقد مرت الاتجاهات الوضعية المعاصرة في عدة تطورات بادئة من دائرة فينا مع الوضعية المنطقية المكونة من شليك وكارناب وويسمان وفيجل ونوراث وفرانك وفون ميزس وآخرين منتهية بالوضعية المحدثة او التجريبية المنطقية مع رايشنباخ وهوبل وناجل وبردجمان وآخرين .

ويتفاوت تأييد الاتجاهات الوضعية للمبادئ المشتركة التي تجمع بينها . فمنها ما يؤكد بصفة خاصة على النزعة الفيزيائية *Physicalism* التي ترد العلم الى تقارير تعبر عن وقائع قابلة للملاحظة بشكل مباشر . ومنها ما يؤكد على النزعة الذرائعية *Instrumentalism* التي تنظر الى الفكر باعتباره ذريعة او وسيلة للوصول الى الهدف . ومنها ما يؤكد على النزعة الطبيعية *naturalism* التي ترى ان العلوم الاجتماعية لها نفس اهداف ومتاهج العلوم الطبيعية .

ولا شك ان الوضعية موقف فلسفى من المعرفة الانسانية ، موقف يقوم على عدم مناقشة امثلة معينة مثل : كيف وصل الانسان الى

المعرفة ؟ أو ما هي الأسس النفسية والتاريخية للمعرفة ؟ وإنما هو موقف متمثل في مجموعة مبادئ ومعايير تقديرية تشير إلى المعرفة الانسانية . فهي تقوم بالتمييز بين المضامين الموجودة في تصوراتنا عن العالم ، فتركز على المضامين التي تستحق أن تسمى معرفة وتتيح معايير لمعرفة ما ينبغي أن يكون موضع السؤال . وهكذا تصل إلى الموضوعات الفلسفية والعلمية التي يجوز الخوض فيها والموضوعات التي لا تستحق ذلك . ومن هنا وجهت الوضعية نقدها إلى التأويلات الدينية للعالم وإلى الميتافيزيقا وذلك بهدف إقامة موقف تجريبي حر من الافتراضات الدينية والميتافيزيقية . وهكذا قام موقفها الفلسفي على رفض قيام أي نظرية أو فلسفة ، وعلى التأكيد على الحذر والدقة والوضوح ، وعلى تفضيل المسائل الممكنة الحل علميا والمفيدة عمليا ، وأخيرا على البعد عن أي اتجاه تأملی .

وتتجه الوضعية المحدثه إلى أخطر قرار لها وهو تحديد الفلسفة على مستوى اللغة ، فالعلم في رأيها يهتم بالأشياء الموجودة في العالم بما فيها الانسان ، والفلسفة تهتم باللغة التي يعبر عنها هذا العلم . ولقد زعموا - على حد قول د . الطويل - أن كل ما نستطيع معرفته عن العالم وعن الانسان ومكانه منه ، يمكننا أن نستقيه من العلوم الطبيعية التي تدرس الكون والعلوم الانسانية (الاجتماعية) التي تدرس الانسان ، وليس للفلسفة بعدهما مجال ! أنها مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقي للغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية أو يصطنعها العلماء في مباحثهم العلمية (٩٢) .

ويتمثل الجانب الوضعي من الفلسفة التحليلية في « التجريبية المنطقية » التي اعتبرها راسل أساسا هاما في المدرسة التحليلية . وهي

(٩٢) د . توفيق الطويل : اسس الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٥٩

تقوم على تطبيق واسع للمناهج الرياضية ، فقد كانت هناك قبل ذلك
فرقة تقليدية بين المنهج الرياضى للتثبت والمنهج التجريبي للبحث ، وقد
ادى هذا الى تصورين للمعرفة : احدهما الاتجاه العقلى ، والثانى
الاتجاه التجريبي . وقد حاول التجريبيون المنطقة التخلّص من هذا
التقسيم ، فهم يرون ان الخبرة *experience* هى الوسيلة الوحيدة
لمعرفة اى شئ عن العالم الواقعى . والرياضيات بذاتها لا يمكن ان تصف
العالم الا انها تتيح طريقة ضرورية للتفكير . ولقد تطور المنطق الصوري
فاصبح اداة ساهمت فى توسيع العلم التجريبي ، وذلك عن طريق التخلّص
من الموضوعات الزائفة مما جعله قادرا على حل المسائل الانطولوجية .
ومن هنا ساهم كل من المنطق والرياضيات فى فعالية الرموز اللغوية وفعالية
التفكير .

وتقوم الفلسفة التجريبية المنطقية على مجموعة من الأسس تتمثل
فى التالى :

أولا : هى اتجاه عقلى قائم على فكرة انه لا يمكن التوصل الى
معرفة فى العالم الا بالطريق المستخدمة فى العلوم الطبيعية والرياضيات .

ثانيا : انها تدعم النزعة الاسمية *nominalism* فى نظرية المعرفة ،
وفى نظرياتها عن المعنى وعن الموضوعات الرياضية وعن القيم . وتقوم
النزعة الاسمية على القول بانه من الخطأ ان نفترض ان اى استبصار
Insight مصاغ فى عبارات عامة يمكن له مدلولات اخرى خلاف
ما هو موجود فى الواقع . فنحن نعترف بوجود الأشياء عندما نجبرنا
الخبرة على القيام بذلك .

ثالثا : انها موقف معارض للميتافيزيقا على اساس ان التقارير
الميتافيزيقية لا تقبل متطلبات التحكم التجريبي والسبب فى ذلك كونها
تتعامل مع ظواهر خاصة ، ولا تتعامل مع العالم ككل ومن هنا عدم امكان
استخدام منهج معين للتأكد منها .

رابعاً : انها تتبنى الاتجاه العلمى Scientism اى انها تؤكد على الوحدة الضرورية للمنهج العلمى .

والاختلاف الحالى بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ليس الا نتيجة كون العلوم الاجتماعية لم تنضج بعد ، وهذا الوضع مؤقت ، ومن المنتظر فى المستقبل ان توضع العلوم الاجتماعية على صورة العلوم الطبيعية (٩٣) .

ويرى الوضعيون المناطقة ان المهمة الاولى للفلسفة هى تحليل التصورات والنظريات والمناهج فى مختلف فروع البحث العلمى ، مبتداه من المنطق والرياضيات مجتازة الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا الى علم النفس والعلوم الاجتماعية وعلم التاريخ . وقد بدا الاتجاه المسمى بالفيزيائى Physicalism على يد الوضعية المنطقية عندما نظرت الى كافة القضايا العلمية باعتبارها قابلة للترجمة الى لغة الفيزياء . وتميز نوراث Otto Neurath بين الوضعيين المناطقة باهتمامه الخاص بالعلوم الاجتماعية ، فقد كان عالم اجتماع واقتصاد ، وبالتالى تركزت اغلب كتاباته حول موضوعات ومناهج ونظريات اجتماعية ، بالاضافة الى اهتمامه بتاريخ العلوم الاجتماعية .

وقد رفض نوراث فكرة وجود اى اختلافات جوهرية بين العلوم الطبيعية من جهة والأنظمة الاجتماعية والتاريخية من جهة أخرى . فلا يوجد اختلاف بين موضوعات الدراسة لأن الأفراد من البشر وكذلك المجتمعات لا تزيد عن كونها انسقة فيزيائية Physical systems يقل او يزيد تعقدها . وقد قام نوراث بوضع قائمة من التعبيرات الخاصة بالعمليات العقلية التى قد تؤدي الى اخطاء ميتافيزيقية والى خلط مثل : عقل mind وعقلى mental ودافع motive ، ومعنى meaning واخرى مثل مادة matter وعلة ومعلول cause and effect

واقعة fact . وقد اعترض بشدة على القول بأن التقريرات statements تعبر عن وقائع واعتبر أن أفكار فنجشتين الأولى عن بناء تعبيرات القضايا التي تعكس الوقائع التي تلائمها ، اعتبرها أفكارا ميتافيزيقية . فقد رأى نوارث أن التقريرات النفسية والاجتماعية التي تحتوى تعبيرات عقلية إما أنها تمتلك معنا علميا أو موضوعيا أولا تمتلكه فإذا كانت بالفعل تمتلك هذا المعنى فإن من الممكن تغييرها واحلال تقريرات ذات طابع فيزيائى مكانها(٩٤) .

ودعى نوارث الى العلم الموحد unified science الذى لا تقوم بجانبه « فلسفة أو ميتافيزيقا » . ولن يكون هذا العلم الموحد انجازا لفرد أو افراد وانما لجيل بأكمله . ولا بد أن يكون فى مقدور كل قانون فى العلم الموحد أن يرتبط فى ظروف محددة مع القوانين الأخرى ، وذلك بقصد التوصل الى صياغات جديدة . وكل القوانين سواء كانت كيميائية أم متعلقة بعلم المناخ Climatological مثلا أو اجتماعية تمثل مكونات نسق ما هو العلم المحد(٩٥) .

ويذهب نوارث أبعد من ذلك فى نزعته الفيزيائية مطالبا بلغة موحدة ، أى لغة فيزيائية موحدة Physicalostic unitary language من أجل تكوين كافة التقريرات العلمية . واننا لنجد فى علم السلوك ، عند نوارث ، أن التقريرات المتعلقة بظواهر الوعى والعملياتان العقلية قد تركت مكانها

(94) C. G. Hempel, Logical positivism in the social Sciences. in The Legacy of Logical positivism, ed . by p. Achnistein, and S. F. barker, Baltimore : The John Hopkins Press 1969 pp. 162 - 209. p. 169 .

(95) O. Neurath . Sociology and Physicalism in Logical Positivism . ed. by A. J. Ayer, Glencoe. The Free Press 195 pp. 282 - 317 p. 283 , 4 .

لكل من تقارير الأحداث المحددة مكانياً وزمانياً مثل السلوك الواسع المدى *Macroscopic* (متضمناً لأفعال الحركة والكلام) ، وتقارير العمليات الفسيولوجية أو الفسيوكيميائية التى تحدث فى العقل وفى الجهاز العصبى . ويطالب نوارث باستبعاد التعبيرات العقلية أو الغائية أو أى تعبير غير فيزيائى . ويتمشى موقفه هذا مع تصوره للعلم باعتباره يهدف الى التنبؤ بأحداث جديدة قابلة للملاحظة استناداً الى تقارير عن ملاحظات متاحة . وبناء على هذا يرى نوارث اعادة صياغة كافة العلوم التجريبية فى لغة فيزيائية موحدة . فمثلاً علم النفس يتضمن نظريات هامة مثل النظرية الجش탈طية ونظرية التحليل النفسى ، والنظريات السلوكية الا ان وضعها الحالى لا يتيح المقارنة فيما بينها أو الاتحاد معا وذلك بسبب استخدام كل منها للغة مختلفة وغير قابلة للربط . فاذا امكن اعادة صياغة المعلومات التجريبية لهذه النظريات فى لغة فيزيائية موحدة فان ذلك سوف يؤدى الى تقوية النظريات ويمكنها من تطوير قدراتها التنبؤية (٩٦)

وقد اكد نوارث على امكانية التنبؤ بالظواهر الاجتماعية بطريقة لا تقل فاعلية عما هو موجود فى العلوم الأخرى . ويتم ذلك اذا استطعنا تسجيل مختلف الأنماط الثابتة للسلوك ثم الكشف عن الشروط التى تحدد ظهورها وانتشارها ثم انهيارها . ولن يتأثر هذا الا اذا رفضنا النظر الى العلوم الاجتماعية باعتبارها تتعامل مع اهداف أو غايات انسانية أو خبرات أو تطلعات أو شخصيات ، وإنما هى تتعامل فقط مع سلوك الأجسام البشرية *Human organisms* . ومن هنا فعلى هذه العلوم أن تستبعد كافة التصورات المرتبطة بالوعى وما يشق عنه وتقوم فقط بدراسة الاطرادات الملاحظة للسلوك الانسانى مؤكدة على العلاقات لاقابلة للقياس بين مختلف ابعاد السلوك (٩٧) .

(96) Hempel. op. cit. pp. 170 + 72.

(97) Kolakowski op. cit. p. 221 .

وقد شاب تصور نورات للنظام العلمى رنه برجماتية ذرائعية ،
فكثيرا ما ذكر التنبوء بالظواهر التجريبية فى كتاباته باعتباره الهدف
الاساسى للنظام العلمى ، مستبعدا كهدف فهم العالم فى حد ذاته . ولحرصه
على سلامة التنبوء اكد على اهمية دمج مختلف الأنظمة فى نسق واحد ،
فلكى تنبئ باحداث فريدة ، نحتاج الى تجميع معلومات مستقاة من
فروع عدة فى العلم التجريبي : الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، وكذلك
علم النفس وعلم الاجتماع (٩٨) .

وقد اتفقت آراء رودلف كارناب Rudolf Carnap مع الافكار
الرئيسية للاتجاه الفيزيائى كما تبلور لدى نورات ، الا انه عدل من هذه
الافكار لتمشى مع طابعه الفلسفى الخاص المتميز عن نورات . لقد
كان كارناب دقيقا فى صياغة افكاره الفلسفية وفى تقديم أدلة لتأكيدھا ،
لذا طالب بتعريف كافة التعبيرات العلمية بواسطة تعبيرات فيزيائية ،
وبترجمة كل الجمل العلمية الى جمل فيزيائية ، على أن يؤخذ فى الاعتبار
أن التعريفات والترجمات ليست قائمة فقط على حقائق منطقية أو تحليلية
وانما تقوم فى بعض نواحيها على قوانين تجريبية .

ثم عدل كارناب من آرائه بالنسبة للاتجاه الفيزيائى فجعل تعبيرات
العلم التجريبي ترتبط بمفردات لغة الفيزياء بواسطة جمل الرد
أو الاختزال reduction وليس بواسطة التعريفات . ثم تراجع
كارناب أكثر من ذلك عندما تنازل عن رد كل التقريرات أو القضايا
العلمية الى لغة الفيزياء . وقد أدى به هذا الى اضعاف الاتجاه الفيزيائى
وجعله قائما على مجرد رد التعبيرات العلمية الى تعبيرات الفيزياء
ثم الاكتفاء بردها الى محمولات الأشياء الملاحظة observational
thing predicates

(98) Hempel op. cit. p. 173.

(99) Ibid. p. 182, 3.

واعتبرت النزعة الفيزيائية أن الظواهر التي تفسر في ضوء القوانين البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية قابلة للتفسير في ضوء القوانين الفيزيائية وحدها . وهكذا توصلوا الى القول بإمكانية استنباط كافة القوانين البيولوجية والنفسية والاجتماعية من القوانين الفيزيائية - ان لم يكن هذا ممكنا الآن فسوف يتم في المستقبل . ويرى فيجل أننا لا نستطيع أن نكون جامدين بازاء هذا الموضوع ، فاذا كانت العلوم البيولوجية والنفسية والاجتماعية قد توصلت الى نظريات ناجحة في مجالها فليس علينا أن نفرض رد هذه النظريات في الوقت الحالى الى نظريات الفيزياء . الا أن علينا أن ندرك أن هناك أدلة تاريخية وتجريبية ونظرية تؤيد الاتجاه الفيزيائى ، بدليل الدراسات العديدة عن مستويات التفسير (مثل مستويات الوصف والقوانين التجريبية والنظريات) فى مختلف فروع العلم . وتكشف هذه المستويات عن اتجاه النظريات للتلاقى فى مخطط موحد Unitary scheme . والدليل على ذلك هو تحقيق قدر من الوحدة بين كل من الميكانيكا والفلك والسمعيات acoustics والديناميكا الحرارية Thermodynamics والبصريات optics والكهرباء المغناطيسية والكيمياء متمثلة فى نظريات النسبية والكم Quanta . وتبدو البيولوجيا من خلال الفيزياء البيولوجية ، وكل من البيوكيمياء وعلم النفس من خلال الفسيولوجيا متابعين لنفس الاتجاه ، وهو تحقيق قدر من الوحدة (١٠٠) .

واذا كانت الوضعية متمثلة فى الاتجاه الفيزيائى قد طالبت بوحدة اللغة ووحدة القوانين فان النتيجة الطبيعية لذلك هى القول بوحدة المنهج

(100) H. Feigl . Unity of Science and Unitary Science. in Readings in the Philosophy of Science, ed . by H. Feigl and M. Erodbeck, 1953 pp. 382 - 384, p. 383.

بين مختلف العلوم . وقد ظهر هذا الاتجاه ليعارض من يقولون باختلاف
الأنظمة العقلية والثقافية عن العلوم الطبيعية استنادا الى وجود اختلافات
اساسية بينها في المناهج اللازمة لتأكيد وتفسير الوقائع موضع الدراسة .
ان التجريبية المنطقية أو الوضعية المحدثة ترفض وجود مثل هذا الاختلاف
وترى ان تفسير الظواهر الاجتماعية لا يختلف عن تفسير الظواهر المادية

وقد شاب الفلسفة البراجماتية العملية جانبا وضعيا تمثل في الاتجاه
الذرائعى . فبدأ شارلز ساندروس بيرس (١٨٣٨ - ١٩١٤) بالتمييز بين
المسائل المصاغة بعناية والمسائل الخيالية ، وبين الاجابات ذات القيمة
والاجابات الخالية من القيمة ، وبين الموضوعات الواقعية والموضوعات
اللفظية . لقد بين بيرس في احدى مقالاته الهامة وهى « كيف نجعل افكارنا
واضحة » سنة ١٨٧٨ : ان العلم له قواعد منهجية مشتركة تتمثل في قواعد
الوضوح والنقد والقابلية للتثبت والموضوعية ويمكن للفلسفة ان تصل الى
مكانة العلم اذا تخلصت من التعبيرات التى لا معنى لها ، والموضوعات
المصاغة صياغة زائفة .

ان معنى أى تقرير نقبله - فى رأى بيرس - يكمن فى سلوكنا العملى
أو فى استعدادنا للسلوك بطريقة معينة . ولكى نجد معنا لهذا التقرير لا بد
أن نتساءل عما اذا كان هذا التقرير يؤثر على افعالنا وتوقعاتنا . ولكى
نصل الى ذلك يكفى ان ننظر الى النتائج العملية المترتبة على قبوله .
والهدف من هذا يكمن فى التوصل الى معيار يمكننا من التعامل مع
الموضوعات التى تحتل الاجابة ، وذلك بدلا من تبديد الجهود فى
موضوعات لا تستحق البحث وليس لها حلولا ، كما فعل البعض لقد
راى بيرس ان افضل معيار للتمييز بين الموضوعات الواقعية وغير الواقعية
يكمن فى التطبيق العملى Practical applicability (١٠١) .

لقد أراد بيرس باتجاهه الوضعى التخلص من القول بوجود اختلافات بين العالم كما نلاحظه وصفات ذلك العالم الذى يدعى البعض انها مخفية ، فالعالم فى نظره لا يحتوى على أسرار وانما على مشاكل قابلة للحل . أما القول بوجود اختلافات بين الظاهرة والجوهر ، بين المصفات التجريبية وطبيعة الأشياء فهى لا تزيد عن كونها تفرقة لفظية . والممارسة هى المحك للكشف عن الطابع الزائف لهذه التفرقة التى اذا اخذ بها فانها سوف تؤدى الى تدمير التفكير الانسانى بل والحياة نفسها وكذا عالم القيم . اذن يمكن النظر الى بيرس كرائد للنزعة العلمية scientiam . وهى النزعة التى ترى ان اى سؤال غير قابل للإجابة بواسطة مناهج العلوم الطبيعية والاستنباطية هو سؤال غير شرعى ، وكل اجابة على مثل هذا السؤال تفتقد ايضا إشرعية وأكثر من ذلك تكون خالية من المعنى (١٠٢) . ويمكن من هنا ان ندرك ان بيرس قد اعتبر العلوم الاجتماعية جزءا من العلم الطبيعى . ولما استحقت الدراسة :

وإذا كان بيرس قد وضع العلوم الطبيعية فى مكانة متميزة باعتبارها تقوم بالبحث عن الحقائق العلمية المستقلة عن ذواتنا ، فان وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) قد اعتبرها موجودة لتبرير التفسير البيولوجى للانسان ، ليس فقط فى وجوده المادى وانما ايضا فى سلوكه الفكرى ، وفى انجازه العلمى والمنطقى ، وفى داخل الضرورة البيولوجية . لذا قال بالنفع الذى يعود على أفعالنا من وراء حكم أو تقرير معين . وعلى حين رأى بيرس أن الأحكام والتقارير الصادقة تكشف عن صدقها بواسطة الأفعال الفعالة التى تفترض صدق الأحكام أو التقارير ، فقد أكد جيمس أن الشيء الصادق هو الذى يعود علينا بالنفع بطريقة ما ، وأى تصورات أخرى للحقيقة أو للصدق لا معنى لها . وقد أدى هذا الرأى بجيمس الى القول بأن الحقيقة لا تكمن فى اتساق تقريراتنا مع وضع

الأشياء وإنما في اتساق تقريراتنا مع الفائدة العائدة علينا إذا قبلنا هذه
التقريرات : وهذا هو التأويل البيولوجي . ويؤدي هذا المنهج الى النسبية
الشاملة ، فان حكما واحدا قد يصبح صادقا او كاذبا حسب الموقف الذي
يصاغ فيه . ان انعلم في نظر جيمس ليس مجموعة حقائق بالمعنى التقليدي
المتافيزيقي وهو ليس بمتعال ، وإنما هو عبارة عن مؤشرات عملية
يكون لها معنى اذا نفذت ، وتكون صادقة اذا ساهمت في تدعيم الحياة
ومضاعفة الطاقة وإتاحة الاشباع (١٠٣) .

وقد رأى ديوى (١٨٥٩ - ١٩٥٢) ان المنظور الذرائعى مفيد
بالنسبة لأفكارنا عن العالم وعن القيم وعن أنظمتنا الاجتماعية والسياسية :
ومعنى ذلك ان الأسئلة التى نثيرها ، قبل رفضنا او قبولنا لحكم
او تقرير ما ، هى أسئلة عن هدف بعض الأنشطة الاجتماعية . وبالتالي
فان احكامنا تنقسم الى احكام سليمة satisfactory واحكام غير
سليمة unsatisfactory وذلك بازاء الهدف المراد تحقيقه أى أنها
أما أن تؤيد الأفعال المؤدية الى هذا الهدف أو ترفضها . ويمثل هذا ،
الصدق والكذب بالمفهوم الذرائعى . الا ان اهتمام ديوى أنصب اساسا
على الحياة العامة وليس على الفرد ، ولذلك فقد أيد المعيار او المحك
المرتبط بالحاجة الجمعية الذى يتيح لنا التوصل الى معيار للاختيار
الجمعى .

ولم يرى ديوى أى اختلاف بين المعرفة والتقييم ، فالمعرفة ككل
ليست الا تقييما ، أى محاولة لاعطاء وصف « جيد » للواقع من وجهة
نظر السلوك العملى . ولما كان النفع فى نظره هو نفع اجتماعى فان
الصدق يصبح وسيلة أو ذريعة لتحقيق الفعل الاجتماعى وليس وسيلة
لبلوغ غاية الفرد (١٠٤) .

(103) Kolakowski op. cit. p. 190.

(104) Ibid. p. 188 - 189.

لقد حاول البرجماتيون مثل التجريبيين أن يربطوا التفكير في العالم بتصور الخبرة التى تسبق الكليات كلها . لذا قاموا باستبعاد الأسئلة التى لا اجابة لها . الا أن وليم جيمس كان يذهب أحيانا الى القول بوجود معلومات صادقة قد لا يكون لها وظيفة فى الوقت الذى توجد فيه وانما تستأهل الاحتفاظ بها لحين الانتفاع بها فى المستقبل . ولم يذهب أصحاب المذهب العملى الى القول بصدق الأحكام بناء على اختبارها بواسطة نجاح أو فشل التنبؤات كما يقول التجريبيون ، وانما اكتفوا باعتبار الحكم ذو معنى اذا استطعنا ان نفعل « شيئا » (١٠٥) .

وتضع الوضعية متمثلة فى الاتجاه الطبيعى *naturalism* مسلمات عن الواقع وعن المعرفة تنطبق على كافة العلوم . وتقوم المسلمة الأولى على أن المعلومات أو الخبرات التى تهتم الانسان تتكون فى استجابات الأجسام فى البيئة . وتقوم المسلمة الثانية على أن الرموز *symbols* تختار من أجل التعبير عن تلك الاستجابات ، وهى فى العادة لفظية . وتقوم المسلمة الثالثة على القول بأن تلك الرموز هى معلومات علمية متاحة امام كل معرفة وبالتالي لكل العلوم . وتقوم المسلمة الرابعة على أن كل قضايا أو مسلمات الوقائع الأساسية تتكون من استدلالات *inferences* ، وتعميمات *generalizations* وتجريدات *abstractions* مستنتجة من الرموز أو من الاستجابات التى تمثلها الرموز . وتقوم المسلمة الخامسة على أن هذه الاستنتاجات بدورها تمثل رمزيا ، وعلى أننا نستجيب لها كما نستجيب للظواهر الأخرى التى تستدعى السلوك (١٠٦) .

ومن هذا المنطلق وضع الطبيعيون مبادئ التفسير السليم ، وهو

(105) Ibid. p. 184.

(106) Lundberg op. cit. p. 40 - 41.

بيداً من ملاحظة الباحثين لما يحدث ، وإذا أمكن فإنهم يتحكمون تجريبياً للوصول الى ملاحظات أفضل للحدث موضع الدراسة . ويساعد هذا على صياغة النظريات التي تتيح التنبؤ بالأحداث المستقبلية . الا أنه لا يمكن التنبؤ أو التحكم الا اذا حدث فهم شامل للظاهرة موضع الدراسة . ويعنى هذا الفهم ادراك حدوث الظاهرة على أساس من القوانين والنظريات وتتميز التفسيرات العلمية فى انها لا تقبل على أساس من السلطة أو التقاليد ولا تقيم فى ضوء شعبيتها أو مكانة المؤيدين لها ، وانما تقبل ، حسب متطلبات العلم ، على أساس النفع البراجماتى أو العملى ، أى تأثيرها فى المساعدة على التنبؤ والتحكم . ان من خصائص التفسيرات العلمية ان دعواها تتجاوز المعلومات الملاحظة من قبل ، وهدفها هو التنبؤ بملاحظات لم تحدث من قبل أكثر منها وصفه لاحداث الماضى (١٠٧) .

ان الاختلافات المدعى وجودها بين طرق التفسير فى كل من العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية زائفة فيما يرى همبل C. G. Hempel ان تفسير حدث فردى فى العلوم الطبيعية يعنى تفسير تكرار حدوث خاصية معينة (مثل ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاض ضغط الدم . . . الح) وذلك فى مكان محدد وفى وقت معين أو فى خلال فترة زمنية معينة . وهذا التفسير لا يعنى مراعاة كافة الخصائص المتكررة للواقعة المحددة ولنسمها (ع) ، لاننا لو فسرنا كل المظاهر العامة للواقعة (ع) كان معنى ذلك هو تفسير كل واقعة فردية فى العالم سواء فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل . ولا شك أنه من المستحيل الحصول على هذا النوع من التفسير للحدث الواقعى فى « تفردة » سواء فى مجال علم الاجتماع أو فى مجال الفيزياء ، وحتى الوصول الى معناه الدقيق يمثل مشكلة . ومن هنا فإن ما ينبغى علينا أن نقوم به هو مجرد تفسير حدوث الخاصية

(107) Lundberg, G. A. Sociology. New York : Harper & Row

Publishers 1963, p. 47. .

المتكررة ولنطلق عليها (و) التى تصحّث للواقعة (ع) ، وذلك مهما كانت درجة تعقدها . ولكى نصل الى تفسير له معنى فى العلوم الاجتماعية ، فعليّنا - مثلا اذا كنا بصدد تفسير الرأسمالية الغربية - ان نقوم بما نفعله اذا كنا بصدد تفسير خسوف الشمس الذى حدث فى ١٨ مارس ١٩٥٨ .

ففى الحالّتين نجد بعض الخصائص - المشار اليها بالرمز (و) - تحتاج الى تفسير . وتتمثل هذه الخصائص بالنسبة لحالة كسوف الشمس فى شكل الكسوف ، ومدته ، وقابليته للرؤية ... الخ ، الا اننا يجب ان ننضع فى اعتبارنا وجود خصائص اخرى عديدة لا ننوئ الاهتمام بها (مثل عدد الصحف التى قامت بوصف الحدث) ، ويجب ان نلاحظ ان الخاصية (و) التى نقوم بتفسيرها لازالت فريدة بمعنى ان الواقعة (ع) لا تكرر . وحتى اذا كان فى مقدورنا ان نتصور وجود امثلة اخرى للخاصية (و) ، على الاقل من الناحية المنطقية ، الا ان هذه الامثلة لا تملك الموقع الزمانى ولا المكانى للواقعة (ع) (١٠٨) .

وياخذ همبل والوضعيون بالنموذج الاستنباطى للتفسير (١٠٩) ، المتمثل فى اعتبار الحدث الفريد الذى نقوم بتفسيره مستنتجا من مجموعة احداث اخرى واقعية سابقة او مصاحبة ، استنادا الى قوانين عامة او مبادئ نظرية . ومن ثم فقد نظر همبل الى « الانماط المثالية » Ideal types (١١٠) ، التى قدمها علماء آخرون من أجل تفسير

(108) C. G. Hempel . Aspects of Scientific Explanation . 1965 p. 163.

(١٠٩) تحدثنا بالتفصيل عن هذا النموذج فى الفصل الثانى من الرسالة .

(١١٠) عرفها همبل بأنها « نعاذج او انماط تكونت على اثر عزل بعض المظاهر الواقعية التجريبية المبالغ فيها . وهى تصورات حدية لا توجد لها امثلة مطابقة فى الواقع وانما قد توجد لها بعض الصور التقريبية » . المرجع السابق ، ص ١٦٠

الوقائع الاجتماعية ، باعتبارها انظمة نظرية محتوية على فروض عامة قابلة للاختبار . وقد حدد هبل مجموعة من القواعد للوصول الى هذه النتيجة وتتمثل في :

(ا) تحديد قائمة من الخصائص لتتعامل معها النظرية .

(ب) تكوين مجموعة من الفروض في ضوء تلك الخصائص .

(ج) اعطاء تلك الخصائص تأويلا تجريبيا يحدد للنظرية مجالا خاصا للتطبيق .

(د) ادخال النسق النظرى فى نظرية أكثر شمولاً باعتباره « حالة خاصة » . وتعتبر هذه القاعدة الأخيرة هدفا بعيد المدى (١١١)

وهكذا أمكن لهبل باعتباره فيلسوفا وضعيا استخدام للنماذج أو الأنماط المثالية كطريقة للتفسير فى العلوم الاجتماعية بعد أن جردها من محتواها الذاتى ثم طبق عليها منهجه العلمى .

وقد أرجع فيلسوف العلم ناجل Ernest Nagel الوضع المتأخر للتفسير فى العلوم الاجتماعية واعتماده الرئيسى على التعميمات الإحصائية ، أرجعه الى اللغة المستخدمة فى الدراسة والى تخلف الأساس النظرى ، أى النظرية . ان ناجل يرى ، على عكس ما هو شائع ، أن تعقد موضوع الدراما الاجتماعى وتدخل العامل الذاتى المتمثل فى الإرادة الإنسانية لا تمثل تبريرات كافية . وفى رأيه ان الاهتمام يجب أن يركز على تعديل العبارات المستخدمة فى الدراسة الاجتماعية التجريبية وتعديل النظرية . ان اللغة المستخدمة حاليا مأخوذة فى أغلب الأحيان من سياق الحياة اليومية الذى يدور حول مسائل اجتماعية ، ثم تستخدم هذه اللغة

في التعميمات التجريبية مع اعادة تعريف مبسط لمعناها . ويترتب على ذلك أن تكون العبارات المستخدمة في البحث الاجتماعي التجريبي محتوية على معان غير محددة . ومن هنا تنتهي الى تعميمات مكونة من أحكام ذات علاقات احصائية بدلا من أن تتكون من علاقات ثابتة ومترابطة Invariable relations of dependence . واقترح ناجل هو تطوير التصنيفات لتصبح أكثر تعبيرا عن الظاهرة الاجتماعية . وذلك بهدف اقامة قوانين اجتماعية عامة (١١٢) .

اما عن النظرية الاجتماعية فيرى ناجل أنه على الرغم من تغير وعدم ثبات الظواهر الاجتماعية الا انها من الممكن أن تتدرج تحت نظرية عامة . ويحذر ناجل من أن تكون هذه النظرية هي عبارة عن نظرية للتطور التاريخي تتتابع حسبها المجتمعات والأنظمة في سلسلة من التغيرات الحتمية . فمن الخطأ البحث عن نظرية اجتماعية عن طريق مجرد رصد لنمو الحضارات ثم انهيارها . وانما على النظرية الاجتماعية أن تكون مجردة تجريدا تاما حتى تستوعب كافة الاختلافات الحضارية في السلوك الانساني . ومن الضروري أيضا أن تبتعد تصوراتها عن الشيء المألوف وعن السمات البديهية في مجتمع ما ، وسوف تتضمن صياغتها استخداما لطرق متطورة ، اما عن طريقة تطبيقها على الأشياء الواقعية فتحتاج الى تدريب معين من طراز متقدم . وأهم شروط تكوين النظرية يتمثل في احتوائها على منهج لتقدير البداهة لا يعتمد على استبصارات ذاتية أو حدوس شخصية (١١٣) . ومن الطبيعي أن نجد أن ناجل في النهاية يؤكد على كون هذه النظرية الاجتماعية امتدادا لنظريات العلوم الطبيعية من حيث منهج صياغة التصورات أو تقدير البداهة ، فان ناجل يأخذ بالاتجاه الطبيعي في اطار فلسفة وضعية شاملة .

(112) Nagel. Structure of Science op . cit. pp. 506 - 8.

(113) E. Nagel, Problems of Concept and Theory Formation in the Social Sciences in Natanson op. cit. p. 209.

وقام بوبر (١٩٠٢ -) Karl popper باعتبارهِ فيلسوفا طبيعيا ، وأن كان تعرض بالنقد للموضعية كما سترى فيما بعد ، قام ببيان أن التفسير العلمى أو السببى لحادث معين هو استنباط قضية تصف هذا الحدث من نوعين من المقدمات : بعض القوانين الكلية ، وبعض القضايا المخصوصة أو المعينة التى يمكن أن نطلق عليها « الشروط الأولية المعينة » . ولا يقبل هذا التفسير العلمى من الوجهة العلمية الا اذا كانت القوانين الكلية قد حازت مرحلة الاختبار أو التأييد ، وكان لدينا ايضا بينه مستقلة تشهد بصدق العلة ، أى الشروط الأولية .

لقد طالب بوبر كما طالب كافة الوضعيين بوحدة المنهج بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، ولذا اهتم بالنظرية لأنه رأى أن عليهم مهام عديدة اهمها المساعدة فى توحيد العلم وفى تفسير الوقائع والتنبؤ بها . بل لقد خطى بوبر خطوة أخرى بدعوته الى التثبيت من النظريات فى مختلف مجالات البحث عن طريق اخضاعها لأقسى أنواع الاختبار ، فينبغى أن تحاول اكتشاف وجود النقص فيها ، وينبغى أن نحاول تكذيبها . وهذا هو السبب فى أن اكتشاف الشواهد المؤيدة للنظرية يكاد لا يكون له شأن الا اذا حاولنا اكتشاف ما يكذبها وفشلنا فى هذه المحاولة . ذلك أننا اذا لم نتخذ ازاء النظريات موقفا نقديا ، فسوف نعثر دائما على ما نريد : أى نتا سنبحث عما يؤيدها وسنجده ، سنصرف النظر عن كل ما يمكن أن يهدد النظريات التى نفضلها فلا تقع عليه ابصارنا ، وهكذا يسهل الحصول على ما يبدو لنا أنه بينة هائلة على صدق نظرياتنا ، ولو نظرنا الى هذه النظريات نظرة تقديرية ليتبين لنا كذبها . واذن فاذا اردنا أن نضمن البقاء للنظريات الصالحة وحدها فعلينا أن نجعل كفاحها من أجل الحياة عسيرا . كل ذلك لا يصدق على العلوم الطبيعية وحدها ، بل يصدق ايضا على العلوم الاجتماعية . بل أن عجزنا من رؤية الأشياء قبل التفكير فيها يكون أكثر وضوحا فى العلوم الاجتماعية منه فى العلوم الطبيعية . ذلك لأن معظم الأشياء

التي تدرسها العلوم الاجتماعية ، بل ان لم تكن كلها ، هي اشياء مجردة ، فهي مركبات نظرية . (ويصدق هذا الوصف على مفاهيم مثل « الحرب » أو « الجيش » ، فهما مفهومان مجردان ، وان بدا ذلك غريبا لبعض الناس ، اما العيني فهم الافراد الكثرين الذين يقتلون) . وهذه الاشياء او المركبات النظرية المستخدمة في تأويل التجربة ، قد نتجت عن تركيبنا للنماذج المعينة (وبخاصة نماذج النظم) بقصد الاستعانة بها في تفسير التجارب المعينة (١١٤) .

وقد ادرك بوبر انه لا توجد نظرية يمكن ان نقول عنها انها الحقيقة النهائية التي تفسر كل شيء ، فكل ما يمكن ان نقوله ان الملاحظات التي نجربها تؤيد النظرية وانها تعطى تنبؤات درجة دقتها مرتفعة . وتظل النظرية قابلة لأن تحل محلها نظرية افضل اذا توفرت (١١٥) . ان النظرية الاصلية تضع نفسها دائما محل مخاطرة ، والتكذيب Falsifiability هو معيار التمييز Criterion of demarcation بين العلم وما ليس كذلك .

وفي الواقع ان موقف بوبر من التفسير في العلوم الاجتماعية يعد تطويرا للاتجاه المنطقي ، فعلى الرغم من تأكيديه على ضرورة استخدام النموذج الاستنباطي في التفسيرات العلمية بما فيها التفسيرات الاجتماعية ، فانه لم يجد تعارضا في القول ببناء نماذج لتفسيرات العلوم الاجتماعية اطلق عليها « المنهج الصفري » Zero Method ويتكوّن ما يسمى « منطق الموقف » في تفسيرات التاريخ .

(١١٤) كارل بوبر : عقم المذهب التاريخي : ترجمة د . عبد الحميد

صبره ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٢ ، ص ١٦٤

(115) B. Magee, K. Popper . Glasgow : William Collins Sons and Co. 1975 p. 28 .

وقد قام « المنهج الصفرى » على فكرة بوير بأنه يوجد فى معظم المواقف الاجتماعية ، ان لم يكن فيها كلها ، عنصر عقلى . نعم ان الناس يكادوا لا يعملون قط بما يطابق العقل تمام المطابقة ، ولكنهم مع ذلك يعملون بما يتفق والعقل فى كثير أو قليل ، وهذا من شأنه ان يمكننا من تركيب نماذج بسيطة نسبيا تمثل افعالهم وتفاعلتهم ، وهذه النماذج يمكن استخدامها بوصفها صورا تقريبية للواقع . لقد وجد بوير أننا نستطيع فى العلوم الاجتماعية ان نستخدم منهاجا يمكن تسميته بمنهج التركيب المنطقى أو العقلى ، أو « المنهج الصفرى » . وهو منهج يقوم على تركيب النماذج بناء على افتراضا المعقولة التامة (وربما افترضنا ايضا المعرفة التامة) فى جانب كل الأفراد الذى يحتويهم موقف معين ، ثم نقدر انحراف السلوك الفعلى لهؤلاء الأفراد عن سلوك النموذج ، باعتبار هذا السلوك احداثيا قيمته صفر . ومن امثلة المنهج المقارنة بين سلوك الناس الفعلى (الخاضع ، مثلا لتأثير الأحكام السابقة الموروثة ، وما الى ذلك) وبين السلوك النموذجى الذى نتوقعه بناء على « منطق الاختيار البحث » كما تصفه المعادلات الاقتصادية (١١٦) .

وقد ذهب بوير الى التمييز بين العلوم التعميمية كالعلوم الطبيعية وعلوم الاجتماع من ناحية وبين التاريخ من ناحية اخرى ، ففى مجال التاريخ نجد انفسنا بازاء « موضوع دراسة محدد » . والتفسير التاريخى - فى رايه - لا يستخدم كثيرا القوانين الاجتماعية والنفسية بقدر استخدامه « لمنطق الموقف » . وهذا يعنى انه يفترض بجلاء ، بجانب الشروط الاولى التى تصف الاهتمامات الشخصية كالأهداف والعوامل الأخرى الموقفية مثل المعلومات المتاحة للدارس ، يفترض نوعا من التقريب الأولى ، أى القانون العام البسيط الذى يقوم على القول

بان الشخص السوى ، كقاعدة ، يتصرف بطريقة عقلية الى حد ما (١٥٧) .

واذا كان الوضعيون قد اتفقوا على ان النموذج الاستنباطى هو الشكل السليم للتفسير فى كافة العلوم كما اكدوا على اهمية النظرية الاجتماعية ، الا ان آرائهم تعددت حول القضايا العامة التى تفسر الظواهر فى ضوءها ، هل هى قضايا اجتماعية ام نفسية ؟ لقد رأى هومنز Georges Homans اننا لا نستطيع ان نفر كل شىء ، لاننا لا نستطيع الحصول على معلومات كافية عن الظروف المحددة التى تطبق القضايا العامة فى ضوءها . وكل ما فى الامر هو اننا حين اننا نفر (سواء فى التاريخ ، او فى الاقتصاد او فى علم الاجتماع) فان مبادئنا العامة تبدو على شكل نفسى . لقد قال هومنز بمبدأ « الفردية المنهجية Methodological individualism » ، وهو مبدأ يقوم على القول بان العالم مكون من افراد تتحرك فى ضوء استعداداتها وفهمها للموقف . وكل موقف اجتماعى معقد أو نظام أو حدث ليس الا نتيجة لشكل أو وضع معين للأفراد ، واستعداداتهم ، ومواقفهم ، ومعتقداتهم ، وامكانياتهم المادية وأخيرا بيئتهم (١١٨) . وقد اعتبر هومنز ان القضايا الأساسية للعلوم الاجتماعية كلها واحدة وهى نفسية ، فاذا قبلنا هذا الرأى - على حد قوله - فسوف نجد ان النتائج التى توصلنا اليها فى كل علم على حدة ، من خلال مناقشة هذا العلم لمشكلته الخاصة ، تساهم فى حل مشاكل العلوم الأخرى (١١٩) .

وقد اختلف بوير مع رأى هومنز لأنه رأى مبدأ الفردية المنهجية ومبدأ المنهج الصفري فى تركيب النماذج النظرية لا يستلزمان اتباع أى

(117) K. Popper . The Open Society and its Ennemies, Vol. II, London : Routledge and Kegan Paul 1962, p. 464.

(118) Homans, G. op. cit. p. 61.

(119) Ibid. p. 23 .

منهج نفسى ، فعلم النفس والعلوم الاجتماعية الاخرى مستقلون ، كل بموضوعه المتمثل فى نوع معين من الوقائع التى تحتاج الى مجموعات مختلفة من التقارير العامة من اجل تفسيرها . وعلى هذا الاساس تكون العلوم الاجتماعية متحررة نسبيا من الاعتماد على الفروض النفسية ، وعلم النفس واحد من العلوم الاجتماعية وليس اساسا لها . وقد رأى بوير أن المذهب المعارض الذى يقول برد النظريات الاجتماعية الى علم النفس على نحو ما نحاول رد الكيمياء الى علم الطبيعة انما هو مذهب يركز على فهم خاطيء . وفى استطاعتنا ان نقبل المذهب الفردى دون ان يضطرنا ذلك الى قبول المذهب النفسى (١٢٠) .

وهناك رأى ثالث يرفض كل من التقسيم والرد ويقول بعلاقة اعتماد متبادل بين القضايا النفسية والقضايا الاجتماعية . فالأنظمة الاجتماعية ، مثلا ، من الممكن ان تفسر اما فى ضوء أنظمة اجتماعية اخرى بالتوافق مع القوانين الاجتماعية ، او تفسر فى ضوء افعال فردية بالتوافق مع القوانين الخاصة بتفاعل الأفراد . كما سوف توجد عوامل اجتماعية وعوامل نفسية فى تفسير الأنظمة ، تماما مثلما توجد فى تفسير افعال الأفراد (١٢١) .

وتعتبر المدرسة السلوكية Behaviorism فرعا من الاتجاه الوضعى فى مجال علم النفس . ويقوم هذا الاتجاه على الاعتقاد فى ان البحث النفسى والاجتماعى يعتمد فى وصفه وتفسيره على الوقائع الملاحظة ، وبالتالي على السلوك المادى للموضوعات التى يقوم بدراستها . وعلى هذا الاساس رفض السلوكيون منهج الاستبطان ، القائم على ملاحظة

(١٢٠) بوير : مرجع سابق ، ص ١٨٧

(121) Q. Gibson. The Logic of Social Inquiry . London : Routledge and Kegan Paul, 1960. p. 105.

الذات ، الذى ظل يحتل مكانة مرموقة فى علم النفس التقليدى فترة طويلة ، باعتباره غير علمى ونتائجه لا تخضع للاختبار . وفى مواجهة ادعاء المؤيدين للاستبطان بأن السلوك البشرى لا يمكن فهمه اذا نظر الى البشر باعتبارهم موضوعات طبيعية ، اكد السلوكيون على ان منهجهم يقوم على الخبرة وحدها . ولذا قاموا ببيان فساد منهج الاستبطان . فهذا المنهج يقوم على سؤال العميل عن تجاربه فى مواقف تجريبية ثم تؤخذ استجاباته على انها معلومات . وتقع هذه الطريقة - فى نظر السلوكيين - فى اخطاء . فعندما يفكر الفرد (العميل) فى سلوكه فلا بد له ان « يعقلها » ، وبالتالي يحرفها . ويختلف نوع التحريف مع نوع الخبرة ، ومع التوازن الشخصى للعميل ، ومع شروط البيئة . وينتج عن هذا ان تكون التنبؤات عن سلوك الأفراد استنادا الى ما يقولونه عن انفسهم ، تكون فى العادة غير دقيقة (١٢٢) . وما دامت هذه التنبؤات غير قابلة للتحقق الذاتى ، فقد توصل السلوكيون الى ان العلم القائم على الاستبطان ليس علما حقيقيا ، لأن من شروط القضايا العلمية ان تكون ممكنة الاثبات . وقد أثبتت الخبرة ان الملاحظة المنظمة لسلوك الحيوانات والأطفال فى ضوء مجموعة فروض بيولوجية وفسولوجية تؤدي بنا الى تنبؤات للسلوك ممكن الاعتماد عليها . ويفضل هذا على مجرد سؤال الأفراد عن تحاربهم الخاصة .

ويرجع اتجاه علم النفس الى المنهج السلوكى الى تاثره بالتطور الداروينى فى البيولوجيا ، والى التفسيرات السببية الخاصة بتطور الأجسام فى علاقتها بالبيئة . وقد حاول السلوكيون ابتداء من واطسن واستمرارا مع نيل ميلر ، وسبنسر ، وتولمان ، وسكينر وغيرهم تغيير علم النفس وجعله فرعاً من العلم الطبيعى . وقد أيد هذه الحركة ودعها

(122) F. Kaufman. Methodology of the Social Sciences. New York : The Humanity Press 1938, p. 149.

بعض الفلاسفة المنطقيين أمثال كارناب وهمبل - في بداية انتاجهم
الفكرى - بواسطة مبررات فلسفية ومنهجية .

ان اعتماد المنهج السلوكى على الملاحظة وحدها في دراسة السلوك
ادى به الى استبعاد الخبرات الداخلية للانسان باعتبارها ذاتية وخالية
من المعنى ، ولذا تخلصوا من فئة « الوعى أو الشعور » *consciousness*
لغموضه وعدم قابليته للملاحظة . وقد رأى سكينر ان من المقبول ، في
المنهج العلمى ، كمبدأ عام ، تدخل الباحث بدرجة معينة في الظاهرة
اثناء ملاحظتها . وقد ينتج عن هذا التدخل تأثيرا على السلوك
فلا بد للباحث ان يأخذ هذا التأثير في الاعتبار ويحاول بقدر الامكان
الحد منه .

ويرى سكينر ان هناك تحكم في الشروط والظروف المتعلقة بالسلوك
البشرى في الصناعة على شكل مرتبات وظروف عمل ، وفي المدارس
على شكل درجات وظروف عمل ، وفي التجارة بواسطة اى شخص يملك
البضاعة او النقود ، وفي العيادة النفسية على شكل موافقة الشخص
الخاضع لعملية التحكم . هناك اذن في العلوم الاجتماعية نسبة من التحكم
الفعال لا يمكن كشفها بسهولة تكمن في الكتاب والقائمين على اوجه
الترفيه ورجال الاعلام والاعلان . هذه الامكانية على التحكم تسمح
بامتداد نتائج العلم المعملى ليشمل تفسير السلوك البشرى (١٢٣) .

ويبين سكينر خطأ النظر الى داخل الكائن للبحث عن تفسير للسلوك
لان هذا يؤدي الى حجب المتغيرات . وهذه المتغيرات توجد خارج
الكائن ، في المحيط المباشر وفي التاريخ المحيط . وهى تملك كيانا واقعيا
يسمح بتطبيق الوسائل العلمية عليها مما يجعلها قادرة على تفسير

(123) B. F. Skinner. Is a Science of Human Behaviour Possible?
in *Philosophical Problems of the Social Sciences* ed. by Brodbeck,
D. 1965, pp. 19 - 26, pp - 25 - 26 .

السلوك . ويضرب سكينر مثالا على فساد النظر الى الحالات او العوامل الداخلية من أجل تفسير السلوك : اذا قلنا ان شخصا ما يشرب الماء لشعوره بالظما وكان معنى الظما هو الميل الى الشراب فان هذا يعتبر تحصيل حاصل ، اما اذا قلنا انه يشرب بسبب حالة الشعور بالعطش فان هذا يعتبر اثارة لحادث سببي داخلي . فاذا كانت هذه الحالة الأخيرة استدلالية بحته أى لم يكن هناك وسائل تجعل الملاحظة المباشرة ممكنة فان هذا السبب لا يصلح كتفسير . اما اذا كانت هناك خصائص فيسيولوجية او نفسية *Psychic* فاننا نمضى الى السؤال : ما هو الدور الذى من الممكن ان تلعبه فى علم السلوك (١٢٤) ؟ وهكذا يقوم سكينر وغيره من السلوكيين باستبعاد كافة التفسيرات الداخلية ليستبقى فقط التفسيرات السببية الخارجية القائمة على الملاحظة المباشرة والتجربة المحدودة بأزاء السلوك الخارجى الظاهر ، وهكذا أصبح من الممكن تكوين مبادئ مفسره للأفعال الهادفة بواسطة عبارات سلوكية خالصة غير استبطانية .

ويطلق بوبر على هذا المنهج اسم المنهج الفرضى الاستنباطى *hypotical deductive method* او منهج الفروض . وهو ذلك المنهج القائم على تقديم تفسيرات استنباطية سببية واختبارها عن طريق التنبؤ . والسبب فى وصف هذا المنهج بأنه فرضى يرجع الى انه لا يقدم يقينا بالنسبة للأحكام العلمية التى يقوم باختبارها ، وانما تحتفظ هذه الأحكام دائما بالطابع الفرضى الخاضع للمحاولات على الرغم من ان المحاولات قد تتوقف بعد عديد من الاختبارات الصعبة (١٢٥) .

(124) B. F. Skinner. The Scheme of Behaviour explanations in Braybrook (ed.) op. cit. p. 44 .

(125) K. Popper. Unity of Method in the Natural and social Sciences in Braybrook (ed .) op. cit. p. 33 .

وقد مال بعض السلوكيين الى القطرف عندما رفضوا وجود ظواهر عقلية على الاطلاق ، فكانوا بذلك قريبين من الفطرة المادية (١٢٦) .

فلم يقنع هؤلاء بتبنى المنهج الطبيعى فى علم النفس وانما مضوا الى القول بان مهمة علم النفس تتمثل فى دراسة السلوك الانسانى والحيوانى بدون النظر الى الحالات العقلية « الخاصة » ولو حتى كفروض تقع خلف المثيرات والاستجابات الملاحظة ، وقد برروا هذا الراى عن طريق انكار وجود اى موضوع « خاص » بعلم النفس وحده . هذا الشكل من السلوكية وتسمى السلوكية المختزلة reductive behaviorism ليست الا وجه آخر للمادية القديمة : فلا يوجد ما يسمى بالوعى او الشعور وانما كل ما هنالك سلوك ، وميول للاستجابة على نحو معين تجاه مثيرات معينة ، واخيرا عمليات عقلية - فسيولوجية داخل الجسم الانسانى والحيوانى . انهم لم ينكروا بالطبع الاختلاف اللفظى بين عقلى Mental ومادى physical الا انهم راوا ان العمليات والحالات العقلية ليست الا انواعا خاصة من العمليات والحالات المادية . ويسعى اغلب مؤيدى هذا الاتجاه الى تطوير نظريات تتضمن تعبيرات تشير الى حالات او عمليات فيزيائية او كيميائية او فسيولوجية . وهكذا يستبعدون النظريات النفسية التى ترمى الى تفسير السلوك الظاهر عن طريق الاشارة الى احداث « عقلية » - مثلا النظريات التى تجعل الميول « الذاتية » او الاهداف سببا للسلوك . وبهذا الشكل تكون السلوكية عبارة عن برنامج للبحث النظرى والتجريبى ، هدفه تحقيق نسق مدرك من أجل

(126) H. Feigl. Comparative Methodology of the Natural and the Social Sciences in Philosophy by R.M. Chisholm, H. Feigl, and W. K. Frankana, & others. New Jersey : Prentice Hall 1964, p . 523 .

تفسير السلوك الانساني عن طريق « رد » علم النفس الى علوم
اخرى (١٢٢) .

سادسا : نظرية نقدية الى اتجاه الوضعيات المحدثه والسلوكية

مما لا شك فيه ان اعجاب الوضعيين بالطرفة التى حدثت فى العلوم
الطبيعية كان له ابلغ الاثر عليهم مما ادى بهم الى اصفاء مكانة خاصة
على مناهج تلك العلوم . ومن هنا طالبوا بمنهج علمى واحد مشترك
بين كل العلوم بما فيها العلوم الاجتماعية . كما وضعوا العلوم الطبيعية
الدقيقة خاصة الفيزياء والرياضة كمثال اعلى منهجى يقيس درجة التطور
فى كل العلوم . واخيرا فقد اعتبروا كافة التفسيرات العلمية سببية او عليّة
متمثلة فى خضوع الحالات الفردية تحت قوانين عامة مفترضة للطبيعة .

وفى الواقع ان المدرسة الوضعية تعرضت لتيار نقدى لم يسبق له
مثيل فى تاريخ الفكر الانساني ، وقد تراوح هذا النقد بين التأييد
والمعارضة . ولا شك ان للوضعية جانبا ايجابيا تمثل فى رفض المسائل
الخطئة ، والنظر الى الظواهر ودراستها كموضوعات محايدة محكومة
بواسطة قوانين عامة صادقة ، وذلك عن طريق دراسة الوقائع الموضوعية
على غرار ما هو متبع فى العالم الطبيعى وفى ضوء الضرورة الموضوعية .
لقد قامت الوضعية بشكل عام بتوجيه الفكر نحو موضوعات واقعية والارتقاء
بدور التجربة فى المعرفة . ومما لا شك فيه ان الوضعية قامت بتحطيم
كثير من الخيالات اللاهوتية والميتافيزيقية وساعدت على تقدم التفكير ،
خاصة فى مجال العلوم الطبيعية (١٢٨) .

(127) Nagel. Structure of Science op. cit. p. 480.

(128) P. Marcus . Reason and Revolution . London : Routledge
and Kegan Paul 1955 p. 326 .

وقد تعرضت الوضعية للنقد من الداخل ومن الخارج . فمن داخلها قام بوير بشن هجوم شديد عليها لدرجة أن كثير من فلاسفة العلم والعلماء اعتبروه خارج اطار الاتجاه الوضعى بل وأكثر من ذلك معارضا له (١٢٩) . وقد هاجم معيار التثبت لدى الفلاسفة الوضعيين ، فبهدف استبعاد الميتافيزيقا قام الوضعيون بايجاد مبدأ للتمييز *criteria of demarcation* بين التقريرات التى تخبرنا بشئ والتقريرات التى لا تفعل ذلك . وانتهوا الى نوعين من القضايا :

الأولى : خاصة بالمنطق والرياضيات ، وهى لا تعطى أى معلومات عن العلم التجريبي ، ويمكن الاقرار بصحتها دون الرجوع الى الخبرة .
والثانية : تقريرات تعطى معلومات عن العالم التجريبي ويمكن التثبت منها عن طريق الملاحظة .

وقد اقام بوير هجومه استنادا الى مجموعة من الحجج :

أولا : رأى بوير ان التقريرات المفردة يجوز التثبت منها ، أما التقريرات العامة فهى مثل القوانين العلمية ليست قابلة للتثبت ، وبالتالي فان معيار التمييز يقوم بهذا الشكل باستبعاد ليس فقط الميتافيزيقا ولكن أيضا كل العلم الطبيعى .

ثانيا : ان مبدأ التثبت أدان الميتافيزيقا كلها باعتبارها غير ذات معنى ، بينما نتبين تاريخيا أن العلم قد نشأ من الميتافيزيقا ، من التصورات الخرافية والاسطورية والدينية . والفكرة غير القابلة للاختبار

(١٢٩) وفي الواقع اثنا فى هذه الدراسة نظرنا الى الفيلسوف كارل

بوير باعتباره امتدادا متطورا للاتجاه الوضعى فى شكله الطبيعى *naturalism* .

حاليا وتعتبر ميتافيزيقية قد تصبح قابلة للاختبار وتصبح علمية حينما تتغير الظروف الموجودة . وحتى في حالة عدم خضوع هذه النظريات للاختبار فانها تظل قابلة للمناقشة والمفاضلة فيما بينها .

ثالثا : اذا قلنا مع الوضعية أن التوكيدات القابلة للاختبار ، والتي هي تحصيل حاصل ، تعتبر وحدها ذات المعنى ، فان أى مناقشة عن تصور « المعنى meaning » لا بد بالتالى أن تحوى تقارير لا معنى لها (١٢٠) .

لذا قال بوير بوجود عوالم ثلاث : الأول موضوعى ، وهو خاص بالأشياء المادية ، والثانى ذاتى ، وهو مكون من العقول minds والثالث مكون من أبنية موضوعية ، وهذه الأبنية وإن كانت نتاج للعقول والكائنات الحية إلا أنها تستمر مع ذلك مستقلة عنها . ويعتبر هذا العالم الثالث هو عالم الأفكار ، والفن ، والعلم ، واللغة ، والأخلاق ، والأنظمة (١٣١) .

ويرى النقاد أن العلم الاجتماعى الوضعى لم يتجاوز المرحلة التخطيطية ، حقيقة أن الوضعيين اهتموا باللغة وقدموا دراسات قيمة عن لغة العلوم الاجتماعية ، ولكن هذا الاتجاه ، وإن كان هاما لكونه يتيح أدوات للدراسات الانسانية ، إلا أنه لا يتضمن تطبيقا لتلك الأدوات (١٣٢) . وحقيقة أنهم حددوا المهام العلمية للنظرية في التفسير الاجتماعى ، إلا أن تركيزهم أنصب على النظرية بشكل عام ، فلم تتحدد بالنسبة للموضوعات الخاصة بالعلوم الاجتماعية . لقد كان منطلقهم الأساسى هو اشتراك مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية في نفس

(130) Magee op. cit. p. 47 - 48 .

(131) Ibid p. 80.

(132) Kolakowski , op. cit. p. 223 .

المنهج ، وبالتالي لم يروا ضرورة لمناقشة النظرية الاجتماعية بمعزل عن النظرية الفيزيائية : فما يقال عن الأخيرة ينطبق بطريقة بعمدية على الأولى . ولما كانت نظريات العلوم الفيزيائية أكثر تطورا أو تعقيدا من نظريات العلوم الاجتماعية فإن مناقشة طبيعة النظرية تتركز فيما يعتقدون على النظرية الفيزيائية . وإذا تناولوا النظرية الاجتماعية بالنقاش على حدة فلمجرد بيان عيوبها في ضوء المثل الأعلى الطبيعي ، وذلك بدلا من مناقشتها في سياقها الخاص .

وفي محاولة الوضعيين لكى يصبحوا علميين تبنوا كافة أساليب البحث العلمية وأدعوا صلاحيتها لدراسة السلوك الانساني . ومن هنا استخدامهم للملاحظة والتجربة والطرق الاحصائية ، كأدوات رئيسية في متناول الباحث . الا ان الاعتماد الكامل على المعطيات *data* كمصدر للمعرفة يؤدي الى افقارها ، اما عن عدد الفروض التي سوف يكون على الباحث اختبارها فلن يتوقف عند حدود معينة . ويضاف الى ذلك صعوبة اجراء التجربة في المجال البشرى . ذلك ان الشخص الذى تجرى عليه التجربة (المستجيب) يقوم بدوره بتصميم للتجربة مثله في ذلك مثل الشخص القائم عليها تماما ، بحيث نجد ان كل محاولة تجريبية تصبح فريدة . فيؤدي ذلك بالتالى الى استبعاد الطرق الاحصائية المقننة . واذا حاول القائم على التجربة ان يمنع المستجيبين من وضع تصوراتهم الخاصة فان الموقف يصبح غير صالح للدراسة ، ذلك ان الباحث لم يعد يطبق تجربته على بشر ، لانه يتدخله في الموقف استبعاد العنصر الانساني تماما (١٣٣) .

وفي الواقع ان المنظور الوضعي قد اغفل جانبا هاما في الدراسات

(133) C. W. Churan. On the Unification of the Social Sciences . Proceedings of the Fourth International Conference on the Unity of the Sciences. 1975 New ork pp. 101 - 110 , p. 102.

الانسانية هو موضوع التفاعل . فنلاحظ ان الطريقة التجريبية في البحوث الاجتماعية والنفسية قد أدت الى ترك مسائل هامة في قيمتها بالنسبة لفهم النشاط الاجتماعى وتوجيهه . ومن هذه المسائل جانب العمليات الاجتماعية والنفسية التى تحدث حين يتم تغير كى او كى فى ظاهرة اجتماعية ، او حين تقوم علاقات بين متغيرات فى مواقف اجتماعية .

واذا كان المنهج العلمى فى العلوم الطبيعية يقنع بايجاد علاقات فى صورة قوانين معينة ، دون اهتمام بما يتم اثناء تفاعل هذه العلاقات ، فان ذلك من الامور الجوهرية فى العلوم الاجتماعية . . كيف تحدث العلاقات ، وكيف يتم التغير ، وما هى العمليات التى جرت حتى حدث ما حدث ؟ هذه امثلة جوهرية فى الدراسات الاجتماعية والنفسية وتمثل عمليات النسيج الاجتماعى والصياغة النفسية لخامات الحياة (١٣٤) .

وقد هاجم فيلسوف العلم ونش Peter Winch الاتجاه الطبيعى . فعلى حين قبل النظرة الوضعية للعلم الطبيعى بشكل عام والفيزياء بشكل خاص فى القرن ١٩ ، فانه رأى على العكس ان تفسيرات الأفعال الانسانية لا يمكن أن تكون آلية او ميكانيكية ، كما انه لا توجد قوانين حتمية للأفعال الانسانية او لنتائجها (وهى الأنشطة الابداعية) نستطيع عن طريقها التنبؤ بهذه الأفعال (١٣٥) .

الا ان نقد ونش للوضعية يغفل اتجاه كثير من التجريبيين المنطقيين والطبيعيين الى ادخال العوامل الانسانية كالأهداف والدوافع النفسية ، وان لم يجعلوها وحدها العوامل الرئيسية - فى التفسيرات الاجتماعية .

(١٣٤) حامد عمار : المنهج العلمى فى دراسة المجتمع (وصفه و حدوده) القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(135) P. Winch. The Idea of a Social Science. Quoted in Geidymin op. cit. p. 245.

ولقد رأينا كيف أن بوهر بقوله « بالمنهج الصفرى » فى العلوم الاجتماعية و « بمنطق الموقف » فى التاريخ قد أدخل أهداف الفرد فى التفسير . وذلك مع تأكيدده على النموذج الاستنباطى وجرحه على بيان أن الظواهر الاجتماعية لا تفسر كلها فى ضوء الأهداف والدوافع والميول .

وكما تعرضت المدرسة الوضعية للهجوم كان من الطبيعى أن تتعرض المدرسة السلوكية للنقد . فعلم النفس السلوكى وإن كان قد نجح فى كشف قوانين سببية واحصائية عن السلوك الإنسانى والحيوانى إلا أن اغفاله للحالات الواقعية التى قام الاستيطان يكشفها ، بحجة أن الأجسام وحدها هى محدّدات السلوك الصريح ، ليس له أى مبرر فلسفى .

والسلوكية باعتبارها نظاما موضوعيا هاما فى العلوم الاجتماعية تضع كهدف رئيسى تفسير ما يحدث بالفعل فى العالم الاجتماعى لحياتنا اليومية ، تفسيراً يقوم على طرق علمية صحيحة . إلا أن عيب هذه النظرية تظهر فى إحلال عالم خيالى مكان الحقيقة الاجتماعية وذلك عن طريق تطبيق مبادئ منهجية على العلوم الاجتماعية . هذه المبادئ وإن كانت قد تأكدت فاعليتها فى مجالات أخرى ، إلا أنها تفشل فى مجال التواصل أو العلاقة بين الذات intersubjectivity . لذلك يرى شوتز Schutz ضرورة الاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية للتوصل الى نظرية للفعل ، بدونها تفقد النظرية أسسها الرئيسية . فالاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية هو الضمان الوحيد والكافى بأن العالم الاجتماعى الواقعى باق ولن يحل محله عالما آخر خياليا غير موجود ، قام الملاحظ العلمى ببناءه (١٣٦) .

إن البرنامج الذى يهدف الى رد أو اختزال العمليات النفسية

(136) A. Schutz . The Social World and the Theory of Social Action in Braybrook (ed.) op. cit. p. 55

الخاصة بالتفكير والاختيار والاحساس ... الخ الى العمليات
الفسولوجية ، يثير هذا البرنامج مشكلات او صعوبات . الصعوبة الاولى
تنشأ عن عدم انتماء التعبيرات المستخدمة في الوصف النفسى الى نفس
المقولة المنطقية الموجودة في النظريات الفسولوجية او الفيزيائية عن
الاحداث النفسية . وترجع الصعوبة الثانية الى ان هذا الوصف ، لما
يقوم به الشخص او يفكر فيه او يحس به ، يحتوى على طرق اخرى
لادراك الاحداث تختلف عن الطرق الفسولوجية والفيزيائية ، ويمثل
هذا عقبة امام رد التقارير النفسية - او اليومية - للسلوك الانسانى
الى تقرير سببى للاحداث بواسطة تعبيرات فسولوجية . وتتمثل الصعوبة
الثالثة فى الطريقة التى يتم بها التعرف على الاحداث النفسية . فهى
طريقة مختلفة عن الطريقة التى نتعرف بها على احداث
فسولوجية (١٣٧) . وفى الواقع ان الاتجاه السلوكى عجز بالفعل عن
التوصل الى ترجمة التقارير النفسية الى لغة الفيزياء ، وكل ما فعله
هو انه قام بترجمة تلك التعبيرات الى لغة الحياة اليومية .

الا انه كما طرأت تطورات على الاتجاه الوضعى الطبيعى فقد
طرأت تطورات مشابهة فى الاتجاه السلوكى . فلا نجد حاليا علماء نفس
او علماء اجتماعيين ، ممن يتبنون الاتجاه السلوكى ، يخضعون للاتجاه
التقليدى للسلوكية القائم على الادانة الكاملة لمنهج الاستبطان . وانما
نجد ان السلوكيين المعاصرين يقبلون التقارير الاستبطانية ، التى يقدمها
الاشخاص الخاضعون للتجربة ، باعتبارها استجابات لفظية قابلة
للملاحظة تحت شروط معينة ، وليس باعتبارها حالات نفسية خاصة .
وبالتالى فان التقارير الاستبطانية تأخذ مكانها ضمن المعلومات
الموضوعية التى تقوم عليها التعميمات . وقد تطور السلوكيون اكثر

(137) A. Ryan, The Philosophy of the Social Sciences. London:
Macmillan Co. Ltd. 1970, p. 105.

من هذا عندما قاموا ، منطلقين من اطار منهجى اكثر تحررا ، بدراسة موضوعات فريدة عن السلوك الانسانى ، مثل التعلیم ، وحل المسائل ، وكذلك موضوعات اجتماعية ، مثل الاتصال ، والقرارات الجمعية ، والتماسك الجمعى . وقد اقترحوا لذلك طرقا خاصة لدراسة الظواهر المعقدة ، طرقا تختلف عن بعضها البعض ، وتختلف عن الطرق المستخدمة من جانب السلوكيين الأول . الا ان هذه الطرق ، على الرغم من جدتها ، لم تستطع التوصل الى تفسير لمدى السلوك الانسانى بأكمله . لذا تستمر السلوكية ، مثل كافة المدارس المعاصرة فى علم النفس ، فى كونها برنامجا للبحث يؤكد على الاعتبارات المنهجية اكثر منها مدرسة تحين بنظرية دقيقة مستقلة . ولا يشير التعبير « سلوكية » فى الوقت الراهن الى أى دلالة مذهبية محددة ، وانما يتمسك السلوكيون بهذه التسمية كتعبير عن اهتمامهم بالمعطيات الموضوعية ، والقابلة للملاحظة عن طريق التواصل intersubjectively (١٣٨) .

ولا يسعنا فى ختام حديثنا عن الاتجاه الوضعى الا ان نؤكد مع همبل ان تقييم هذه الاتجاه لا بد الا يتركز على الوسائل الطبيعية المبسطة التى قام مؤيديه باستخدامها ، وانما على الدراسات المنطقية والمنهجية المفصلة . ومن واجب كل من يقيم هذا الاتجاه ان يفحص معايير الوضوح والشدة كما تعرضها تلك الدراسات ثم ما قدمته من إثارة للآخرين ، وأخيرا الضوء الذى ركزته على القضايا الفلسفية . فاذا ما تم الحكم على الاتجاه الوضعى من هذا المنطق فسوف نجد انه قد شكل تأثيرا قويا ومنتجا على الفلسفة المعاصرة (١٣٩) .

* * *

(139) Nagel. Structure of Science op. cit. p. 477.

(139) Hempel. Logical Positivism in the Social Sciences op. cit. p. 194.

الفصل الرابع

« الاتجاه الفنومنولوجي ومنهج الفهم الذاتي »

- تمهيد : ما هي الفنومنولوجيا .
- أولا : اتجاه فيلهلم دلتاي ونظريته الى التفسير .
- ثانيا : اتجاه ماكس فيبر ونظريته الى التفسير .
- ثالثا : اتجاه ادموند هوسول ونظريته الى التفسير .
- رابعا : اتجاه الفرد شوتز ونظريته الى التفسير .
- خامسا : نظرة نقدية الى الفنومنولوجيا .

تمهيد :

يشق التعبير فينومنولوجيا phenomenology من كلمة
phainomenon (وهى مكونة من كلمتين phainomai
اى يظهر ، و logos اى عقل) ، وهدفها هو دراسة الخبرات بقصد
اظهار ماهياتها أو العقل المختفى وراءها (١) . ويجب الا نخلط بين
هذا الاتجاه واتجاه آخر طبيعى يدعى rhenomenalism
يقوم على القول بأن المعرفة محدودة بالمعلومات التى تقدمها الخبرة ،
وبالتالى فان الذى يبحث عن المعرفة فى هذا المذهب لا يلجأ الى التعالى
عن عالم الظواهر اى هى المذهب الذى يسلم بالخبرة المباشرة بالواقع
التجريبى (٢) . هذا بينما الاتجاه الفينومنولوجى ، على الرغم من قيامه
على الاستقصاء المستمر للخبرة . الا انه يقصد من وراء ذلك الوصول الى
عالم الماهيات .

وتقوم الفينومنولوجيا بشكل عام على تبنى صريح أو متضمن للمنهجين
التاليين :

اولا : الحدس insight المباشر كمصدر وكاختبار نهائى لكل
معرفة .

ثانيا : الاستبصار induction داخل الابنية الأساسية ،
كامكانية أصلية وكحاجة للمعرفة الفلسفية .

(1) Edo Pivcevic Husserl and Phenomenology London :
Hutchinson University Libraiiry 1970 p. 11.

(2) R. B. Macleod . Phenomenology in D. L. Sills (ed.)
International Encyclopedis of the Social Sciences . Macmillan
Co. and The Free Press 1968 pp. 68 - 71. p. 68.

وتوجد بعض المحاولات التقليدية السابقة التى قد تعتبر سوابق للفنومولوجيا مثل فلسفة القديس اغسطين . اما الحركة الحديثة فتبدأ مع ديكرت ، ويتضمن منهجه تعليق كل المعتقدات وقبول الأفكار التى تتبدى بوضوح وتميز الى حد استبعاد أى شك واعتبارها أفكارا صادقة . وعلى الرغم من أن تفرقة كانط لعالم النومين وعالم الفنومين تقوم على تحليل فنومولوجى ، الا أن الاستخدام الذى جاء بعده للتعبير فنومولوجيا (مثلا عند هيجل) ثم استخدامه فى العلوم ليعنى أى شىء قابل للملاحظة ، هذه الاستخدامات لا ترتبط بالمعنى الذى نقصده . وفى الواقع أن فنومولوجيا هوسرل ترجع الى ديكرت كما تأخذ عن التحليلات النفسية لوليم جيمس (١٨٩٠) كما تأخذ عن برنتاي (١٨٧٤) خاصة نظريته عن القصدية intentionality (٣) . والسبب فى كوننا قد استبعدنا تأثير فكر هيجل على هوسرل هو أن هيجل ، على الرغم من تأكيده على أولوية الوعى أو الذاتية كنقطة بداية للنسق الفلسفى ، وعلى الرغم من اصراره على اعتبار الفلسفة علما ، لم يقم الفنومولوجيا فى نسقه الأولى على منهج محدد . لقد اقام ما يسمى بمورقولوجيا الوعى الذى يمكن التوصل اليه دون تطبيق لمنهج فنومولوجى جديد . وبالتحديد ، لا يوجد عند هيجل أى ذكر لتعليق الحكم كما نجد فى « نزعة الرد » عند هوسرل . كما لا توجد لديه أى اشارة صريحة الى المنهج الحدسى ولا أى اهتمام بالاستبصار داخل الأبنية الأساسية (٤) .

ويعتبر الاتجاه الفنومولوجى منهجا للتحليل الفلسفى أكثر منه مدرسة أو نظاما بالمعنى التقليدى . فالقول بأنها مدرسة يعنى وجود

(3) Loc, Cit.

(4) H. Spiegelberg . The Phenomenological Movement. A historical Introduction. The Hague : Martinus, Nijhoff. 1969, p.

مبادئ وقواعد ثابتة تسمح لنا أن نجيب بوضوح عن السؤال : ما هي
الغنومولوجيا ؟ بينما في واقع الأمر أن الفلاسفة الغنومولوجيين قد تميزوا
بتفردهم وتميزهم . لذلك فإن منهجنا في دراسة هذا الاتجاه سوف يقرم
على تتبع نمو الفكر الغنومولوجي لدى الفلاسفة الألمان أمثال هوسرل
ودلتاي وفيربر وشوتز وكما تطور لدى الفلاسفة الفرنسيين الوجوديين مثل
سارتر وميرلوبونتي . وسوف نحاول في هذا التمهيد التعرف بشكل
عام على الأفكار الرئيسية لهذا الاتجاه .

لقد نشأت الغنومولوجيا بشكل فعال في النصف الثاني من القرن
التاسع عشر ، ويرجع هذا الى الظروف التي كانت موجودة في الحقل
الفلسفي في هذا الوقت . وتتضح هذه الظروف في العوامل التالية :

١ - تدهور الفلسفة التأملية وانهارها .

٢ - التطور الضخم في العلوم الطبيعية وكذلك في العلوم التاريخية
مما أدى الى نمو اتجاه تاريخي نسبي .

٣ - النجاح المحدود والمؤقت للجهود التي تهدف الى بناء تركيبات
على الأسس العلمية الجديدة كما نجد لدى هرمان لوتز وفونت ، وهربرت
سبنسر .

٤ - المحاولات القوية من جانب العلوم الطبيعية لكي تتولى بنفسها
المهمة السابقة عن طريق المادية والنزعة الواحدية monism .

٥ - المحاولات الناجحة للوضعية في أوروبا وخاصة انجلترا
للمسيطرة على ما تبقى من الفكر التأملی واستبداله بالدراسة « العلمية »
للظواهر المعطاه .

٦ - وجود جهود أخرى مرتبطة بالسابق تهدف الى تحويل الفلسفة

الى فرع من علم النفس ، مما ادى بعد ذلك الى تطور ما سمي بالنزعة النفسية المتطرفة *Psychologism* .

٧ - المحاولات المتكررة من اجل احياء مراحل تاريخية سابقة مثل الكانطية المحدثه والتوماوية المحدثه *Neo - Thomism* .

وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة ظهور ازمة فى الاتجاه الفلسفى: فالفلسفة تواجه تهديدا من الخارج بسبب فقدانها لوضعها المتميز مما جعلها غير واثقة من دورها الحالى . فأصبح على الفلسفة اما أن تحاول اللحاق بالعلم او الحفاظ على مستوى مساو للعلم ، أو كاحتمال ثالث. محاولة البحث عن اساس جديد بالرجوع الى مواقف سابقة . وهنا ظهرت الثورة الكبرى التى أحدثتها الفنونولوجيا فى عالم الفلسفة وذلك حينما اكتشف منذ البداية ثراء مفهوم « الدلالة » *significance* فحاولت الفنونولوجيا أن تضع « فلسفة المعنى » فى مقابل فلسفة التفسير بالعلة (٥) .

وقد تركز الاتجاه الفنونولوجى ، فى الفترة الأولى ، فى المانيا وخاصة فى المرحلة الزمنية السابقة على الحرب العالمية الثانية ، ثم انتقل الى اجزاء أخرى من العالم ابتداء من عام ١٩٣٥ .

ودار اهتمام الفنونولوجيين حول ما هو مثبت بذاته وبديهي وهنا يظهر تأثير ديكارت الذى اصر على استبعاد التصورات القبلية المسبقة معتمدا فقط على ما ندرك انه حقيقى . وقد رأى الفنونولوجيون أن المنهج الفنونولوجى قادر على التوصل الى اساس المشاكل وتفسير نشأتها ومعناها . والتفسير الفلسفى يختلف عن التفسير فى العلم الطبيعى فى كونه يمتلك خاصية هامة هى عدم وضعه لافتراضات تحتاج هى نفسها الى

(5) Ibid pp. 20 - 21 .

تفسير (٦) . ويترتب على هذا قولهم بضرورة استبعاد الافتراضات الأولية الميتافيزيقية ، وهم فى هذا يشتركون مع الوضعيين الا ان الوضعيين يريدون هدم الميتافيزيقا تماما بينما يرى كثير من الفنومولوجيين امكانية اقامة اساس سليم تقوم عليه ميتافيزيقا جديدة . ولا نستطيع القول بان هناك اجماعا من الفنومولوجيين حول هذا الموضوع ، وانما يقوم الاجماع فقط على رفض الدجماطيقية او الجمود الميتافيزيقي الذى يقوم على قبول صريح او ضمني لبعض القضايا الميتافيزيقية التى لم تفسر او تبرر بطريقة سليمة . ولذلك بدأت التحليلات الفنومولوجية من الخبرات الواقعية استنادا الى ما هو اساسى ورئيسى فى هذه الخبرات دون الاعتماد على اى افتراضات جامدة او تحيز ميتافيزيقي (٧) .

يقوم اذن الهدف الاول لهذا الاتجاه الجديد على توسيع وتعميق خبرتنا المباشرة ، وذلك عن طريق الاهتمام بالظواهر بشكل اكثر عمقا من النزعة التجريبية التقليدية ، مع مراعاة القيام باستبعاد تام للتصورات والاحكام المسبقة اى الانماط المعتادة للتفكير . ويعتبر « مبدا البساطة » احد التصورات المسبقة التى ترفضها الفنومولوجيا وتأخذ على العلم الحديث البدء بها مما ينتج عنه الانتهاء بتعبير محدود عن التصورات العلمية . فمبدا البساطة يدعى انه يزودنا بصورة فريدة وكاملة عن الواقع بينما هو ينتهى الى تضيق مجال الخبرة (٨) .

ويتضمن المنهج الفنومولوجي فى بحثه للظواهر المحددة particulars ، ثلاث خطوات رئيسية هى الطور الحدسى ، والطور التحليلي ، والتطور الوصفى . ويعتبر الطور الحدسى عملية قائمة فى

(6) Pivcevic op. cit. p. 13.

(7) Ibid. p. 17 .

(8) Spiegelberg . op. cit. p. 565 .

التركيز على الموضوع بدون الاندماج فيه حتى لا نفقد النظرة النقدية اليه . وتعتمد هذه العملية على ملاحظة الظاهرة ، وأحيانا المقارنة بينها وبين الظواهر الأخرى المرتبطة بهدف تسجيل التشابهات والاختلافات توصلا الى ادراك تميز الظاهرة موضع الدراسة عن غيرها . وثار في هذا الصدد مشكلة ما اذا كانت الفنونولوجيا تتناول الظواهر الذاتية دون غيرها عند حديثها عن الظواهر المحددة ، وهناك اعتقاد شائع في أن الفنونولوجيا ليست الا دراسة لظواهر ذاتية وتمثل رده الى علم النفس الذاتى ان لم يكن وقوعا في منهج الاستبطان (٩) الا ان الأمر في الواقع ليس كذلك ، فالمفهوم « ذاتى » يستخدم في الفنونولوجيا بطريقة متميزة . فهو :

أولا : لا يعنى ما يمكن التوصل اليه عن طريق منهج الاستبطان لأن الأوصاف التى تقدمها الفنونولوجيا لا تتناول فقط جانب الخبرة المتضمنة فى أفعال الشخص وميوله - كما تتضمن فى انعكاساتها عليه - وإنما تتناول مضامين أفعاله باعتبارها موضوعات لخبرته بدون الحاجة الى انعكاس . reflective turn

ثانيا : لا يعنى مفهوم « ذاتى » الملاحظات الذاتية التى يعبر عنها الأشخاص الذين يقومون بالملاحظة ، ويتصفون بقلة الخبرة ، فالفنونولوجيا تتعارض مع مثل هذه « الذاتية » لأن الحدس والرصف يحتاجان الى درجة من الضبط aptitude والمران والنقد الذاتى الواعى .

ثالثا : لا يعنى مفهوم « ذاتية » تلك الذاتية المعبرة عن خصوصية الظواهر ، فكل الظواهر هى ظواهر خاصة سواء كانت فى مرحلة عامة او مشتركة مع الأخرى . ولا يوجد ما يدعو الى الشك فى ان الظواهر

المتعلقة بالحدث الفونولوجى هى ظواهر مشتركة ، فهناك ما يؤكد حدوث هذه المشاركة فى حالات كثيرة وان لم يوجد ما يضمن ان هذا سوف يحدث دائما .

رابعا : لا يتعارض مفهوم « الذاتية » فى الفونولوجيا مع الاتجاه القائم على الاعتماد على الخبرة المباشرة . فكل خبرة هى اساسا خبرة ذاتية لأنها خبرتنا الخاصة .

ونخلص من هذا كله ان المفكر أو العالم الفونولوجى يتناول ظواهر موضوعية بطريقة لا تقل أو تزيد عن أى معرفة تجريبية أصيلة . فإذا اختلفت عنها فذلك لأن الفونولوجيا تقبل فى البداية الظواهر دون التساؤل عما اذا كانت هذه الظواهر ذاتية أم موضوعية . فإذا ما اتضح انها ظواهر ذاتية فان هذا سوف يظهر فى الوقت المناسب دون الحاجة الى استبعادها اعتمادا على مجرد شك (١٠) .

اما بالنسبة للتحليل الفونولوجى فهو خطوة لا تنفصل عن كل من الحدس أو الوصف . الا انها تستحق اهتماما خاصا لأنها توضح العلاقة بين الفونولوجيا ومختلف الأنظمة التى تتبنى اسم التحليل المنطقى أو الفلسفى . ان هذه الأنظمة تقوم على تحليلات لبعض التعبيرات اللغوية بهدف كشف بعض التعبيرات المساوقة لها والتى تتكون من عدد أقل من التعبيرات وتملك بناء أبسط. وذلك لاحتلالها محل التعبيرات الأصلية . أما التحليل الفونولوجى فهو بعكس السابق لا يهتم اساما بالتعبيرات اللغوية ، قد يحدث احيانا ان يبدأ الفونولوجى من بعض الجمل المتميزة ويحاول تحديد معناها وكشف ما يشوبها من غموض ، ولكن هذا التحليل المبدئى ليس الا اعدادا لدراسة الظواهر التى تشير

اليها التعبيرات . فالتحليل الفنومولوجى هو تحليل للظواهر نفسها وليس للتعبيرات التى تشير اليها(١١) .

وتصاحب خطوة التحليل خطوة أخرى هى الوصف الفنومولوجى . ويحدث أحيانا أن يبالغ فى هذه الخطوة الى درجة وصف الاتجاه الفنومولوجى كله بأنه علم وصفى . ولا شك أنه توجد خطورة مؤكدة فى البدء بوصف الظواهر قبل فحصها حدسيا وتحليليا . وهذا ما تقع فيه الفنومولوجيا أحيانا عندما تبادر بالوصف قبل التأكد من الشيء الذى تصفه ، فالوصف أساسا تنبؤ والتنبؤ كما بينت الفنومولوجيا يفترض خبرة سابقة عليه ، وتستحق هذه الخبرة الاهتمام منذ البداية . ويؤسس الوصف الفنومولوجى على تصنيف الظواهر ، ويفترض الوصف اطارا مكونا من قوائم للمجموعات classes ، وكل ما على الوصف أن يفعله هو أن يحدد مكان الظاهرة بالنسبة لنسق من المجموعات الموجودة من قبل . وإذا كان هذا يعتبر ملائما بالنسبة للظواهر المألوفة فإن الظواهر الجديدة أو الجوانب الجديدة من الظواهر القديمة تحتاج الى افتراض اطار من المجموعات أكثر اتساعا تجد بداخله تشابه بنائى بينها وبين ظواهر أخرى . ويتميز الوصف الفنومولوجى بصفة خاصة بأنه وصف انتقائى لأنه من المستحيل التوصل الى كل الخصائص المميزة لظاهرة ما خاصة الخصائص التى تربطها بالظواهر الأخرى . ويعتبر الانتقاء ميزة بجانب كونه ضرورة : فهو يجبرنا على التركيز على الخصائص الجوهرية والتجريد من الخصائص العرضية غير الجوهرية ومن هنا يتضمن الوصف الاهتمام بالماهيات(١٢) .

ان الوصف الفنومولوجى يقوم على كيفية تصدى البشر للظواهر التى تتبدى فى الشعور أو الوعى وكيف يتأثرون بها . ويأتى اهتمام

(11) Ibid. p. 669 .

(12) Ibid. p. 672.

الفنومولوجيا بالذاتية من البحث داخل الوعي ، وعن طريقه ندرك ما هو خارج الذات فنستطيع أن نوجه سلوكنا نحو الواقع الخارجى غير الذاتى . ان الوعي هنا ليس شيئا سلبيا اى مجرد متلق للمثيرات ، وإنما هو عبارة عن الذات فى ذاتيتها متجهة الى الخارج اى ممتدة بنفسها تجاه الأنشطة . وبالتالي اذا كان فعل او نشاط الوعي هو دائما رعبا بشيء ما (ما يمكن تسميته بمسألة القصدية) فاننا نستطيع القول ان كل موضوع هو موضوع بالنسبة لشخص ما (ما يمكن تسميته بمسألة الذاتية subjectification) . ويتضمن هذا ان يأخذ الكيان المعطى أو الظاهرة - سواء كانت حدثا سياسيا أو شخصا - معان مختلفة . يمكن ادراكها بطرق مختلفة حسب الأشخاص ، اعتمادا على وجهة نظرهم وعلاقتهم بالكيان أو الظاهرة المثارة . ليس الموضوع اذن محددًا من الخارج ولكنه كيان ومجموعة معان يضيفها الشخص عليه . ويمثل هذا الكيان بمعانيه « الموضوع » بالنسبة للشخص (١٣) .

وتحرص الفنومولوجيا على الاهتمام بالماهيات العامة wesensschan الى جانب اهتمامها بالظواهر المحددة . ولا يوجد حدس سليم للماهيات دون حدس سابق للظواهر المحددة ، وقد تكون هذه الظواهر معطاة عن طريق الادراك الحسى أو عن طريق المخيلة ، أو بواسطة الاثنين معا . ويجب من أجل فهم الماهية أن ننظر الى هذه الظواهر باعتبارها أمثلة أو شواهد تقوم مقام الماهية العامة ، اى أن حدس الظواهر المحددة يعتبر خطوة ضرورية من أجل فهم الماهيات العامة .

(13) E. A. Tiryakian . Sociology and the Existential Phenomenology in M. Natanson (ed.) Phenomenology and the Social Sciences Vol. I. Evanston : North Western Univ . Press. 1973 pp. 187 - 222 , p . 195 .

ان الجانبين الرئيسيين فى الفنونولوجيا هما « الوعى » و « العالم » ومهما اختلف الفنونولوجيون فمما لا شك فيه ان هدفهم الاساسى هو وصف وتحليل الوعى الانسانى . ويتضمن هذا المشكلة العامة التى تقوم على السؤال : كيف يتكون الوعى من مختلف اشكال القصدية ؟ اى ان السؤال الرئيسى هو : ماذا نفعل لكى نختبر الاشياء داخل ذاتيتنا وكيف نستطيع كفيونولوجيين ان نتوصل الى الرد على السؤال التالى : كيف ينبى الواقع وكيف يدرك فى افعال الوعى ؟ (١٤)

وقد ميز الفنونولوجيون بين مجموعتى العلوم الطبيعية والاجتماعية من نواحي عدة ويعرض لنا ابل Abel هذا التمييز :

اولا : يمكننا بالنسبة للعلوم الطبيعية التثبت من الفرض عن طريق التجربة بينما لا يمكن اللجوء الى التجريب فى مجال العلوم الاجتماعية .

ثانيا : يمكننا تكرار التجارب فى العلوم الطبيعية حتى نصل الى التعميم بينما نجد اننا فى العلوم الاجتماعية نتعامل مع مواقف غير متسقة بحيث لا يوجد شخصان او موقفان متماثلان .

ثالثا : يمكن للعلوم الطبيعية عزل العوامل بحيث تؤدى الفروض الى تنبؤات غير متأثرة بمتغيرات خارجية . بينما لا يمكن تحديد الظواهر الاجتماعية بوضوح بسبب تعقد العوامل الداخلة فيها .

رابعا : يمكن التوصل الى التنبؤ فى العلوم الطبيعية بينما لا يمكن بلوغ هذا المستوى بتأكيد مرتفع فى العلوم الاجتماعية .

خامسا : نستطيع ان نذكر الفروض فى العلوم الطبيعية بدقة وعمومية ، لأنها تتناول متغيرات صادقة خلال المجتمع كله بينما لا يتوفر

هذا الا بشكل محدود فى العلوم الاجتماعية (مثل معدل الوفيات) .

سادسا : نستطيع فى العلوم الطبيعية أن نتثبت من هذه الفروض عن طريق الملاحظة ، ويمكن هذا بقدر محدود للغاية فى العلوم الاجتماعية .

سابعا : يمكننا فى العلوم الطبيعية استخدام القياس بينما ينعذر هذا فى العلوم الاجتماعية لأن مفاهيمها غامضة وكيفية .

ثامنا : يمكننا فى العلوم الطبيعية دراسة الظواهر بدون اهتمام بالماضى ولا يمكن هذا بالنسبة للعلوم الاجتماعية لأنه يحدث أحيانا أن تكذب التنبؤات بسبب أشياء غير ملاحظة وغير متثبت منها حدثت فى الماضى .

تاسعا : بينما لا يوجد تأثير لعالم الفلك على كشفه فى العلوم الطبيعية نجد فى العلوم الاجتماعية تفاعلا دائما بين الباحث وما يدرسه .

عاشرا : لا يهتم العالم الطبيعى بموضوع بحثه بقدر اهتمام العالم الاجتماعى الذى يتصدى لبحث موضوعات مثل تنظيم النسل أو الاشتراكية أو الجريمة .. الخ .

حادى عشر : يمكننا فى العلوم الطبيعية عزل الوقائع بينما يستحيل هذا فى العلوم الاجتماعية ، ويرجع هذا الى أن العلماء الاجتماعيين يواجهون عند وضعهم لفروضهم بأن الوقائع الاجتماعية توجد فى شكل جمعى وترد فى سياقات ، بالإضافة الى وجود تصورات غامضة وكيفية (١٥) .

(15) R. Abel . Man is the Measure : a Cordial Invitation to the Central Problems of Philosophy . New York : The Free Press 1972, pp. 109 - 117 .

لقد أضفى المفكرون ذوو النزعة الانسانية الى العلوم الاجتماعية
أو الثقافية طابعا مختلفا بشكل أساسى وجذرى عن العلوم الطبيعية .
فقد ركزوا على الحالات الذاتية للبشر كالاهتمام بتأويل وفهم الدوافع
البشرية ، وقد أصبحت هذه العملية التأويلية التى اسمها الفلاسفة
الألمان الذين انشاوها *Verstehen* ، أصبحت بالنسبة لهم جزءا
ضروريا فى تطور العلوم الاجتماعية (١٦) .

اولا : اتجاه فيلهلم دلتاي ونظريته الى التفسير :

يمثل دلتاي (١٨٣٣ - ١٩١١) الموقف المعارض للوضعية والنزعة
الطبيعية ، فهو وان كان قد اتفق مع الوضعيين فى رفضهم للميتافيزيقا
الا أنه اختلف عنهم فى رفضه النظر الى العلم الطبيعى كنموذج للعلوم
الاجتماعية وقد حاول دلتاي ان يضع العلوم الاجتماعية (علوم الروح)
Geisteswissenschaften على اسس منهجية مختلفة عن العلوم
الطبيعية *Naturwissenschaften* فقد رأى ان موضوعات العلوم
الاجتماعية ، وهى العقول البشرية ، معطاه وليست مشتقة من اى شىء
آخر . ويستطيع العالم الاجتماعى ان يجد داخل ذاته مفتاح الواقع
الاجتماعى .

ان العلم الطبيعى لا يستطيع الا القيام بتفسير *erklären*
الأحداث الملاحظة ، وذلك عن طريق ربطها ببعضها البعض حسب بعض
القوانين الطبيعية . الا ان هذه القوانين لا تخبرنا بشىء عن الطبيعة
الداخلية للأشياء ولا عن العمليات التى نقوم بدراستها . بينما نجد

(16) H. A. Hodges . Dilthey, Wilhelm in D.

(ps) smis
International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, pp. 185

87 p. 185 .

معنى بالنسبة للبشر فى الذهاب لما وراء الأفعال الملاحظة الى ما هو داخلى (١٧) .

وبينما تبحث العلوم الطبيعية عن اهداف تفسيرية تقوم العلم الاجتماعى بالبحث عن فهم مباشر من خلال استبصار داخل المادة الخام . وتعتبر كل من الاستبصارات الانسانية والفنية هدفا للعلوم الاجتماعية . ولا يمكن الوصول الى هذا الهدف عن طريق مناهج العلوم الطبيعية ، بل فقط عن طريق اعتناق القيم والمعاني الموجود داخل عقول القائمين بالفعل ، وتسمى هذه العملية بالفهم الذاتى أو التأويل (Verstehen) . وقد طبق دلتاى منهجه على ثلاث انماط من القضايا :

١ - الحقائق التاريخية المفردة .

٢ - الاطرادات التى نصل اليها عن طريق التعميم المجرد .

٣ - الأحكام القيمية .

وكان دلتاى اول من أثار موضوع الفهم الذاتى Verstehen (١٨) ،

(17) H. A. Hodgis . Disthey, Wiehelm. in D. Sills (ed.)
International Encyclopedia of the Social Sciences pp. 185 - 87,
p. 185 .

(١٨) اثرتنا ترجمة التعبير الألمانى Verstehen بالتعبير « الفهم الذاتى » كما ترجمها M. Truzzi فى كتابه
«Verstehen : Subjective Understanding in the Social Sciences»

وقد ترجمها د. محمد عارف فى كتابه « المنهج فى علم الاجتماع »
مستخدما التعبير « الفهم التأويلى » بينما استخدم د. صلاح قنصوة فى
رسالته للدكتوراه « الموضوعية فى العلوم الانسانية » التعبير « التفهم » .

بطريقة واعية وفى سياق اجتماعى لم يكن قد اتضح تماماً بعد . ولم يكن يسع دلتاى كشاعر الا ان يرى الفرد ، بخبرته وشعوره وفهمه ، كممثل للواقع الانسانى الاساسى . لذا كانت مهمة الفهم الذاتى هى التوصل الى معرفة للفرد فى تعقده وبساطته خلال تلك الشبكة المعقدة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة .

ويتضمن الفهم الذاتى فى رايه عناصر عدة منها المشاركة الوجدانية sympathy ، والتعاطف empathy ، ثم عملية استعادة الخبرة ، واعدادة بناء الحياة موضع الدراسة . لقد اهتم دلتاى بمشكلة التوفيق بين الخاص والعام لذا فانه قام بتطوير الأدوات التصورية ، حتى يجعل الخاص يكشف عن معناه ورمزه أى يجعله يبدو عاما ومتعاليا ومعبرا الى درجة أنه يمكن أن يخضع لعملية التثبيث . فكان دلتاى يرى أن عظمة الشاعر تكمن فى اختراق الوجود الفردى حتى يكشف عن نفسه فى نفسه باعتباره رمزا عاما أو معنى . وينجح الشاعر فى ذلك عن طريق جعل الحياة تؤول ذاتها دون تعبيرات : انه يسمح للسياق الحى ان يكشف عن نفسه فى وحدته المعقدة ، وفى معناه المباطن(١٩) .

ان عنصر الثبات فى الفكر يكمن فى الخبرة الداخلية وحدها أى فى وقائع الوعى . وكل معرفة ما هى الا ادراك للخبرة ، وتتوقف الوحدة الأصلية للخبرة وما ينتج عنها من صدق على العوامل التى تشكل الوعى أى على الطبيعة الانسانية بأكملها . ويعتبر هذا هو الموقف الابستمولوجى الذى لا يمكن للمعرفة الحديثة ان تقول بغيره ، وهو يمثل اساس استقلال العلوم الانسانية . وتحول النظرة الى العالم الطبيعى فى ضوء هذا الموقف الى مجرد خيال خاص بواقع مختبىء

(19) W. Pelz . The Scope of Understanding in Sociology.

London : Routledge and Kegan Paul , 1974, p. 3.

عنا لا يمكن ادراكه كما هو الا ابتداء من وقائع الوعي ، كما تبدو فى الخبرة الداخلية . ان تحليل هذه الوقائع هو صلب الدراسات الانسانية ، فتصبح هذه الدراسات نمقا مستقلا بذاته (٢٠) .

وقد اختلف هنريك ريكرت ، وهو من اتباع مدرسة الفهم الذاتى ومعاصر لدلتاى ، مع دلتاى حول التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . انه يرى ان الفارق بين مجموعتى العلوم لا يكمن فى الواقعية التجريبية (اى الطريقة التى ندرك بها هذه العلوم) وانما فى الطابع الفريد للأحداث التاريخية فى مقابل الطابع العام للأحداث الطبيعية . وبالتالي يقع على عاتق العالم الاجتماعى دراسة الحدث الفردى المتميز (الايديوجرافى) بينما يدرس العالم الطبيعى الأحداث العامة المتكررة (النوموطيفية) . وعلى الرغم من هذا الموقف المعارض لدلتاى ، أكد ريكرت على ضرورة الأخذ بالمنهج الذاتى فى العلوم الاجتماعية ، اى ضرورة معرفة قيم واهداف القائمين بالفعل الاجتماعى من أجل تفسير سلوكهم بشكل تام . وقد عارض ريكرت فى استخدام التعبيرات « فهم ذاتى » *Verstehen* الا ان المنهج الذى طوره ، بما يتضمنه من تأكيد على معنى الأشياء التى يضيفها القائمون بالفعل كضرورة لفهم الظواهر الاجتماعية ، هذا المنهج يضعه ضمن مدرسة الفهم الذاتى (٢١) .

ويرى دلتاى ان موقف الفهم الذاتى يتحدد فى أعلى درجاته بازاء

(20) W. Dilthey . On the Special Character of the Human Sciences in M. Truzzi (ed.) *Verstehen : Subjective Understanding in the Social Sciences* . Reading : Addison - Wesley Publishing Co. 1974 pp. . 8 - 17, p. 10.

(21) Max Weber . On Subjective Interpretation in the Social Sciences in Truzzi (edè) *Op. Cit.* pp. 18 - 37. intr . by the ed. p. 19.

الموضوع ، عن طريق المهمة التى يقوم بها وهى كشف وحدة حية من المعطى . ويتوقف هذا على الوجود المستمر للوحدة النسقية Systematic unity وهى تلك الوحدة التى نجدها فى الخبرة المعاشة للشخص والتى تخضع للاختبار فى شواهد عدة . ويعنى هذا الوضع اسقاط للذات داخل الشخص او العمل ذاته ، وينشأ عن هذا الاسقاط احياء للشئ ذاته من خلال الحياة العقلية عن طريق الفهم (٢٢) .

ان منهج الفهم يميز العلوم الانسانية كمجموعة مختلفة عن العلوم الطبيعية . ويتميز استخدام دلثاى للتعبير « فهم » عن أى استخدام عام آخر بأنه يعنى فهم مضمون عقلى معين - أى فكرة أو قصد أو احساس - ثم التعبير عنه فى شكل تعبيرات تجريبية معطاة مثل الحركات أو الكلمات أو الايماءات ... الخ . ان ما نفهمه من تعبير محدد هو المعنى الذى يدركه البشر أو يصفوه على موقف معين فى حياتهم .

لقد اقام دلثاى فلسفته المعرفية أو نظريته فى المعرفة على أسس ثلاث هى :

١ - أن البشر يعيشون حياتهم ويمرون بخبرات خاصة ، وهذه الحياة لها معنى معين .

٢ - يميل هؤلاء البشر الى التعبير عن هذا المعنى .

٣ - من الممكن الوصول الى فهم هذا المعنى (٢٣) .

(22) W . Dilthey. On the Special Character of the Human Sciences . in Truzzi (ed.) op. cit. pp. 8-17, p. 11.

(23) H. P. Rickman . Dilthey, Wilhelm. in P. Edwards (ed.) The Encyclopedia of Philosophy. New York : The Macmillan Co. 1967, pp. 403 - 407, p. 405 .

وقام دلتاى بوضع ثلاثة شروط للوصول الى الفهم الذاتى وهى :

اولا : لا بد ان نتعرف على العمليات العقلية التى نستطيع عن طريقها اختيار المعنى ونقله . فاذا لم يكن فى مقدورنا ان نعرف مثلا ما معنى ان نحب او نكره او نملك قصدا ما او ان نعبر عن شىء ما ، فاننا لن نستطيع فهم أى شىء . وقد تعرض هذا النوع من الفهم الذاتى الذى ظهر فى كتابات دلتاى الاولى للنقد باعتباره يعبر عن نزعة نفسية متطرفة او اتجاه فردى منهجى الا ان دلتاى اضاف اليه شرطين آخرين .

ثانيا : يقوم الشرط الثانى على اننا كى نفهم التعبيرات علينا ان نعرف السياق الواقعى المحدد الذى ترد فيه ، فالكلمة تفهم بشكل أفضل فى سياقها اللفظى كما يفهم الفعل داخل الموقف الذى أدى اليه . وقد اشتق دلتاى من السابق مبداء المنهجى : لكى نفهم تعبيرا ما علينا ان نكشف بطريقة منظمة السياق الذى يرد فيه . وكمثال على ذلك : لكى نستطيع ان نفهم حركة دينية او اتجاه فلسفى بشكل أفضل ، علينا ان نربطه الى كل من وجهة النظر ، ثم الى الظروف الاجتماعية التى كانت سائدة فى ضوء ظهور العلم والصراع بين المذاهب الدينية المختلفة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ثالثا : يتمثل الشرط الثالث فى معرفة الأنسقة الاجتماعية والثقافية cultural التى تحدد طبيعة أغلب التصورات . فعلىنا لكى نفهم جملة ما ان نعلم اللغة ، ولكى نفهم حركة معينة فى لعبة الشطرنج ان نعلم مبادئ اللعبة (٢٤) .

لقد جعل دلتاى وغيره من الفلاسفة الاجتماعيين للمعرفة Erkenntnis وهى عبارة عن فعل الفهم او الادراك ، جعل لها طابع بناء وقوة . ان تفكيرنا ومعرفتنا وقدرتنا على التصور والتنظير تصد

الوقائع والأشياء . والوعى الاجتماعى وحده وليس الوقائع هو الذى يحدد التفكير وذلك بواسطة الأهمية التى ننسبها الى الوقائع (٢٥) .

ويعتبر الفهم هو الطريق الوحيد لكى يفهم الانسان ذاته ، فنحن نتعلم ما كنا اياه فى الماضى وكيف تطورنا واصبحنا ما نحن عليه ، من الطريقة التى تصرفنا بها ، ومن الخطط التى تبنيناها ، ومن الأحكام التى عبرنا بها عن أهدافنا ومن الخطابات القديمة ، ومن الأحكام التى اطلقت بشأننا منذ زمن بعيد . ان الحياة تتضح لنا اذن من خلال عملية الفهم الذاتى ، فنستطيع فهم أنفسنا والآخرين بشرط تحويل خبرتنا المعاشة الى نوع من التعبير عن حياتنا وحياة الآخرين (٢٦) .

لقد رفض دلتاى ان ينظر الى الحياة كواقعة بيولوجية صرفه يشارك فيها الانسان الحيوانات الأخرى ، وانما نظر اليها كخبرة معاشة فى تعقدها . هى عبارة عن تجميع لأعداد لا حصر لها من الأفراد الذين يكونون الواقع الاجتماعى والتارىخى . وقد اعتبر دلتاى الحياة مكونة من أشياء عدة مثل الآمال والمخاوف ، والأفكار والأفعال ، الأنظمة التى أقامها البشر ، القوانين التى توجه سلوكهم ، الأديان التى يؤمنون بها ، ثم كل أشكال الفن والأدب والفلسفة . وتضاف العلوم الى ذلك كله باعتبارها نشاطا بشريا .

لقد تأثر دلتاى فى مذهبه عن « فلسفة الحياة » بكل من كانط وهيجل وفشته وشلنج والتجريبية البريطانية . وقد اعتبر الحياة هى الموضوع الوحيد للفلسفة وكفيلسوف تجريبى رفض أى معنى للتعال : فلا يوجد أى شيء يتجاوز الحياة ، ولا يوجد شيء فى ذاته كما لا يوجد أى مطلق ميتافيزيقى أو فردوس أفلاطونى . ومن هنا فقد اعتبر الفيلسوف

(25) Pelz . op. cit. p. 72.

(26) Diltthey. op. cit . p. 17 .

جزءاً من الحياة ولا يمكنه معرفتها الا من الداخل لأنه لا وجود لبداية مطلقة للفكر او لهيكل من المعايير المطلقة خارج الخبرة . ومن هنا يصبح كل تفكير فى الحياة وما يصحبه من مبادئ تقييمية وخلقية نتاج للأفراد معينين يعيشون فى زمان ومكان معين تحددهم وتؤثر فيهم الظروف ووجهات النظر والعصر الذين يعيشون فيه (٢٧) .

ويرفض دلتاى الراى الوضعى الذى يقوم على القول بأننا نعيش ونختبر الاحساسات والادراكات فقط ، ويعتبره راىا ميتافيزيقيا جامدا يقوم ، عن طريق تلخيص الخبرة ، بتضييق طرق المعرفة ، ان ما نعيشه ونختبره بالفعل هى الحياة نفسها فى غناها وتنوعها . ولا يعنى هذا بالنسبة لدلتاى الاكتفاء بالنظر الى الأفراد وحدهم وانما الهدف هو الوصول الى نظرة شاملة للواقع . ومن أجل هذا يبدأ الفيلسوف من المعانى التى يضيفها البشر على عالمهم . فيصبح الفيلسوف باعتباره جزءا من الحياة ومتاثرا بظروف عصره مثل الآخرين ، يصبح مصدر قوة ، فيستطيع التوصل الى المعنى عن طريق خبرته الخاصة . فهو يدرك عمل عقله وكيف تولد الأفكار احساسات ثم كيف تتحول الاحساسات الى ميول . انه يعلم الخاصية الزمانية لحياتنا مع تعاقب اللحظات التى تربط الحاضر بالخبرة ويتذكر الماضى ويتصور المستقبل . ان الفيلسوف مثل غيره من البشر يستخدم نفس المبادئ من أجل تنظيم خبرته الخاصة ويسمىها دلتاى مقولات الحياة . ويعتبر تحليل تلك المقولات حجر الزاوية فى فلسفته (٢٨) .

ولا تخرج هذه المقولات عن كونها وسائل لتأويل الأحداث فى ضوء بعض العلاقات . ويعرض دلتاى قائمة بتلك المقولات فمنها مثلا مقولة القوة أو السلطة power التى نشعر فى ضوءها بتأثيرها على

(27) Rickman op. cit. p. 404.

(28) Loc. Cit.

الأشياء والأشخاص وتأثيرهم علينا ، ويكون ذلك اما بمساعدتنا فى خططنا ، او بالعكس باحباط رغباتنا . انها المقولة التى تتوافق مع العلية او السببية تجاه فهم العالم المادى . وهناك مقولات أخرى ، عن الجزء والكل ، الوسيلة والهدف ، التطور . وتعرض دلتاى لثلاث مقولات ذات اهمية خاصة فى منهجه ، وهى القيم Value التى عن طريقها نختبر الحاضر ، ثم الهدف purpose الذى من خلاله نتصور المستقبل ، واخيرا المعنى meaning الذى عن طريقه نتذكر المـ او نستدعيه . وقد اكد دلتاى بالذات على مقولة المعنى ودورها ، خاصة فى كتبه المتأخرة ، فأصبح سؤاله الرئيسى هو : كيف تكون الخبرة ذات المعنى ممكنة ؟ وجعل من المقولات كلها طرقا مختلفة يتضح من خلالها المعنى فى سياقات مختلفة (٢٩) .

وقد ارتبط « بفلسفة الحياة » عند دلتاى اهتمامه بطبيعة الدراسات الانسانية ومنهجها . فاذا كان على الفيلسوف ان يهتم بأوسع معرفة ممكنة لمظاهر الحياة فان هذه المهمة تقع على عاتق الدراسات الانسانية من علم نفس ، وتاريخ ، واقتصاد ، وفقه اللغة ، ونقد ادبى ، وعلم الأديان المقارن ، وقانون ، وعلى الفيلسوف ان يستوعب نتائج هذه الأنظمة كما أن لديه ما يقدمه اليها حتى تشتق منه قوتها المنهجية . ويمكن من « فلسفة الحياة » اشتقاق نظرية فى المعرفة an epistemology ويعتبر الانسان هو الموضوع المشترك فى كافة الدراسات الانسانية بأفعاله وانجازاته اى العالم الانسانى المنظم اجتماعيا والمتطور تاريخيا . وهنا ميز دلتاى بين دراسات نسقية تهدف الى تكوين قوانين عامة وبين التاريخ الذى يهتم بالتتابع الزمنى للأحداث الفردية . الا أن هناك ارتباط بين هذه الدراسات : فالتاريخ يقدم للدراسات النسقية البداهة Evidence على شكل تاريخ الحالة وتسجيل للتطورات الاقتصادية ،

بينما تقدم الدراسات النسقية بالاشتراك مع الحس الشائع ونتائج العلوم الطبيعية ، القوانين التي يمكن فى ضوءها تفسير العلاقات بين الأحداث الفردية فى التاريخ (٣٠) .

وقد اعتبر دلتاى التاريخ هدفا مطلقا . فالمؤرخ هو نفسه الفيلسوف ، مهمته هى الكشف وتأويل التطور الفريد للانسانية . وكل العلوم الانسانية الاخرى ليست الا عوامل مساعدة لعلم التاريخ . ويفسر الفرد فى ضوء الموقف التاريخى ، ويقوم المؤرخ بالتفسير مستخدما فى ذلك السيرة الذاتية (٣١) . وقد اعتبر دلتاى الانسان تاريخيا فى جوهره لأنه يعيش فى الزمان ، ويتحدد بأحوال وظروف معينة ، ووجوده ذاته هى عملية زمنية تتحدد بالميلاد والموت وتتألف من سلسلة متصلة الحلقات تتكون من ماض وحاضر ومستقبل ، وتجرى هذه العملية فى اطار علاقاته مع الآخرين ، وعلاقاته مع الطبيعة ، ولما كان الفرد كذلك ، فان العلاقات بين الأفراد هى أيضا علاقات تاريخية . وحياة الانسان حياة تاريخية ، وعالم الانسان اذن هو عالم التاريخ (٣٢) .

وقد رفض دلتاى المبادئ المطلقة والقيم المطلقة . ولهذا يرفض كل محاولة لتفسير التاريخية أو المذهب التاريخى Historicism بواسطة اللجوء الى مبدأ غير مشروط ، سواء كان ذلك بمعنى متعال أو بمعنى محايت ، لأن عالم الانسان هو عمل الانسان اى عمل الأفراد فى علاقاتهم بعضهم مع بعض ، والتاريخية تنسب الى العالم الانسانى وحده ، ومجرى التاريخ يرجع الى النشاط ، فلا مجال اذن الى الاهابة بمبدأ فوق انسانى (٣٣) .

(30) Ibid. p. 406.

(31) Pelz. Op. cit. p. 45

(٣٢) د . عبد الرحمن بدوى : أحدث النظريات فى فلسفة التاريخ .
عالم الفكر ، ع ١ ، مج ٥ ، يونيو ١٩٧٤ ، ص ٢١٥ - ٢٤٤ ، ص ٢١٨ .
(٣٣) المرجع السابق ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

لقد قام دلتاى بصياغة مبادئ ثلاث تكون جانب هام مما أصبح يسمى بالتاريخية او المذهب التاريخى وهى :

١ - ان كل الصور الانسانية هى جزء من عملية تاريخية ، وتحتاج ان تفسر بواسطة تعبيرات تاريخية ، ولا يمكن تعريف الدولة او الأسرة او حتى الانسان بطريقة دقيقة ومجردة ، لأن الخصائص الخاصة بكل منها تختلف باختلاف العصور .

٢ - من الممكن فهم العصور المختلفة والأفراد المختلفين بطريقة واحدة فقط وهى النفاذ بواسطة الخيال الى وجهة نظرهم الخاصة . فعلى المؤرخ ان يضع اذن نصب عينية كل ما اهتم به الفرد والعصر الذى يعيش فيه هذا الفرد .

٣ - ان المؤرخ نفسه محدد بآفاق عصره ، وتمثل الطريقة التى يتضح بها الماضى من خلال تصورات المؤرخ جانبا هاما من معنى هذا الماضى (٣٤) .

ومن نتائج هذه النسبية المنبثقة عن التاريخية ان قرر دلتاى ان الفلسفة مشروطة تاريخيا ، وان ماهية الفلسفة لا تتحدد بطريقة قبلية ، بل على اساس تحليل الطرق المختلفة التى تجلت عليها الفلسفة فى التاريخ ، مما سيظهر منه ان وحدة الفلسفة لا تقوم فى وحدة الموضوع او المنهج ، بل فى وحدة الموقف الذى يفسر مختلف الاشكال التاريخية للفلسفة (٣٥) .

وقد اعتبر دلتاى علم النفس اساما للعلوم الاجتماعية ، اى ان اهتمامه بالفرد جملة يختار علم النفس وليس علم الاجتماع كمنظور

(34) Rickman. op . cit. p. 405.

(٣٥) د . عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، ص ٢١٩

أساسي . الا ان الفرد في الحالتين يخضع لمسا هو عام ، فهو يرد الى مثال او الى حالة بالنسبة للمعلومات التي تسلم الى تعميمات ذات معنى . لقد أثارت اعمال دلتاي مشكلة الوعي الاجتماعي والفردى وجعلتها مشكلة مستمرة عبر السياق الاجتماعي . لقد كان دلتاي يعكس الايديولوجية الفردية لعصره ، التي تضع للفرد مكانه مثل مكانة الشيء في ذاته عند كانط(٣٦) . وقد حاول دلتاي أن يصل الى علم نفس وصفى الى جانب علم النفس الطبيعي العلمي .

ولقد كان دلتاي ولا شك أول الداعين الى منهج جديد في دراسة العلوم الاجتماعية وهو منهج الفهم الذاتى ، وعلى أساسه أقام دراسته للحياة الاجتماعية . بل لقد ذهب دلتاي الى أبعد من ذلك عندما أقام هذه الدراسة على الانتقاء ، انتقاء يتم في ضوء أنماط اجتماعية ذات معنى . وتقوم هذه الأنماط على الوحدة النفسية او العقلية للجنس البشرى حيث يتاح فهم الماضى والمجهول في ضوء الحاضر والمعروف . وقد وجد دلتاي أن مهمتنا تكمن أساسا في هذا الفهم التدريجى « لذلك النمط الأساسى المثالى » في تغيراته النفسية او العقلية من خلال اعادة كشف للاتنا في الآخر Thou (٣٧) .

ثانيا : اتجاه ماكس فيبر ونظريته الى التفسير :

يعتبر فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) من أقوى المدافعين عن منهج الفهم الذاتى واحد الممهدين البارزين للفنومولوجيا . وقد جمع بين تأثير كل من دلتاي وريكرت ومذاهب المثالية الألمانية والكانتية ، كما تأثر بتأكيد الوضعية على الأسباب والتثبت التجريبي والتعميم . ومن هنا اهتمامه بالدراسات الخاصة بالمنهج ، والنقد ، والفلسفة خاصة في جانبها

(36) Pelz op. cit. p. 45.

(37) Dilthey. op. cit. introduction by Truzzi (ed). p. 9.

المرتبط بالعلوم الاجتماعية ، بالاضافة الى اهتمامه بالتاريخ وعلم الاجتماع .

وقد جعل فيبر التفسير المهدف الاساسى للعلم حتى انه تحدث عن علم الاجتماع باعتباره يهدف الى الفهم التاويلى للسلوك الاجتماعى من اجل الوصول الى تفسير مسار السلوك ونتائجه . وقد ميز فيبر بين نوعين من السلوك : « السلوك الانسانى » الذى ينشأ عن ارتباط شخص او اشخاص بفعل ذو معنى ذاتى ، وقد يكون هذا السلوك عقلى او خارجى ، وقد يتكون من فعل معين او قد يكون استبعاد للفعل ، ثم « السلوك الاجتماعى » الذى يعبر عن الأنشطة التى ترتبط اهدافها بواسطة الاشخاص الموجودين فى الموقف بسلوك افراد آخرين خارج الموقف . وتتأثر هذه الاهداف كنتيجة لهذا الارتباط (٣٨) . ويعتبر الفرد هو الوحدة الهامة فى علم اجتماع فيبر ، وليست الكليات الاجتماعية الا نتيجة للأفراد وشكلا من أشكال تنظيم الأفعال .

ويتضمن الفعل الاجتماعى عند فيبر كل مظاهر السلوك الانسانى ، حيث أن كل سلوك انسانى هو ببساطة سلوك هادف ، ومن ثم يكون للانسان الاجتماعى السالك اهدافه المحددة بالذات ، كما يكون لسلوكه هذا « معناه » وهذا المعنى الذى يستنبطه الفاعل الاجتماعى انما هو « معنى ذاتى » Subjective meaning كما ويتطابق هذا المعنى الذاتى ، فى نفس الوقت مع ذلك المعنى « السائد فى عقول الآخرين » (٣٩) .

Weber. on Subjective Understanding in the Social Scinces
op. cit. p. 20.

(٣٩) د. قبارى محمد اسماعيل : قضايا علم الاجتماع المعاصر ،
الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٦ ، ص ٣٠٩

وقد ميز فيير بين أربعة أنماط من الفعل هي : الفعل العقلى فى علاقته بهدف ما Zweck rational action ، والفعل العقلى فى علاقته بقيمة ما wartrational action ، والفعل العاطفى affective or emotional action ، واخيرا الفعل التقليدى traditional action

ترجع اهمية هذا التصنيف الى عدة عوامل تتمثل فى :

١ - ان فيير اعتبر علم الاجتماع علما شاملا للفعل الاجتماعى لذا فان تنميط الأفعال يعتبر أكثر المستويات تجريدا فى النسق التصورى الموجود فى المجال الاجتماعى .

٢ - وفى نفس الوقت اعتبر فيير علم الاجتماع علما شاملا للفعل الانسانى ويهدف من هذا الى فهم المعنى الذى يضيفه كل فرد على سلوكه الخاص لذا فمن المهم الوصول الى شمول للمعانى الذاتية عن طريق تصنيف أنماط الأفعال كمدخل لفهم البناء الواضح لهذا السلوك .

٣ - اثر تصنيف فيير لأنماط الأفعال على تفسيره للحقبة الزمنية المعاصرة له ، فقد رأى ان الخاصية الرئيسية للعالم الذى نعيش فيه هى التعقيل rationalization ، ويظهر هذا فى اتجاه المجتمعات الحديثة الى توسيع دائرة الأفعال العقلية المرتبطة بالأهداف .

٤ - يرتبط تصنيف الأفعال بجوهر فلسفة فيير وهو علاقات الارتباط بين العلم والسياسة او استقلالهما (٤٠) .

لقد رأى فيير أن هدف العالم هو الوصول الى قضايا عن الواقع

(40) Aron Main . Currents in Sociological Thought op. cit. pp. 186 - 188.

أو الى علاقات سببية أو الى تفسيرات صحيحة بشكل عام ، وبهذا المعنى يكون البحث العلمى أحد الأمثلة المعبرة عن فعل عقلى فى علاقته بهدف ما . ويعتبر هذا الهدف حقيقة عامة الا أنه يتحدد عن طريق حكم قيمى ، وبالأذات قيمة الصدق التى يتم التثبت منها عن طريق وقائع أو آراء صادقة بشكل عام (٤١) .

ويذهب فيير الى أن الفعل الاجتماعى هو كل عمل أو سلوك يقوم به الانسان ، كما يتضمن كل جهود الانسان فى ماضيه وحاضره ومستقبله ، كما يحوى محاولاته الناجحة وتجاريه الفاشلة . بمعنى أن الفعل الاجتماعى يتعلق أصلا بكل الجهود والمحاولات ، وكل ما لحق الانسان من اخفاق أو نجاح (٤٢) .

ويعبر فيير عن أسس منهجه كالتالى : اننا نفهم بوضوح معنى القضية $٢ + ٢ = ٤$ كما نفهم نظرية فيثاغورس عن الاستدلال ، كما نفهم استخدام سلسلة من الاستدلالات العقلية وذلك بشكل منطقى وفى توافق مع طرق مقبولة للتفكير . ونحن نفهم بنفس الطريقة أفعال شخص ما فى محاولته تحقيق هدف معين عن طريق اختيار طرق مناسبة ، نفهمه فى حالة كون حقائق الموقف التى يقيم عليها اختياره مألوفة بالنسبة لنا . وملك تفسير هذا الفعل الهدفى العاقل - بقصد فهم الوسائل المستخدمة - أعلى درجات التأكيد . ويمكننا أن نفهم من أجل أهداف التفسير الأخطاء التى قد نتعرض لها نحن أيضا ، وذلك عن طريق التحليل الذاتى القائم على المشاركة الوجدانية . ويحدث أحيانا أن نفشل فى فهم كثير من الأهداف والقيم التى نتبين من الخبرة أن السلوك البشرى يتجه اليها ، وذلك على الرغم من كوننا نستطيع أن ندركها . فكلما اختلفت هذه الأهداف أو القيم عن قيمنا بشكل أساسى--، كان

(41) Ibid 180.

(٤٢) د. قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣١١

من الصعب علينا أن نفهمها عن طريق المشاركة الوجدانية . ويجب علينا في مثل هذا الموقف أن نكتفى بتحقيق فهم فكري خالص لأمثال تلك القيم . وفي حالة فشلنا نكتفى بقبولها باعتبارها معلومات متاحة .
 إلا أن علينا كلما كان هذا ممكنا أن نحاول فهم السلوك الذي تحركه تلك القيم وذلك بقصد التفسير أو التأويل الانتعالي أو العقلي في مختلف مراحل تطوره . ويذكر فيبر كمثال على ذلك كثيرا من الأفعال الدينية أو الخلقية التي لا يفهمها من يتعرضون لمثل هذه القيم (٤٣) .

وقد اخذ فيبر عن ريكتر الفكرة التالية : ان ما يقدم للعقل الانساني ليس الا مادة بدون شكل ، والعلوم ما هي الا تشكيل أو بناء لتلك المادة الخالية من الشكل . وقد رأى ريكتر أنه يوجد حسب طبيعة التشكيل الذي تخضع له المادة نوعان من العلوم : التشكيل الأول ، وهو خاص بالعلوم الطبيعية يتمثل في تناول الخصائص العامة للظواهر ثم اقامة علاقات منتظمة أو ضرورية بينها ، ويتجه هذا التشكيل نحو بناء نسق من القوانين أو العلاقات التي تتزايد عموميتها وقد تملك طبيعة رياضية . وتعتبر الفيزياء النيوتونية أو فيزياء اينشتاين أو العلم النووي الحديث نمطا مثاليا للعلم الطبيعي ، حيث تشير التصورات الى موضوعات قام العقل ببناءها . اما النسق الخاص بهذه العلوم فهو النسق الاستنباطي الذي يبدأ من قوانين أو مبادئ مجردة وبسيطة وأساسية . اما النوع الثاني من التشكيلات العلمية فتتميز به العلوم التاريخية أو علوم الثقافة . وفي هذه الحالة لا يحاول العقل أن يقدم مادة لا شكل لها في نسق من العلاقات الرياضية ، وانما يقوم بانتقاء في داخل المادة عن طريق ربط المادة بالقيم . ومن هنا يصبح كل تقرير تاريخي اعادة بناء انتقائي لما حدث في الماضي (٤٤) .

(43) Weber op. cit. pp. 21 - 22 .

(44) Aron. op. cit. p. 195.

وهنا يقدم فيير علما للاجتماع متضمنا لنوعين من السلب أمام الواقعة : فمن جهة لا يوجد علم يستطيع أن يقول للانسان كيف يعيش او للمجتمعات كيف تنظم نفسها ، ومن جهة أخرى لا يوجد علم يستطيع أن يقول للبشرية ما هو المستقبل . السلب الأول يميز فيير عن دوركايم والثانى عن ماركس . لقد رأى فيير أن الفلسفة ذو النمط الماركسى تقع فى اخطاء لأنها لا تتفق مع طبيعة كل من العلم او الوجود الانسانى . ان كل علم سواء كان تاريخيا أم اجتماعيا هو عبارة عن وجهة نظر جزئية وبالتالي لا يستطيع أن يدلنا مسبقا على المستقبل ، لأن المستقبل لا يمكن أن يحدد مسبقا . وحتى فى حالة وجود بعض الأحداث الممكنة التحديد مسبقا فان الانسان الفاعل او الانسان العادى البسيط سيقى حرا فى رفض الحتمية الجزئية او فى التلائم معها(٤٥) .

ان التقارير التاريخية والاجتماعية تهتم بالوقائع الملاحظة او القابلة للملاحظة ، وتسعى للوصول الى واقع محدد أى الى سلوك انسانى فى ضوء المعنى الذى يضيفه الذين يقومون بالفعل . ان هدف فيير ليس الا التوصل الى فهم طريقة حياة البشر فى المجتمعات المختلفة كمحصلة لمعتقدات مختلفة ، وكيف اعتمدوا على عنصر الوقت وكرسوا انفسهم لنشاط او آخر عاقلين الآمال على العالم التالى وأحيانا على العالم الحاضر يمتلكهم التفكير فى الخلاص وأحيانا فى التطور الاقتصادى . ويحاول عالم الاجتماع فهم الطريقة التى يختبر بها البشر مختلف اشكال الوجود وذلك فى ضوء النسق المحدد للمعتقدات والقيم والمعرفة الخاصة بمجتمع معين(٤٦) .

ولا يقتصر فيير على القول بأن كل من العلوم التاريخية والعلوم الاجتماعية هى تفسيرات مفهومه للمعنى الذاتى للسلوك ، وانما يرى

(45) Ibid. p. 197.

(46) Ibid. p. 198.

أيضا أنها علوم عليّة أو سببية . ان عالم الاجتماع لا يقتصر على تفسير نسق المعتقدات وسلوك الجماعات وإنما يبحث أيضا عن تأكيد لكيفية حدوث الأشياء وكيفية تحديد التفكير للفعل ، وكيفية تأثير نظام سياسى معين على نظام اقتصادى . أى ان العلوم التاريخية والاجتماعية تطمح فى التوصل الى تفسير سببى كما تطمح فى تأويله بطريقة مفهومه . ويعتبر تحليل التقارير السببية أحد الوسائل للتثبت من النتائج العلمية .

وتتحدد مشكلة السببية التاريخية فى دور السوابق (الشروط السابقة) الموجودة وراء الحدث . ويتضمن تحليلها الاجراءات التالية :

١ - تعريف واضح لخصائص الكيان التاريخى المراد تفسيره .

٢ - تحليل الظاهرة التاريخية فى عناصرها ، لأن العلاقة السببية ليست علاقة بين فترة زمنية حالية وفترة زمنية سابقة ، ان العلاقة السببية هى دائما علاقة جزئية وزائفة بين بعض عناصر الموضوع التاريخى وعناصر أخرى سابقة .

٣ - يحتاج التحليل السببى عند تناول حدث تاريخى فردى أن يستعين بعملية تغيير متخيل لأحد العناصر فى محاولة تبين ما يمكن أن يحدث فى حالة عدم وجود هذا العنصر أو فى حالة وجوده بصورة مختلفة .

٤ - وأخيرا لا بد من مقارنة هذا التطور المتخيل القائم على أساس تغير مفترض فى أحد الشروط السابقة بالتطور الواقعى ، وذلك قبل أن نستخلص النتيجة التى تقوم على كون العنصر الذى غيرناه على سبيل الفرض ليس الا أحد أسباب الوجود التاريخى الذى ندرسه (١٧) .

لقد شعر فيير أنه لا يوجد الا منطق علمي واحد ينطبق بشكل متساو على كل من الظواهر الطبيعية والظواهر الثقافية . ويتطلب التثبت التجريبي من تقريرات كل نوع من الظواهر بقاء للتصورات خاصة وأنه لا يوجد في طبيعة الموضوعات الثقافية ما يمنع من اقامة التصورات العامة . واذا كانت قيم الملاحظ تؤثر على ملاحظاته الاجتماعية ، مثلا في اختياره للموضوعات النظرية ، فانه يستطيع توضيح هذه القيم والمضى في تناول دورها بالنسبة للظواهر الاجتماعية والثقافية التي يلاحظها بشكل موضوعي خالص . ومن واجب علم الاجتماع الا يقبل فكرة كون الأساس « غير العقلي » للحياة الانسانية يتبدى في الموضوع الفردي ، لأن هذه الفكرة تؤدي الى افتراض تفرد الظواهر الثقافية . والعكس هو الصحيح لذا يجب ان يكون الافتراض الاولى قائم على كون السلوك الانساني قابل للتاويل بواسطة « نسق متسق من التصورات النظرية » . فنحن نبدأ بتحليل الظواهر الاجتماعية المحددة ، فيما يرى فيير ، عن طريق بناء « أنماط مثالية Ideal types وذلك على افتراض ان الأفعال تقوم على أساس عقلي . وفي حالة كون هذه الأنماط المثالية ، التي هي مقولات التحليل ، غير كافية لفهم المسار التجريبي للأحداث فاننا عندئذ نبحث عن عوامل « غير عقلية » irrational واننا لا نفترض ، حتى بالنسبة لهذه الحالة ، وجود « اشياء في ذاتها » غير قابلة للاندماج في اطار نظري متماسك (٤٨) .

ونستطيع ان نؤكد ان فيير يهدف الى كشف الفهم الذاتي لمضمون السلوك الاجتماعي . ولن يتحقق هذا الا بواسطة الأنماط المثالية ، ويعرفها فيير بأنها بناء تصوري يتشكل من ايجاد التآلف بين كثير من

(48) E. A. Tiryakian . Existential Phenomenology and the Sociological Tradition in the American Sociological Review XXX (October 1965) pp. 674 - 88 , p. 679 .

الابعد الواقعية المتفرقة ، التى تنظم بمقتضى وجهة من النظر تسلم الى تصور متسق لهذه الابعاد (٤٩) .

ويمثل النمط المثالى النتيجة المنطقية لعدة اتجاهات فى فكر فيبر . فهو يرتبط من جهة بمفهوم الفهم الذاتى : فكل نمط مثالى ليس الا نظاما من العلاقات المدركة فى داخل كيان تاريخى او تسلسل للاحداث معينة كما يرتبط للنمط المثالى من جهة اخرى بخاصية تميز كل من العلم والمجتمع وهى عملية التعقيل *rationalization* . ان بناء الانماط المثالية ليست الا تعبيرا عن محاولة تتميز بها كافة الانظمة العلمية وهى جعل موضوع الدراسة مفهوما عن طريق كشف (لو بفاء) المعقولة الداخلية . ويرتبط النمط المثالى ثالثا بالتصور التحليلى لبيدا السببية او العلية : فهو يساعدنا على فهم العناصر او الكليات التاريخية الا انه فهم جزئى فى مواجهة كل شامل *total whole* (٥٠) .

وقد استخدم فيبر الانماط المثالية ليشير الى ثلاثة انواع من التصورات :

الاولى : هى الانماط المثالية الخاصة بالوقائع التاريخية المفردة *historical particulars* مثل الرأسمالية او المدنية الغربية (الاوربية) . ويظل هذا النمط اعادة جزئية للبناء لان العالم قد اختار عددا محدودا من السمات من الكل التاريخى لى يقيم وجودا مفهوما . وتعتبر عملية اعادة البناء واحدة ضمن عمليات اخرى ، وبالتالي فان الواقع بأكمله لم يدخل ضمن الصورة الذهنية لعالم الاجتماع .

(٤٩) د . عارف : مرجع سابق ، الجزء الاول ، ص ٦٢
(50) Aron. op. cit. pp. 206 - 207.

الثانية : هى الأنماط المثالية التى تشير الى عناصر مجردة للواقع التاريخى ، وتساعد هذه التطورات على فهم الكليات التاريخية الحالية وتمييزها عن غيرها . ويتضح الفارق بين التصور الأول والتصور الثانى اذا اخذنا الرأسمالية كمثال للأول والبيروقراطية كمثال للثانى ففى الحالة الأولى نقوم بتحديد وجود تاريخى حالى لا يشبه غيره . بينما نشير فى الثانية الى نظام ما او شكل معين من الأنظمة السياسية لا يستوعب النظام كله وانما قد نجد له امثلة عديدة فى فترات زمنية مختلفة من التاريخ .

اما التصور الثالث للأنماط المثالية : فهو الذى يقوم على اعادة بناء نوع معين من السلوك ثم فهمه ، وكمثال على ذلك يرى فيبر ان كل قضايا النظرية الاقتصادية هى اعادة بناء نمطى مثالى للطرق التى كان سوف يسلكها البشر فيما لو كانوا موضوعات اقتصادية خالصة . ان النظرية الاقتصادية تعتبر السلوك الاقتصادى منسقا مع ماهيته essence ومع تحديد واضح لهذه الماهية (٥١) .

لقد رأى فيبر ان تكوين مسار عقلى خالص للسلوك وتوجيهه الى الهدف يفيد علم الاجتماع بفضل سهولة فهمه وعدم غموضه ، وذلك عن طريق اعتباره « نمطا مثاليا » . ومن هنا فان الذى يساعدنا على فهم السلوك الحالى الموجه الى الهدف هى العوامل غير العقلية ذات الأشكال المختلفة (مثل الانفعالات او الأخطاء) والتى نستطيع حينئذ تصنيفها باعتبارها انحرافات عن السلوك الاصلى المفترض (٥٢) .

وقد صنف فيبر الفهم الى فهم تجريبي مباشر لمعنى فعل ما والى فهم تفسيري . الاول هو طريقنا لفهم قضية مثل $2 \times 2 = 4$ عند سماعها

(51) Ibid. pp. 208 - 209 .

(52) Weber. op . cit. p. 22 .

أو قراءتها : اننا في هذه الحالة نمر بخبرة قائمة على الفهم العقلي المباشر للفكرة . وهكذا نستطيع فهم ثورة غضب من خلال التعليقات ، وتعبيرات الوجه والحركات غير العاقلة التي تصحبها .

أما الفهم من النوع الثانى وهو الفهم التفسيرى فيقوم على قدرتنا على فهم دوافع أى فرد يقول لنا سواء شفاهة أو عن طريقة الكتابة ان $2 \times 2 = 4$ ، وذلك فى وقت معين وفى ضوء مجموعة ظروف محددة . ويعتبر هذا فهما عقليا للدافع عن طريق النظر الى الفعل كجزء من موقف مفهوم . وبهذه الطريقة نستطيع فهم ثورة غضب اذا عرفنا أن سببها المباشر يرجع الى الخيرة أو جرح للكرامة أو اصابة للكبرياء وكلها حدثت بطريقة انفعالية وبالتالي ترجع الى دوافع غير عقلية . ان السلوك الذى نقوم بدراسته فى هذا الموقف ليس الا جزءا من سلسلة انفعالات قابلة للفهم . ويعتبر هذا الفهم صادقا للمسار الحالى للسلوك . فاذا كنا نريد علما يتناول المعنى الحقيقى للسلوك فعلىنا أن ندرك أن التفسير يحتاج الى معرفة وفهم لسياق المعنى الذى يحدث خلاله المسار الحالى للسلوك (٥٣) .

ان عملية الفهم اذن هى عبارة عن فهم تاويلى لمجموعات ثلاث : اما فهم لحالات فردية واقعية كما هو موجود فى التحليلات التاريخية ، او فهم لحالات عادية كالتحليلات الاجتماعية ، أو لنوع خالص من البناءات المصاغة علميا والتي تحدث بكثرة كما هو موجود فى البناءات ذات النمط المثالى كالتصورات والبيديهييات فى النظرية الاقتصادية الخالصة (٥٤) .

لقد قبل فيبر منهجى « الحدس » intuition والفهم الذاتى او التأملى verstehen كاشكال لادراك الظواهر الثقافية التى لا ترد

(53) Ibid. pp. 24 - 25.

(54) Loc. Cit.

بحكم طبيعتها الى الظواهر الفيزيائية . وقد استبعد فيبر التأويل المسببي المادى للتاريخ فى ضوء حتمية اقتصادية ، لانه أدرك بوضوح ان السلوك الانسانى غير قابل للفهم بدون الاشارة الى دوافع من يقوم بالفعل من البشر والى المعانى الذاتية التى يضيفها على أفعاله . ويعتبر هذا التأكيد على المعانى الذاتية للموقف الاجتماعى جوهر علم الاجتماع الفيبرى . ويعبر منهج الفهم الذاتى لدى فيبر عن الفنونولوجيا الوجودية لانه يتطلب من الباحث الاجتماعى ان يكشف عن المعانى الذاتية الموجودة فى الظواهر التاريخية ثم يقوم بربط مجموعة من المعانى بمجموعة أخرى - مثلا ربط الفعل الاقتصادى بالدافع الدينى . لقد رأى فيبر أن المهمة الرئيسية للبحث الاجتماعى تنحصر فى تبسيط أبعاد البناءات الاجتماعية التاريخية ، ويختلف هذا تماما عن محاولة صياغة قوانين اجتماعية سببية قد تملك ضمنا وجهات نظر حتمية للباحث نفسه (٥٥) .

ويقول فيبر فى اطار الفهم الذاتى أو التأويل بمفاهيم أربعة يركز عليها الانسان خلال عملية الفهم أو التأويل :

العنصر الأول من عناصر الفهم : هو « التفسير » أو « التأويل » وهو ما يسميه فيبر Denten ويتعلق هذا العنصر بالحالات الذاتية أو العقلية التى تتوظف فى محاولة الكشف عن « المعانى » من أجل التفسير أو التأويل (٧٦) .

أما العنصر الثانى من عناصر الفهم : فهو ما يسميه فيبر Sinn وهو التعبير المرادف للكلمة الانجليزية meaning حيث أن « المعنى »

(55) Tiryakian . Existential Phenomenology op. cit. p. 679.

(56) M. Weber. The Theory of Social and Economic Organizations trans. by Hindesson. Glencoe, 1947 pp. 88 - 89 Quoted in .

هو العنصر الضروري من عناصر الفهم ، حين يكشف المعنى عن طبيعته
موضوع التفسير الذى هو « الفعل » أو السلوك الاجتماعى .

والعنصر الثالث من عناصر الفهم : هو ما يسميه فيير *Handeln*
وتشير هذه الكلمة الى موضوع التفسير وهو الذى يتجلى فى الظواهرات
العينية المشخصة ، تلك الظواهرات التى تتعلق بالسلوك الانسانى .
وأخيرا يشير فيير الى العنصر الرابع : وهو ما يسميه باسم *Verhalten*
وتشير هذه الكلمة بمعناها الواسع الى كل نمط من أنماط السلوك
الاجتماعى ، كما يتحقق عند سائر افراد بنى البشر (٥٧) .

لقد حاول فيير فهم معنى كل الوجودات سواء الفردية أو الجمعية،
المعاشة أو المختارة ، وذلك بدون اخفاء عبء الضرورات الاجتماعية
التي تضغط علينا أو الالتزام الخاص باتخاذ القرارات التي لا يمكن
التثبت منها علميا ومن المتعذر اجتنابها .

ولقد عبر فيير بصراحة عن تصوره لعلم الاجتماع باعتباره علما
للفعل الاجتماعى . فالانسان باعتباره مخلوقا اجتماعيا ودينيا هو
مبدع القيم والأنسقة الاجتماعية ، وعلم الاجتماع يحاول فهم تلك القيم
والأنسقة أى القيام ببناء الفعل الاجتماعى . ان فيير هو الذى صاغ
تعريف علم الاجتماع كعلم شامل للفعل الانسانى وهذا يعنى فى المقام
الأول استبعاد للتعريف المعروف باسم التفسير الطبيعى أى أنه استبعاد
لاحتمال النظر الى الفعل الاجتماعى فى ضوء الوراثة أو البيئة . ان
الانسان عندما يقوم بالفعل يختار أهدافه ، ويستخدم وسائل معينة ،
ويتكيف مع ظروف قائمة ، ويسترشد بأنسقة للقيم . ويشير كل تقرير
من التقارير السابقة الى جانب واحد من عملية فهم السلوك أى الى
عنصر واحد من عناصر بناء الفعل الاجتماعى (٥٨) .

(٥٧) د . قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣٣٠ - ٣٣١

(58) Aron. op. cit. p. 269.

ثالثا : اتجاه ادموند هوسرل ونظرته الى التفسير :

برز هوسرل (١٨٥٣ - ١٩٣٨) كمؤسس للفنومولوجيا باعتبارها علما جديدا متميزا عن غيره من العلوم الأخرى . واذا كان هوسرل قد اهتم بالخبرة *experience* كغيره من الفلاسفة أو العلماء ، الا انه اختلف عنهم في تأكيده على الخبرة المعاشة بشكل موضوعي غير متحيز . وقد تناول هوسرل موضوعات فنومولوجية متنوعة كالبحث عن الماهية والتأكيد على « قصدية » الوعي ، ومنهج الردّ الفنومولوجي ، وأفكار النزعة النفسية المتطرفة ، والرجوع الى اسئلة متعالية أو ترنسنتالية ، والاهتمام بعالم الحياة . وترتبط هذه الموضوعات ببعضها البعض فلا يمكن فهم احداها بمعزل عن الموضوعات الأخرى .

واذا كانت الفنومولوجيا هي علم « البواهر » فإن بقية العلوم تناولت أيضا البواهر ، فنرى ان علم النفس يتناول البواهر النفسية والعلم الطبيعي البواهر الطبيعية ، والتاريخ أحيانا يدرس الظاهرة التاريخية ، والعلوم الثقافية تتناول البواهر الثقافية . الا ان الفنومولوجيا تميزت عن هذه العلوم جميعا بأنها تتناول كل هذه البواهر المذكورة في كل معانيها ، وذلك على الرغم من اختلاف استخدامات التعبير « ظاهرة » وتعددده في مختلف الأنسقة ، وعلى الرغم من اختلاف المعنى الذي ينسب اليه . ان دراسة الفنومولوجيا للظاهرة تنطلق من منظور متميز : فهي تقوم بتغيير كل المعاني التي تنسب الى مفهوم الظاهرة في كافة العلوم الموجودة وذلك باستخدام طريقة معينة . ويعتبر هذا التعديل خطوة سابقة على ادخال هذه المعاني في مجال الفنومولوجيا (٥٩) .

(59) E. Husserl . Ideas : General Introduction to Pure Phenomenology . Trans . by W. R. B. Gibson London : George Allen and Unwin Ltd. 1931, p. 41.

ان موضوع الدراسة الفنونولوجية هو الخبرات بأنماطها وإبنيتهما .
وقد حرص هوسرل على التمييز بين التحليل الفنونولوجى والتحليل
النفسى لها . فعلم النفس علم تجريبى يدرس الخبرات كأحداث تجريبية
فى عالم تجريبى ، ويشير الوصف والتعميمات الخاصة ، الى خبرات داخل
هذا السياق التجريبى . بينما تتضمن الفنونولوجيا على حد
تعبير هوسرل « ان نضع بين قوسين الشكل الوجودى والتاريخى
للخبرة ، ونركز على الماهيات essences » او « الأنماط المثالية »
التي تمثلها الخبرات . هذه الخبرات اما اننا نملكها او نستطيع تصورها
عن طريق المخيلة . وتهتم الفنونولوجيا بدراسة امثال هذه الماهيات
وتوضيح مختلف العلاقات بينها : فهي تبحث فى الابنية الضرورية للشكل ،
والادراك الحسى ، والحكم ، والاحساسات ... الخ ، باختصار فى كل
ما نراه من خلال ادراك حدس صرف للماهية سواء كانت عامة
generic او محددة specific وينفس الطريقة يعبر علم الحساب
الخالص عن الاعداد ، وعلم الهندسة عن الاشكال المكانية مستخدما
الحدوس الخالصة فى عموميتها الواضحة والمنتجة (٦٠) .

يرى هوسرل اننا لى نحكم على الخبرة - او التجربة - نكون
فى حاجة الى علم يتجاوز حدودها . والأسئلة التى تثيرها الخبرة لا يمكن
ان نستخلص اجاباتها من نفس هذه الخبرة فلا بد لنا من نظرية للمعرفة
لتفسير معطيات الخبرة ، وهذه النظرية الجديدة تقوم على العلاقة
الوثيقة بين الوعى او الشعور والوجود باعتبار ان الوجود متضاف
الى الوعى او الشعور وان الوعى او الشعور هو المحل الوحيد الذى
تتحقق فيه موضوعية الوجود (٦١) .

(60) E. Husserl . Logical Investigations . in E. Pivcevic
(ed.) Phenomenology and philosophical understanding Cambridge
University press 1957 p. VIII .

(٦١) آدموند هوسرل : التاملات الديكارتية ، ترجمة د . نازلى

اسماعيل حسين ، القاهرة ، دار المعارف ، مقدمة المترجم ، ص ٧١

أما المنهج الفنونولوجى فهو ليس منهجا استنباطيا كما أنه ليس منهجا تجريبيا ، وإنما هو ينحصر أولا وبالذات فى الكشف عما هو « معطى » ، والقاء الأضواء على هذا « المعطى » . فهذا المنهج لا يصطنع طريقة التفسير بالالتجاء الى بعض القوانين ، كما أنه لا يقوم بأى استنباط ابتداء من بعض المبادئ ، بل هو ينظر مباشرة الى ما هو فى متناول الوعى ، ألا وهو « الموضوع » . ومعنى هذا أنه يستهدف « الموضوعى » ويحاول الكشف عما اصطللنا على تسميته باسم « الظاهرة » ، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول أن ما يهم أولا وقبل كل شيء ليس هو « الفكرة الذاتية » ، ولا هو النشاط الذى تقوم به الذات (وان كان من الممكن أن يصبح هذا النشاط نفسه موضوعا لمثل هذا البحث) ، بل ما يهمه هو هذا الذى يعرف ، أو يوضع موضع الشك ، أو يحب ، أو يبغض ... الخ ، وحينما تكون بازاء تمثيل خالص ، فإنه لا بد لنا من أن نميز المتصور (بكسر الواو) عن المتصور (بفتح الواو) . ولنفرض مثلا أننا نتصور ذلك الكائن الخرافى الذى يسمونه « القنطور » ، فلا بد لنا فى هذه الحالة من أن نميز بعناية هذا الموضوع نفسه عن أفعالنا النفسية . ومع ذلك فإن هوسل يرفض « الأفلاطونية » : لأنه لا يمكن أن تكون الأفلاطونية صحيحة ، اللهم إلا إذا كان كل موضوع حقيقة واقعية (٦٢) .

ويشبه هوسل الفنونولوجيا بعلم الحساب الخالص ، وعلم الهندسة الخالص ، وكلاهما ليس بعلم تجريبى . لهما بالاحرى يهتمان بأنماط معينة من الأبنية والعلاقات الداخلية بينها ، وتعتبر قضاياها عن الخصائص المميزة لهذه الأبنية بدون أى إشارة الى خصائص تجريبية .

(٦٢) د . زكريا ابراهيم : دراسات فى الفلسفة المعاصرة ،

القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩

انها كما يقول هوسرل « علوم الماهيات أو العلوم الأيدتيكية » (يستخدم هوسرل التعبيرين : ماهية essence وليدتيكى eidetic ليعبر عن نفس المعنى) . ويرى هوسرل أن العلاقة بين الفنومولوجيا وعلم النفس تشبه تماما العلاقة بين الرياضيات والفيزياء . فعلم النفس علم تجريبي مثل الفيزياء ويعتمد على الفنومولوجيا لتوضيح تصوراته الأساسية كما تعتمد الفيزياء على الرياضيات بنفس الطريقة لتوضيح تصوراتها الأساسية . الا ان هذا التشبيه عليه ان يراعى ان الفنومولوجيا تقع من الناحية الفلسفية في مكانة اعلى من الرياضيات لأن التصورات الرياضية نفسها تحتاج الى توضيح فنومولوجى . وتقع الفنومولوجيا في مرتبة اعلى ايضا من المنطق : فمن طريق استكشاف الابنية الأساسية الخاصة بالتفكير والمعرفة يمكن للأفكار المنطقية الوصول الى الوضوح والتحديد المعرفى . اى ان الفنومولوجيا تساعد على توضيح اسس المعرفة ذاتها (٦٣) .

ويمكن تلخيص موقف هوسرل كالاتى : أننا نعبر عن المعرفة بواسطة الأحكام ، ويتم التثبت من الأحكام عن طريق الخبرة البديهية ويوجد نوعين متميزين من هذه الخبرة : الخبرة البديهية المشار اليها باسم الادراك الحسى sense perception ثم الخبرة البديهية التى يطلق عليها هوسرل اسم حدس بالماهية أو حدس ايديتيكي essential or iedetic وهى تهدف الى عيان الماهية التى تغطينا منفذا الى الأنماط والأبنية والعلاقات الخاصة بالمعنى . ان وجود اختلاف أساسى بين هذين النوعين من الخبرة البديهية اى بين النظرة الحسية والنظرة الماهوية هو فى حد ذاته واقعة فنومولوجية . ويريد هوسرل من وراء ذلك أن يبين أن هذا مرتبط بتعطيل الخبرات ذاتها ، لأن الخبرات نفسها يمكن أن تخضع للحدس الأيدتيكى وأننا لنستطيع

(63) Husserl Logical Investigations in Pivcevie op. cit.

P. VIII.

بالتفكير الفينومولوجى أن نتجرد من كل الاعتبارات الوجودية المرتبطة بالخبرات مثل الأحداث التجريبية ثم نركز فقط على البناء الأيديتيكى . ويعطينا هذا - فى حالة الخبرات المعرفية ، وهى التى يهتم بها هوسرل بشكل خاص - امكانية التوصل الى استبصارات معرفية هامة كما يسمح لنا بتوضيح الافتراضات الأساسية لكل دعاوى المعرفة (٦٤) .

ان بيت القصيد فى الفينومولوجيا اذن ليس هو هذا المنهج الذى اراد هوسرل أن يضعه للوصول الى الماهيات ، بل هو نظرية « التحقق » التى اراد هوسرل من وراءها توفير البيانات اللازمة ، والبدايات المطلوبة لتحقيق الحدث ذهنى . فليست البدايات « ضمانا » يكفل الحقيقة ، بل هى مجرد علامة أو قرينة على الحقيقة ، علامة أو قرينة تقبل التعديل والتصحيح والنقد والتكملة المستمرة . ولما كان جوهر عملية التفكير - فى نظر هوسرل - انما هو القصد أو التصويب : بمعنى أن الفكر يتجسده دائما نحو موضوع عال على الفعل الذى يكونه ، فان نظرية البداية عند هوسرل تتخذ طابعا جديدا يتلائم مع هذه النظرة القصدية الى الوعى أو الشعور . وهنا يقرر أن عملية « التصويب » أو « القصد » تحتل اشكالا عدة وتتخذ أنماطا مختلفة ، تقابلها اشكال عدة وأنماط مختلفة من « البدايات » أو « البيانات » (٦٥) .

وقد ادخل هوسرل فى فلسفته تصورات او مفاهيم جديدة مثل « وعى أو شعور متعال » ، « ذاتية متعالية » ، « ذات متعالية » . ان كراهية هوسرل للنسبية فى أى شكل من اشكالها ، ورغبته فى استبعاد أى اقتراح لعلم نفس متطرف من نظريته عن الأفعال القصدية ، واهتمامه المركز بالشروط القبلية لامكانية التوصل الى معرفة موضوعية ، كل هذا ادى به

(64) Ibid. p. IX.

(٦٥) د . زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .

الى بفضيل وجهة نظر متعالية ومن هنا اتجه الى منهج خاص يسمح له بتطوير الفنونولوجيا « كعلم متعال » .

ونظر هوسرل الى الوعى باعتباره دائما وعيا بشئ ما ، لذا وجد جانبان متكاملان للوعى :

الاول : هو عبارة عن العملية التى اعى بها ذاتى (الكوجيتو) ، وهى تأخذ اشكالا مختلفة (التذكر ، الادراك الحسى ، التقويم) .

والثانى : هو موضوع الوعى *cogitatum* . ويقوم العالم الفنونولوجى بدراسة الوعى بواسطة منهج خاص هو منهج « الرد الفنونولوجى *phenomenological reduction* ، ويحاول هذا المنهج كشف عالم الوجود (الوعى « الخالص ») الذى يظل غير متأثر بالأفكار التى نحملها فى مواقفنا الطبيعية : ويعتبر النظر الى الوعى باعتباره منطقة « فريدة » من الوجود احد المبادئ الأولى للفنونولوجيا . ويمكن كشف هذه المنطقة بواسطة المنهج الفنونولوجى مع الاحتفاظ بها سليمة لا تتشوه او تتغير من جراء هذا المنهج . وهكذا يظل الوعى منبع أو أصل الكائن كله ، ولا يمكن التوصل الى خصائصه الرئيسية الا عن طريق تحليلات وقائية او طبيعية او نفسية او اجتماعية . وهكذا تبدو الاسس الاصلية للوعى الخالص مفتوحة امام الوصف القصدي والحدسى للمنهج الفنونولوجى وحده (٦٦) .

وهكذا نرى أن منهج الرد لا يمت بصلة الى المعنى الذى رأيناه لدى

(66) M. Phillipson , *Phenomenological philosophy and sociology* in P. Felmer, M. Phillopson, D. Silverman, D. Walsh. *New Directions in Sociological Theory* . London : Collier, Macmillan Press 1973, pp. 119 - 163 , p. 123.

الاتجاهات الوضعية باعتباره احتزال شيء أو تفسيره بالرجوع الى شيء آخر . ان الرد فى الفنونولوجيا هو الرجوع الى الأصل أى الى الأشياء الأولى التى أصبحت غامضة أو اختفت أو حجبت بواسطة أشياء أخرى .

ولا شك ننا نرى عبارات مختلفة للتعبير عن نفس المنهج ، فأحيانا يقال الرد وأحيانا يقال الابوخية epoché وقد يقال وضع العالم خارج اللعبة أو تعليق الحكم ، أو وضع العالم بين قوسين . . . الخ . وفى الواقع أن هذا المنهج يقوم على تمييز هوسرل بين الموقف الطبيعى الذى يوضح كل من نظرة العلوم الطبيعية والثقافية الساذجة ونظرة الحس الشائع للحياة اليومية وبين موقف الشك الراديكالى المؤدى الى إيقاف الاعتقاد فى العالم وذلك بواسطة عملية الرد الفنونولوجى . فإذا ما قمنا باستبعاد أحكام موقفى الطبيعى المقروغ منه فأنى أجد نفسى فى مواجهة الموضوعات القصدية الخاصة بوعى الخالص وحدها . ان ما يتبقى اذن هو كل ما هو « حقيقى » و « موضوعى » ومتضمنا لمعلوماتى عن الخبرة الحدسية ، وهو ما تحاول الفنونولوجيا الوصول اليه ووصفه .

لقد دعى هوسرل الى دراسة وقائع الفكر والمعرفة دراسة وصفية محضة ، دون المخاطرة بوضع أى فرض ميتافيزيقى كائنا ما كان ، على طريقة كل من المثاليين والواقعيين . ولئن كان هوسرل قد نادى بالعودة الى الأشياء نفسها ، الا أن هذه الدعوة لم تكن فى صميمها سوى مجرد رفض لشتى الأنظار الميتافيزيقية ، من أجل رؤية ما تنطوى عليه « معطيات » الشعور نفسها على نحو ما نعيشها فى صميم خبرتنا ، دون التقيد بأى رأى سابق ، أو دون الأخذ بأى تفسير مسبق . ان « فلسفة الظواهر » تأبى منذ البداية الانتقال الى « التفسير » لأن تفسير اللون الأحمر الذى يضيء لى الآن مكتبى انما يعنى الانتقال الى « شيء آخر » غير هذا اللون العينى الذى أفكر فيه ، من أجل الانتباه الى ظاهرة أخرى كالشدة أو الذبذبة الضوئية أو ما الى ذلك . وعلى حين أن عالم الطبيعية يترك الشيء نفسه لكى يفسره بظاهرة أخرى أو علاقة أخرى ، نجد أن فيلسوف الظواهر

يريد ان يبقى وجهها لوجه بازاء هذا الشيء لكى يقتصر على وصفه واكتشاف واجتلاء حقيقته (٦٧) .

والحق ان هوسرل قد اظهرنا على ان الانسان ليس منطقة من مناطق الطبيعية ، تربطها بالعالم الخارجى بعض العلاقات السببية ، وانما هو وعى اصيل هيهات لنا ان نجعل منه مجرد موضوع يقبل التفسير . ومعنى هذا ان كل حالة من حالاتى النفسية ، سواء اكانت رغبة ، ام انفعالا ، ام صورة ذهنية ، لا يمكن ان تعد مجرد حلقة فى سلسلة طبيعية من العلل والمعلولات ، بل لا بد من العمل على « فهم » العلاقة الايجابية التى تربطنى بكل حدث من أحداث حياتى النفسية ، حتى أتحقق من أننى فاعل مسئول ، واننى الاصل فى شتى مظاهر سلوكى (٦٨) .

ولا تخرج الفونومولوجيا بهذا المعنى عن كثير من الدعوات المعاصرة المشابهة التى تحاول البحث عن بعد انسانى خاص بعلوم الانسان ، لا يتمثل فى التجارب الحسية كما كان عند التجريبيين ابتداء من يكون حتى الوضعية بكل صورها . . . ان الفونومولوجيا دعوة للحياة التى لا يمكن وضعها فى نطاق العقل أو فى نطاق المادة (٦٩) .

لقد عملت أزمة العلوم الانسانية على ظهور نزعة لا عقلية متطرفة ، حتى أصبح الكثيرون يعدون « النزعة العقلية » نفسها مجرد ناتج تاريخى عرضى لبعض الظروف الخارجية . ولهذا فقد وج د هوسرل نفسه مضطرا الى اثاره مشكلة اساس العلم بصفة عامة ، واساس العلوم الانسانية بصفة خاصة . وقد كان الحافز له على اثاره هذه المشكلة هو اهتمامه البالغ

(٦٧) د . زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٣٦٤ .

(٦٨) المرجع السابق ، ص ٣٦٩ .

(٦٩) د . حسن حنفى : الظاهريات وأزمة العلوم الاوروبية ، الفكر

المعاصر ، ع ٩ يناير ١٩٧٠ ، ص ٠ ص ٣٨ - ٠٥٠ ، ص ٠ .

بتثبيت دعائم الفلسفة ، وحرصه الشديد على إعادة بناء « اليقين » (٧٠) .

ولا شك أن هوسرل قد اهتم بالعلوم الطبيعية ، الا أنه حاول دائما أن يبتعد عن المبالغة في تقدير علم معين أو منهج معين . ولم ينظر هوسرل الى العلم الطبيعي كنموذج للمعرفة أو كمثل أعلى يجب على العلوم الأخرى أن تحتذيه أو كطريق وحيد لكشف الحقيقة ، وبذا تميز بوضوح عن الاتجاه الوضعي الذي سبق أن رأينا كيف أنه اشتق تصوره للمعرفة من العلم التجريبي نافيا امكانية أى طريق آخر .

لقد رأى هوسرل أن العلم الحديث لا يستطيع بعد أن فصل نفسه عن الفلسفة أى يقدم أجوبة على بعض الاسئلة الاولى التى يضعها الانسان فى كل زمان . لقد قامت النزعة التجريبية فى الفلسفة الحديثة ابتداء من لوك وهيوم على الاكتفاء الساذج بالعلم كنتيجة طبيعية للفصل بين العلم والفلسفة مما ادى بالعلم الى العجز عن فحص افتراضاته الخاصة . اذا رأى هوسرل ان هذا الاتجاه التجريبي لم يكن جادا فى توضيح أسس العلم ولن يستطيع حل « أزمة » العلم الحديث . كل ذلك بسبب انفصاله عن الموضوعات الأساسية للحياة التى تملك معنى خاصا بها (٧١) .

ان نظرة هوسرل الى العلم الطبيعي قائمة على كون الذات *subject* والموضوع غير منفصلين . فالذات لا تمثل شيئا بدون العالم ، فهى دائما « ممثلة » بهذا العالم بسبب قصدية الوعى أو الشعور . والموضوع يحتاج الى التثبت داخل الوعى الذاتى . ولما كانت العمليات العلمية بالمفهوم الفنونولوجى هى أفعالا للوعى ، معقدة فى

(٧٠) د . زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٣٦٧ .

(71) T. Luckman. *Philosophy, Science and everyday Life*. in M. Natanson . *Phenomenology and the Social Sciences* Op. Cit. pp. 143 - 185, p. 144.

بنائها ومتميزة وقصدية ، فان واقعية العلوم تقوم على تلك الأفعال المحددة التي يقوم بها الأفراد بطريقة تجعلها معطاء على أساس أنها أفعال عادية للوعي (٧٢) .

ان الظاهرات لم تجعلنا فى الواقع نفقد العالم بوصفه موضوعا ظاهريا فى « التعليق » الكلى من حيث وجود أو عدم وجود العالم .
أننا نحفظ به بوصفه الموضوع المفكر فيه . . . ان الوعي أو الشعور بهذا الكون هو دائما حاضر فى وحدة الوعي أو الشعور الذى يمكن ان يصير هو ذاتا وعيا أو شعورا ادراكيا ، بل هو يصبح بالفعل فى صورته اللانهائية فى المكان والزمان (٧٣) .

ولا يعتبر عالم العلم عالما ثانيا يجاور عالم الواقع اليومى أو يتعال عليه ، بل هو هذا العالم نفسه : يعاش ويختبر من جهة ، ويدرس بطريقة موضوعية من جهة أخرى . وقد أدى هذا التفكير بهوسرل الى موضوع أساسى طرحه فى سؤال هام : كيف يمكننا ان نفهم الموضوعية فى العالم بواسطة العلم ، وكيف يمكن ان نفهم العلم بشكل عام باعتباره انجازا للفاعل نفسه actor ؟

واذا كان مبدا الذاتية فى فنومنولوجيا هوسرل هو الذى ابى التفرقة بين ذات وموضوع ، فهو ايضا الذى أدى الى موضوع الرد الفنومنولوجى .
وقد قامت هذه العملية عند هوسرل على القول بالتوقف عن الحكم تجاه

(72) E. Ströker « Edmund Husserl's Phenomenology as Foundation of Natural Science in The Latter Husserl and the Idea of Phenomenology. Papers and Debates of the International Phenomenological Conference : Univ. of Waterloo Canada. Ap. 9 - 14 , 1986.

(٧٣) هوسرل : التاملات الديكارتية ، ص ١٤٥ .

كل من الأفعال المرتبطة بالوجودات ، وكافة اشكال الوجود التى تتخذها الموضوعات القصدية ، وتلك التى تصاحب كل أفعالنا المرتبطة بتفكيرنا اليومى كما فى تفكيرنا العلمى . ان هذه العملية لا تقوم على سلب العالم من كافة اشكال الوجود ، وانما تهدف الى التفكير فى الأحكام والمعتقدات مستخدمة منهج التحليل القصدى الذى يتيح التعمق فى الوقائع . ويؤدى هذا الى التوصل للأبنية الحقيقية للوعى . وينتهى هوسرل الى القول بأن كافة العمليات والأشياء الموضوعية تجد أساسها فى مبدا الذاتية (٧٤) .

وما دام العلم الطبيعى يسعى الى معرفة لها طبيعة خارجية فقد اثار هوسرل سؤالين هما : كيف يمكن للطبيعة وهى شئ خارجى أن تكون معطيا للوعى ؟ وبأى طريقة من طرق التفكير يمكن للموضوعية العلمية أن تتكشف ؟ (٧٥) وقد توصل هوسرل الى القول بأن الطبيعة لا تعنى شيئا الا اذا ارتبطت بوعى انسانى ، وبشكل جسد لى لهذا الوجود الانسانى . ويوحى هذا التفكير بأن فلسفة هوسرل تنظر الى الكائن الحى باعتباره ليس فقط أصل الطبيعة وانما هو أيضا أصل العلم الطبيعى . ان الانسان اذن هو أساس العلم ، ويرجع هذا الى مجرد وجوده كإنسان مما يجعل الطبيعة موضوعا علميا له . أما عن السؤال الثانى وهو بحث كيفية قيام العلم الطبيعى فى شكله الموضوعى ، فينتهى فيه هوسرل الى القول بأن الموضوعية بمعناها الخاص تعنى كيفية معينة من القضايا والتقارير الخاصة بموضوعات محددة وتلقى تأييدا من الجميع ، أى ان الموضوعية لا يمكن التوصل اليها الا بتعدد الذات . معنى ذلك ان الموضوعية تشير بالاضافة الى الذاتية *subjectivity* الى التواصل أو العلاقة بين الذات *intersubjectivity* .

(74) Stroker. op. cit. p. 252 .

(75) Ibid. p. 253.

وهكذا يصل هوسرل الى اساس العلم وهو الذاتية . لقد جـسـاول
هوسرل اثبات ان العلم لا يتكون فقط بواسطة افراد عن طريق بعض
الانجازات الخاصة بالوعى ولكن أكثر من ذلك حاول أن يبين ان هذه
الانجازات تجد أسسها فى الوجود الجسدى للفرد ذاته (٧٦) . ويقول
هوسرل فى هذا الصدد : « ان العلم الانسانى هو علم الذاتية الانسانية فى
علاقتها الواعية بالعالم كما يبدو لها وكما يؤثر فيها عن طريق العقل
والعاطفة ، وهو أيضا علم العالم باعتباره محيطا بالأفراد أى العالم كما
يبدو لهم بما يملكه من صدق (٧٧) » .

لقد عبر هوسرل فى كتابه « ازمة العلوم الاوروبية » عن الوضع
الخطير الذى نجم عن فقدان الصلة بين العلم وكل من اهتمامات الانسان
العميقة وقيمة وتطلعاته فى الحياة ، وذلك على الرغم من تقدم العلم او
بسبب هذا التقدم . وليست الطبيعة كمجال للبحث العلمى واقعا بمقدور
الانسان ان يفهمه باعتباره مجالا للحياة الفعلية . ففى الواقع ان تقدم
العلم صاحبة ابتعاد الانسان عن الواقع المتكشف علميا . لقد حاول
هوسرل فى هذا الكتاب أن يحلل هذا الوضع ابتداء من ديكارت وجاليليو ،
ويطالب هوسرل كحل لهذه الازمة ان تقوم الفلسفة بدور فعال عن طريق
المحافظة على المعلومات وتجديدها فى الوعى ، والبحث عن مصدر
العلم واسسه الواقعية والتاريخية . وهكذا نشأت الفنونولوجيا المتعالية من
اجل انقاذ العلم الأوروبى المهتد . والمنهج المطلوب هو المنهج المتعال وذلك
من اجل بيان الشروط الذاتية للمعرفة العلمية وبالتالى الموضوعية التى
تكونت معها . ان هوسرل ينظر الى العلم هنا ليس كمجرد بناء نظرى ولكن
باعتباره أعلى شكل من اشكال النشاط الانسانى Praxis ، الذى وصل

(76) Ibid. p. 255 .

(77) E. Husserl. The Crisis of European Sciences and
Transcendental Phenomenology . Trans. by D. Carr. Evanston :
Northwestern Univ. Press. 1970, p. 318.

الى المرحلة الحالية بعد ان تطور تاريخيا ومعنى ذلك ان الموضوع المتعال يتضمن التاريخ لانه يتضمن اشكال الذاتية التى يعيشها الانسان فى حياته الفعلية . ان مطالبة هوسرل باساس فلسفى للعلم رجع الى رغبته فى معرفة كيف ينتمى العلم الى عالم الحياة life - world وكيف يجد فيه اساسه من الناحية التاريخية ، واخيرا لمعرفة اين يقف العلم اليوم (٧٨) .

ان القضية العامة للموقف الطبيعى فى نظر هوسرل تشير الى ان العالم الطبيعى كله موجود « هنا ، من اجلنا » وفى متناول ايدينا ، وسوف يظل دائما هنا ، هذا العالم الطبيعى هو « عالم الواقعة » fact world الذى نظل مستمرين فى الوعى به (٧٩) . ان الموقف الطبيعى بالنسبة لهوسرل ليس الا الموقف الساذج للذات ، ويتميز بالتفكير العملى للحياة اليومية حيث توجد العوالم الاجتماعية والطبيعية وحيث تؤخذ هذه العوالم كشيء مسلم به ان توضيح هوسرل للموقف الطبيعى ووصفه له هى اولى خطوات الوصول الى دراسات عن العالم المتعال للوعى الخاص ، وهكذا مهد هوسرل الطريق لالتقاء الفنونولوجيا بالعلوم الانسانية .

واهتم هوسرل بعلم النفس وموقعه من العلوم الانسانية متتبعا فى ذلك خطى استاذة « برنتانو » . وقد لقى علم النفس فى هذا العصر - اواخر القرن التاسع عشر واولئل العشرين - اهتماما خاصا ، واعتبر علما اساسيا لكل علوم الانسان . وقد نتج عن هذا الاهتمام فى هذه الحقبة الزمنية شكلين من اشكال البحث والمنهج : الاول طبيعى علمى : والثانى انسانى ، مما ادى الى ثنائية داخل هذا العلم . واننا لنجد فى كتاب هوسرل « افكار » اقرارا بوجود الاتجاهين ، وقد طور هوسرل تصوره

(78) Ströker . op. cit. p. 256.

(79) E. Husserl. Ideas. London : Allen & Unwin 1967 p. 110

Quoted in Phillipson op. cit. p. 127.

فى كتاب « الأزمة » . وقد اعترف هوسرل بالاتجاهين من حيث المبدأ ،
ورأى امكانية تعريف الروح *the spirit* باعتبارها معتمدة على الطبيعة ،
وذلك حتى يمكن أن تصبح هى نفسها طبيعية . الا ان ذلك يحدث فى
حدود معينة اذا تجاوزناها افتقدنا كل ما يضى معنى على الطبيعة .
ان الطبيعة هى مجال النسبى ، ويتعلق النسبى فى النهاية بمطلق واحد
يؤيدها هو الروح *The spirit* .

ويربط هوسرل بين الفنونولوجيا وبين اساس الدراسات الانسانية
وذلك داخل علم عام للعقل . فقد ايد هوسرل منهج العلوم الانسانية
باعتبارها تعتمد على حدس واقعى للعالم كما يبدو لنا بشكل مباشر ، اى
عالم الحياة الذى نعيش فيه كبشر . وبالتالي فان هذا العالم هو اساس
الدراسات الانسانية . ويرجع هذا الاتجاه الى ان الفنونولوجيا نفسها
قد تبنت وصف عالم الحياة كاساس للوصول الى الدقة والموضوعية والقدرة
على الفهم والتفسير (٧٠) .

وتعتبر كتابات هوسرل فى هذا الموضوع كرد فعل للنزعة النفسية
المتطرفة *psychologism* ويمكن النظر اليها كمحاولات لتقديم اساس
فلسفى سليم لكل من علم النفس وعلوم الانسان والعلوم الطبيعية . فعلوم
الانسان التى تفسر خبرات الانسان كما تحددها الاسباب الخارجية او
الداخلية - وسواء كانت نفسية متطرفة ، او اجتماعية متطرفة *sociologism*
او تاريخية متطرفة *historicism* - تتعرض لفشل . لقد رأى هوسرل
ان علم النفس الطبيعى الذى يضع نفسه على غرار العلوم الطبيعية ، كما
يفعل علم الاجتماع ، يفشل فى معرفة حدوده ، وذلك لأن « معنى »
الظواهر التى يدرسها يفلت منه . لقد رأى هوسرل ان التصورات والمناهج

(80) K. Kuypers. The Sciences of Man and the Theory of
Huserl's two Attitudes in The Latter Husserl op. Cit. pp. 186 -
195 , p . 197 .

غير الواضحة والمشوشة لعلم النفس تقوم بفرض مضمون وشكل معين على الخبرة ، ويرجع هذا الى قيامه باستبعاد المعطيات الظاهراتية phenomenal للخبرة . ان المنهج الصحيح فى نظر هوسرل هو الذى يتبع طبيعة الاشياء التى تدرس وليس توقعاتنا او تصوراتنا المسبقة (٨١) .

نجد اذن ان هوسرل بدأ متأثرا ببرنتانو وانتهى كناقذ لاتجاهه النفسى المتطرف ، ذلك ان اهتمامه المستمر بالمنطق ومشكلة المعنى ادى الى الاقتناع بأنه لا يمكن تفسير العنصر الموضوعى فى المعرفة ابتداء من مقدمات نفسية . ولا يمكن ادراك الذاتية عن طريق نزعة نفسية متطرفة لاننا لا بد ان نضع فى الاعتبار الجانب الذاتى للمعرفة كما اننا نحتاج الى تصور معين للذاتية . لقد انحصر اهتمام هوسرل فى معرفة الطريقة التى تساهم بها القصدية للتوصل الى تفسير الشروط العقلية للحقيقة الموضوعية .

كما ان علم النفس عند برنتانو يهتم بدراسة الموضوعات الفردية من حيث هى فردية . اما ظاهريات هوسرل فهى تعنى بدراسة الموضوعات من حيث هى جزئية وكلية ، اى من حيث هى ظاهرة وماهية . ان الرد الماهوى او رد الاشياء الى ماهياتها هو اهم ما يميز الظاهريات الجديدة عند هوسرل عن علم النفس عند برنتانو (٨٢) .

وينطبق النقد الموجه الى علم النفس على الاتجاه السوسولوجى وذلك سواء بالنسبة للتصورات التى تقف خلف النظرية او بالنسبة للمناهج التى تتخذ من العلوم الطبيعية مثالا لها . لقد اغفل الاتجاه السوسولوجى بدوره معنى ظواهر الوعى واستخدم مناهج لا تصلح لها .

(81) El. Husserl Phenomenology and the Crisis of Philosophy. New York Harper Torch Books 1965 p. 102 Quoted in Phillipson op . cit . p. 121 .

(٨٢) هوسرل : التأملات الديكارتية ، مقدمة المترجمة ، ص ٢٢ .

أن النقد الهوسرلى للعلوم الانسانية يقوم على الحاجة الى اعادة تعريف لكل من موضوعات الدراسة ، والمناهج ، والتفسيرات الاجتماعية وذلك فى ضوء منهج فنومنولوجى يقوم على الرجوع الى الأشياء الخاصة بالوعى ذاته (٨٣) .

ان حديث هوسرل عن الدراسات الانسانية ودفاعه عنها يؤدى الى جعلها ذات أولوية على العلوم الطبيعية ، ما دام فى استطاعتها التوصل الى عمق فلسفى لا تقدر عليه العلوم الطبيعية . ان العلوم الاجتماعية هى علوم الذاتية وهى علامة الصدق فى نظر هوسرل . ان الدراسات الانسانية فى شكلها الاصيل هى الحقيقية ولا بد ان تحتفظ بالشكل الحدسى فى تطورها التالى . ان العلوم الطبيعية ليست الا مشروعاً جماعياً يساهم فيه العلماء ويمكن من خلال سير هذه العلوم نحو الدقة والموضوعية تفسيرها وفهمها بواسطة الاتجاه التاريخى وحده (٨٤) .

لقد اعترف هوسرل بوجود علم موضوعى للدراسات الانسانية فى مواجهة الدراسات التاريخية كما انه اقر بوجود علم فنومنولوجى قبلى للوجود . ويقوم العلم الموضوعى فى نظره على امكانية بناء عالم الخبرة الوقائى وذلك بطريقة رياضية . نجد إذن ان هوسرل على الرغم من اعترافه بالسيكوفيزيقا وبشكل موضوعى بالدراسات الانسانية ، نجسده يعمل حدسياً بواسطة مناهج فيزيائية ورياضية . الا ان اساسه الاول والرئيسى لكافة الدراسات الانسانية هو الذاتية (٨٥) .

ولا يسعنا فى ختام حديثنا عن هوسرل الا ان نؤكد أن قوله بالوعى ، والماهية والمعنى والقصدية والحدس والذاتية ، لا يعنى مطلقاً رده الى

(83) Phillipson op. cit. p. 122.

(84) Kuypers op. cit. p. 192.

(85) Ibid. p. 193 .

اتجاه مثالى وانما هو رجوع الى اصول الاشياء وطبائعها الاصلية بهدف الكشف عنها . وقيام منهج الدراسة الايدتيكى على الوصف المجرد للوعى ليس الا محاولة لتفسير معنى عالم الحياة . ومن هنا كان اهتمام هوسرل اساسا بالعلوم الانسانية لأنها مجال النشاط الانسانى ذو المعنى ، الذى هو فى وقت واحد هدفا للدراسة ووسيلة او عملية تتحقق بواسطتها الدراسة .

لقد أرادت الفنومولوجيا للفلسفة أن تصبح علما دقيقا فتقوم بدراسة الظواهر ، بهذا المعنى الخاص « للظاهرة » الذى اضافها عليها هوسرل والمتمثل فى محاولة الوصول الى عالم الماهيات من خلال ما هو معطى أو ما هو متبدى فى الوعى . لقد رفض هوسرل النزعات الاسمية التجريبية التى تفسر الاشياء فى ضوء علل واسباب اى بالرد او الرجوع الى أشياء اخرى غريبة عنها ، ومن هنا وقوعها فى النسبية . بينما حاول هو التركيز على المضمون القصدى للخبرات المنطقية مستخدما المعنى الخاص للرد الذى يقوم على تنقية ظواهر الوعى من كافة الشوائب الغريبة عنها توصلا الى الاشياء الاصلية .



رابعا : اتجاه الفرد شوتز ونظريته الى التفسير :

كان شغل شوتز (١٨٩٩ - ١٩٥٩) الشاغل هو اقامة علم اجتماع على اساس اعتبارات فنومولوجية مع تقديم امس فلسفية متينة لمنهج العلوم الانسانية . وقد تآثر شوتز فى سعيه لتحقيق هدفه بكل من دلتاى فى رفضه للتفسيرات السببية المستخدمة فى العلوم الفيزيائية كنموذج لاكتساب معرفة بالعالم الانسانى القائم على التوصل بين الذات ، كما تآثر بتحليلات ريكرت عن الفارق المنهجى بين كل من العلوم الفيزيائية والعلوم الاجتماعية . كما تآثر شوتز بالانماط المثالية التى قدمها فيبر

وبعلم الاجتماع الفبيرى . اما بالنسبة لأعماله الفلسفية فقد استقى تصورات من هنرى برجسون ومن هوسرل خاصة فى قيامه بتطبيق فنومنولوجيا هوسرل على مشاكل الواقع الاجتماعى .

واكد شوتز على ان الحل الملائم للمشاكل المنهجية الاساسية فى علوم الانسانية يكمن فقط فى الوصف الدقيق للجانب الانسانى لموضوعات تلك العلوم . وقد رأى ان هذا موجود فى الفنومنولوجيا التى قدمها هوسرل . ويتبقى على شوتز تطبيق المنهج الفنومنولوجى على العالم الاجتماعى الذى هو نتاج كل من الفعل الرمزى الانسانى والعمل المادى . وتعتبر محاولة شوتز لتوضيح العلاقة بين مناهج ونظريات العلم الاجتماعى والاسس التجريبية اى عالم الحياة اليومية ، تعتبر مساهمة فى تطبيق افكار هوسرل على العلوم الاجتماعية (٨٦) .

ان مهمة الفيلسوف الفنومنولوجى المهتم بالواقع الاجتماعى تتمثل - فى رأى شوتز - فى القيام بكشف ووصف وتحليل الخصائص الاساسية للعالم الدنيوى Mundane world ، ومن هذا المنطلق أخذت كل كتابات شوتز ابتداء من مؤلفه « فنومنولوجيا العالم الاجتماعى » عام ١٩٣٢ حتى مجموعة مقالاته التى نشرت بعد وفاته ، أخذت كنقطة انطلاق وكموضوع يحتاج الى دراسة مفصلة ، واقع العالم اليومى .

وقد اكد شوتز منذ البداية على ان الهدف التاويلى لعلم الاجتماع هو فهم المعنى الذى يضيفه الفاعل على فعله ، اى المعنى الذى يملكه بصدده ولا يعنى هذا مجرد فهم للمعانى الموضوعية للفعل الاجتماعى . وقد قامت الفنومنولوجيا لديه على عالم العمل فى الحياة اليومية ، وعالم

(86) A. Schutz and T. Luckmann. The Structures of the Life - World. Trans. by R. M. Zaner and H. T. Engelhardt London : Heineman 1974 , preface p. XIII

الحس الشائع الذى كان يسميه هوسرل Lebenswelt
اى عالم الموقف الطبيعى . وقد رأى شوتز ان الفعل action
وليس الادراك الحسى Percption هو نقطة بداية ملائمة للعلوم
الاجتماعية (٨٧) .

ولم يمنع تأثر شوتز بفنومولوجيا هوسرل وبنظرية الفعل الانسانى
عند فيبر انطلاقة فى استقلال عنهم ، فكانت مجموعة مقالاته وعددها
٣٠ مقالا التى جمعت وترجمت فى مؤلف من ثلاثة اجزاء نشر بعد وفاته
تحت عنوان « مجموعة مقالات » Collected Papers . الجزء الاول
نشر عام ١٩٦٢ وعنوانه « مشكلة الواقع الاجتماعى » The Problem
of Social Reality ، والثانى نشر عام ١٩٦٤ ، وعنوانه « دراسات فى
النظرية الاجتماعية » Studies in social Theory . والثالث نشر عام
١٩٦٦ وعنوانه « دراسات فى الفلسفة الفنومولوجية »
Studies in Phenomenological Philosophy .

وقد نوقشت فى هذه المقالات موضوعات واسعة ومتعددة تنتقل
من دراسة التواصل ، والعلاقات والرموز ، واللغة ، والتميط والمعرفة ،
والواقعيات المتعددة ، والفعل الاجتماعى ، الى دراسة منهج العلوم
الاجتماعية . ثم الى دراسة المناقشات النقدية لكل من ويليم جيمس وماكس
شيرل وجون بول سارتر وبالطبع هوسرل (٨٨) .

لقد اكد شوتز على منهج الفهم الذاتى واعتبره اداة فنية للتعامل
مع الشئون الانسانية ، فهو ليس مجرد طريقة يستخدمها العالم الاجتماعى
ولكنه الشكل التجريبي الذه يستطيع من خلاله معرفة العالم الاجتماعى

(87) W. Kelly and A. Tallon. Reading in Philosophy of Man.
NewYork McGraw - Hill Book Co. 1972, p. 198.

(88) Schutz op. cit. p. XIII.

الثقافى . ذلك ان الفهم مسألة خاصة بالملاحظ ولا يمكن التحكم فيها عن طريق خبرات الملاحظين الآخرين .

ومؤيد شوتز كون منهج الفهم « ذاتى » ، واذا كان المدافعون عن هذا المنهج أو الناقدون له قد أبرزوا هذه الخاصية – الذاتية – فلا شك ان لديهم اسباب معقولة لهذا . الناقدون يقولون انه « ذاتى » لانهم يرون ان فهم دوافع أفعال الآخرين تعتمد على الحدس وهو موضوع خاص غير قابل للتحكم أو الاختبار . أما المؤيدون من العلماء الاجتماعيين من أمثال فيبر فانهم يصفون الفهم « بذاتى » لانهم يرون ان هدفه هو معرفة ما يقصده الفاعل بفعله فى مقابل المعنى الذى يثيره الفعل لدى شخص آخر ، قد يشترك مع الفاعل فى فعله أو حتى لدى ملاحظ محايد . ان الخلاف يرجع فى نظر شوتز الى الفشل فى التمييز بين الفهم باعتباره شكلا تجريبيا للمعرفة العامة للشئون الانسانية او موضوعا ابستمولوجيا او طريقة معينة للعلوم الاجتماعية (٨٩) .

لقد رأى شوتز ان على السلوكية كنظام موضوعى فى العلوم الاجتماعية ان تفسر بطريقة علمية صحيحة ما يحدث بالفعل فى العالم الاجتماعى لحياتنا اليومية ، الا انها تقع فى خطأ احلال عالم خيالى محل الحقيقية الاجتماعية ، وذلك عن طريق تطبيقها لمبادئ منهجية معينة على العلوم الاجتماعية وهى مبادئ تأكدت فعاليتها فى مجالات اخرى ، الا انها تفشل فى مجال التواصل أو العلاقة بين الذات intersubjectivity (٩٠) . ومن

(89) A. Schutz Concept and Theory Fomration in the Social Sciences in M. Natanson . The Philosophy of Social Sciences op. cit. p. 240.

(90) A. Schutz . The Social World and the Theory of Social Action in Braybrook (ed.). Philosophical Problems in the Social Sciences op. Cit . pp. 53 - 67 . p . 55 .

الضرورى لكى نتوصل الى نظرية للفعل أن نحتفظ بوجهة النظر الذاتية،
التي تفقد النظرية بدونها أهم اسمها ، وبالذات الاهتمام بالعالم الاجتماعى
للحياة اليومية . ان الاحتفاظ بوجهة النظر الذاتية هو وحدة الضمان
الوحيد والكافى للتأكد بأن العالم الخيالى غير الموجود الذى يفتنيه
الملاحظ العلمى لن يأخذ مكان العالم الاجتماعى الواقعى (٩١) .

وقد رأى شوتز أن البناءات العلمية لابد وأن تتضمن إشارة الى
المعنى الذاتى الموجود لدى الفاعل تجاه الفعل ، وهذا ما فهمه فيبر
بمصادرته الشهيرة عن التأويل الذاتى والتى روعيت فى تكوين كافة
النظريات فى العلوم الاجتماعية ، ويجب أن نفهم « مصادرة التأويل
الذاتى » بمعنى أن كل التفسيرات العلمية للعالم الاجتماعى تستطيع أن
تشير ، من أجل أهداف معينة ، الى المعنى الذاتى للأفعال البشر التى
تصدر أساساً عنهم ، بل أنه يجب على هذه التفسيرات أن تشير الى هذا
المعنى (٩٢) .

ويقول شوتز بشأن الأنماط المثالية : « ان عالم الاجتماع يلاحظ
بعض الأحداث فى العالم الاجتماعى باعتبارها نتيجة للنشاط الانسانى ،
ويبدأ من هنا فى تأسيس نمط لهذه الأحداث . ثم يقوم بالتنسيق بين
هذه الأفعال النمطية - وهى نمطية لأن الدوافع التى يفترضها الباحث
لا تتغير فى ذهن الفاعل المتخيل - أى أنه يقوم ببناء نمط مثالى شخصى .
ويقوم العالم الاجتماعى بعد ذلك بوضع هذه الانماط المبنية فى نسق ،
ويحوى هذا النسق كافة عناصر الموقف الموجودة فى العالم الاجتماعى
والمتملة بأداء الفعل النمطى موضوع البحث ، ثم يمضى فى اضافة انماط

(91) Ibid p. 58.

(92) Schutz. Concept and Theory Formation p. 245.

مثالية شخصية أخرى تمتلك دوافع قابلة أن تثير استجابات نمطية تجاه
الفعل الخاص بالنمط المثالى الأول « (٩٣) » -

لقد اعتبر شوتز الفعل ظاهرة غير معزولة ، له «آفاقه» الفنونولوجية
التي تربطه بالواقع الاجتماعى ، وله « دوافعه » ، وتملك الأفعال النمطية
typical acts نوعين من الدوافع : دوافع « الغاية in order to
ودوافع « تسبب because . وتفسر الأولى فى ضوء أهداف
وغايات الفاعل ، وتفسر الثانية فى ضوء خلفية الفاعل وميوله . الأولى
هى الوضع المستقبلى الذى يتحقق بواسطة الفعل المسقط projected
بينما يتحدد المشروع نفسه project بواسطة الدافع السببى الذى
يعتمد بدوره على الفعل الماضى . وتفهم أفعال الآخرين بالكامل اذا أمكن
معرفة دوافعها النمطية بما تتضمنه من اشارة الى المواقف والأهداف
والمعان النمطية (٩٤) . ومعنى ذلك أن الموضوعات الاجتماعية لا تفهم
الا اذا كانت قابلة الى الاحالة الى أنشطة انسانية ، والانشطة الانسانية
لا تفهم الا بواسطة اظهار كل من دوافعها السببية ودوافعها الغائية .
والحقيقة التى تكمن وراء هذه الواقعة هى أنى أعيش فى العالم الاجتماعى ،
واستطيع فهم أفعال الآخرين فى حالة واحدة فقط : انى أتخيل أنى أفعال
أفعال شبيهة اذا كنت فى نفس الموقف ومدفوعا بنفس الدوافع السببية
أو موجها بنفس الدوافع الغائية (٩٥) . ان عدم التوازن الزمنى بين نوعى
الدوافع يوحى بمشكلة واسعة بخصوص تصور الذات ego . ان شوتز

(93) A Schutz . Collected Papers . Vol. 2 pp. 17 - 18 Quoted
in M. Natanson « Schutz , Alfred » in The International Encycl-
opedia of the Social Sciences ed. by D .L. Sills op. cit. Vol. 14 pp.
72 - 74 , p. 73 .

(94) Natanson « Schutz , Alfred » in International Encycl-
opedia of the Soozil Sciences op. cit. p. 73.

(95) Schutz . Concept and Theory Formation. op. cit. p.62.

يرى ان الذات غير قادرة على الاهراك المباشر ، وانما يمكنها فقط أن تدرك نفسها باعتبارها موضوعا لفعل منعكس reflexive action (٩٦) .

ويعتبر اهتمام شوتز بموضوع الفعل وتركيزه على الفعل والفاعل مع محاولة اقامة انماط لعالم الحس المشترك ، يعتبر كل هذا من الانجازات الاساسية لشوتز . ذلك انه رأى هذا الموضوع نقطة بداية ملائمة للعلوم الاجتماعية .

وتهدف الفنونومولوجيا في رأى شونز الى بحث الموقف الطبيعى ، ولذا يجب ان توجه الدراسات الاجتماعية الى هذا الهدف ، فلا بد ان تبدأ تلك العلوم التى تقوم بتأويل وتفسير الفعل والفكر الانسانى من وصف البناءات المؤسسة لما هو سابق على العلم ، أى الحقيقة التى تبدو واضحة بذاتها بالنسبة للبشر الموجودين فى الموقف الطبيعى . وليست هذه الحقيقة الا « عالم الحياة اليومية » ، فهى نطاق الواقع الذى يشارك فيه الانسان باستمرار بطرق تبدو نمطية ، ومن غير الممكن تفاديها .

ويعتبر عالم الحياة اليومية مجالا واقعيا بالنسبة للانسان ويستطيع الانسان تغييره عن طريق جسمه الحى . وتقوم الحقائق الموضوعية والاحداث الموجودة من قبل والمتضمنة لافعال ونتائج افعال الآخرين ، تقوم بتحديد امكانيات الانسان الحرة فى الفعل . انها تضعه امام عقبات يستطيع تخطيها وأخرى لا يمكنه تخطيها ، وبالإضافة الى ذلك يستطيع الانسان ، فى هذا العالم وحده ، ان يكون مفهوما من جانب البشر الآخرين ، كما يستطيع من خلاله - عالم الحياة اليومية - ان يعمل معهم . أى انه من الممكن فى هذا العالم وحده اقامة عالم مشترك ، متواصل ومحيط انه وحده الواقع الاساسى ذو السلطة العليا paramount

و يتميز عالم الحياة اليومية بأنه تواصلى ، فهو ليس عالمى وحدى وانما هناك بشر آخرون اقبل وجودهم كشيء مفروغ منه ، وهم موجودون ليس فقط بصفاتهم الجسمية وانما باعتبارهم يملكون وعيا يشبه وعي الخاص . ان البناء الاساسى فى واقع هذا العالم هو اذن كونه مشتركة لنا جميعا . وكما استطيع من موقفى الطبيعى ان احصل على معرفة للخبرات المعاشة من جانب زملائى من البشر مثل دوافع افعالهم - وذلك بشكل تقريبي - كذلك افترض ان نفس الشيء يصدق على الآخرين تجاهى . ومن هنا علينا التسليم ببعض الاشياء وهى :

- ١ - الوجود الجسمى للآخرين .
- ٢ - ان هذه الاجسام تملك وعيا مماثلا لوعى الخاص .
- ٣ - ان اشياء العالم الخارجى ، الموجودة فى محيطى ومحيط الآخرين هى نفسها بالنسبة للجميع وتملك نفس المعنى .
- ٤ - انى استطيع ان اجعل نفسى مفهوما بالنسبة للآخرين .
- ٥ - انى استطيع اقامة علاقات مع الآخرين والمشاركة فى افعالهم .
- ٦ - ان العالم المتدرج اجتماعيا وثقافيا هو معطى من قبل تاريخيا ، وذلك باعتباره اطار دلالة بالنسبة لى وللآخرين وباعتباره ايضا « عالما طبيعيا » .
- ٧ - ويترتب على ما سبق ان الموقف الذى اجد نفسى فيه فى أى وقت يرجع الى حد ما الى كونى قد خلقته بنفسى (٩٨) .

(97) Schutz and Luckmann op. cit. p. 3.

(98) Ibid. pp. 4 - 5.

ان الواقع اليومى لعالم الحياة يتضمن ، بالإضافة الى « الطبيعية »
التي اختبرها بنفسى ، العالم الاجتماعى وبالتالى الثقافى . أى ان عالم
الحياة لا يتكون من الأشياء المادية وحدها او من الاحداث التي التقى بها
فى محيطى فحسب لأن هذه الأشياء كلها تكون عنصرا واحدا للعالم
المحيط ، وانما المهم انه يتكون من طبقات للمعنى *meaning strata*
تحيل كل من الأشياء الطبيعية الى موضوعات ثقافية ، والاجسام
البشرية الى بشر زملاء لى ، وحركات الآخرين الى افعال وحركات
وعلاقات . ان عالم الحياة ليس الا واقعا نستطيع تغييره بواسطة
افعالنا كما يستطيع هذا العالم بدووه ان يغير من افعالنا . وننتهى الى
القول بان موقعنا الطبيعى فى الحياة اليومية يتحدد بواسطة دافع
برجماتى (٩٩) .

ان تفسيري للعالم وفهمى له يقوم فى أى وقت على كمية من الخبرة
السابقة سواء اكانت خبرة مباشرة او خبرات انتقلت الى من الآخرين
خاصة الاهل او المدرسة . . . الخ ، وتندمج هذه الخبرات المباشرة والمتصلة
فى وحدة معينة تأخذ شكل مجموع معرفتى ، وتقوم هذه الوحدة بدور
اطار دلالة بالنسبة للمرحلة التالية التي أقوم فيها بتفسير العالم (١٠٠) .

لقد رأينا كيف تضمن المشروع الفنونولوجى. الهوسرلى التوقف عن
الحكم أو وضع الموقف الطبيعى بين قوسين . ذلك ان هوسرل اهتم بالذات
«الخالصة» غير المنتمية الى مواقف معينة بينما ابدى شونز على العكس
اهتماما بالعالم الطبيعى وأكد اهميته بالنسبة لعلم الاجتماع
والفنونولوجيا . لقد رفض شونز مناقشة المشكلة على المستوى المتعال
وفضل عليه المستوى الدنيوى *mundane* الخاص بالعالم التواصلى

(99) Ibid. pp. 5 - 6 .

(100) Ibid. p. 6.

للحياة اليومية ، لقد اعتبر شوتز الفنونولوجيا المتعالية غير صالحة
كأساس للحياة الثقافية للحياة اليومية .

لقد اعتبر شوتز معرفتى بالآخرين معرفة مباشرة تفوق معرفتى
بنفسى ، على الرغم من اننا تعودنا الاعتقاد بأن العكس هو الصحيح .
واستنادا الى واقع الاتصال بوجه شوتز الانتباه الى اننى عندما اكون
مستمعا للآخر فانى اكون مندمجا فى الوجود الحى *prima* لفكر الآخر .
ولا يستطيع الآخر ان يرى حركات وجهه او يدرك فكره الذى عبر عنه ...
ولا يستطيع الآخر ان يرى حركات وجهه او يدرك فكره الذى عبر عنه ...
بينما استطيع انما فى اللحظة التى عبر فيها الآخر عن فكره ان اتوصل
الى معرفته بشكل مباشر وبطريقة مختلفة اكثر مما يعرف هو ذاته . كما
ان العكس ايضا صحيح . فاذا كنت انا المتحدث او الممثل فان الآخر يكون
المستمع او الجمهور او المراقب ، وفى لحظة الاداء يعرفنى هذا الآخر
بطريقة مختلفة وبشكل مباشر اكثر مما اعرف نفسى فى هذه اللحظة
بالذات . ان الانسان يعيش فى مجتمع ويستدعى هذا دائما الاداء والتعبير
والاتصال . لذا فانى اجد نفسى فى الحياة اليومية متصلا اتصالا مستمرا
وضروريا بالآخرين ، وفى حالة معرفة بالآخرين وهم بى (١٠١) .

وميز شوتز بين محاولات ثلاث :

الاولى: هى « العلوم الثقافية » مثل علم الاجتماع ، والانثروبولوجيا
وعلم الاقتصاد وعلم النفس .

الثانية : هى الفنونولوجيا التأسيسية الخاصة بالموقف الطبيعى .

الثالثة : هى الفنونولوجيا المتعالية .

(101) M. Roche . Phenomenology , Language and the Social
Sciences London : Routledge and kegan paul 1973 pp. 23—33 .

لقد رأى أن هذه المحاولات تكمل بعضها البعض . وقد ركزت دراسته هو على محاولة توجيه الفنونولوجيا نحو دراسة عالم الحياة life - world والموقف الطبيعي natural attitude فهو يرى أن الفنونولوجيا التأسيسية للعالم الطبيعي كقيلة باتاحة أساسى فلسفى واضح للعلوم الثقافية . ويجب أن نميز بين الفنونولوجيا التى اعتبرها شوتز أداة منهجية توضح مناهج وتصورات واقتراضات العلوم الثقافية وبين الفنونولوجيا الخالصة ، فعلى الرغم من اشتراكهما فى بعض الأهداف والمناهج إلا أن الأخيرة تركز على الوعى الخالص أو الذاتية المتعالية بينما تهتم الأولى بإقامة الموقف الطبيعى وتأثيره على البحث العلمى الاجتماعى (١٠٢) . أن الوصف الفنونولوجى لم يوحى لشوتز بفنونولوجيا متعالية ، وإنما أوحى اليه بعلم الاجتماع . ويأتى العالم المعطى أو الموقف الطبيعى كنتيجة للتفاعل بين البشر والمعيشة المشتركة فى المجتمع ، وليس كنتيجة ذاتية مدركة بطريقة إنانية وموجودة خارج الثقافة والتاريخ .

وإذا كان الجانب الفنونولوجى الوصفى والاجتماعى قد تغلب لدى شوتز على الجانب الفنونولوجى المتعال فقد اعتبر البعض شوتز أكثر ميلا إلى الاتجاه الوجودى فى الفنونولوجيا (١٠٣) .

وفرق شوتز بين مجموعتى العلوم الاجتماعية والطبيعية من حيث المنهج فأننا لا نستطيع أن نتعامل مع ظواهر العالم الاجتماعى كما نتعامل مع ظواهر العالم الطبيعى . فنحن فى العالم الطبيعى نقوم بجمع الوقائع والاطرادات التى لا يمكننا فهمها ، وكل ما يمكن أن نفعله هو الإشارة الى بعض الافتراضات الأساسية عن العالم أننا مثلا لا نفهم لماذا

(102) Phillipson op. cit. p. 133 .

(103) Roche. op. cit. p. 33 .

يرتفع الزئبق فى ميزان الحرارة اذا ارسلت الشمس اشعتها عليه . وكل ما نستطيعه هو تفسير هذه الظاهرة باعتبارها متفقة مع القوانين التى استنبطناها من افتراضات أساسية عن العالم الطبيعى . بينما نحن نريد فى العالم الاجتماعى أن نفهم الظواهر الاجتماعية ، ولا نستطيع أن نفهمها وهى بعيدة عن مكانها فى نسق الدوافع والوسائل والاهداف والخطط الانسانية ، باختصار بعيدة عن نسق مقولات الفعل الانسانى (١٠٤) .

وقد رفض شوتز مبدأ الوحدة المنهجية بين العلوم . حقيقة أنه رأى خطأ اعتبار الاختلافات الأساسية بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية راجعة الى وجود منطق مختلف لكل فرع من فروع المعرفة . الا ان هذا لا يعنى ان على العلوم الاجتماعية أن تترك الأساليب الخاصة بها والتى تستخدمها للتعرف على الواقعة الاجتماعية من أجل وحدة مثالية بين المناهج ، خاصة وأن هذه الوحدة تقوم على افتراض غير مؤكد مؤداه أن الطرق التى يستخدمها العلماء الطبيعيون وخاصة الفيزيائيون هى وحدها الطرق العلمية . ان وحدة العلم ليس الا حالة خاصة فى موضع أكثر شمولاً لم يتصدى اى من العلماء المؤيدين للاجابة عليه ، وهو كيف تكون المعرفة العلمية ممكنة ؟ وما هى افتراضاتها المنطقية ؟ ان شوتز يصرى ان الفلسفة الفنونولوجية مهدت الطريق لمثل هذا البحث ، وقد تشير نتائجها الى ان الأساليب المنهجية التى طورتها العلوم الاجتماعية من أجل ادراك الواقع الاجتماعى أكثر ملائمة من تلك الأساليب الموجودة فى

(104) A . Schutz « The problem of Rationality in the Social World » in Collected papers Vol. 4 Martinus Nijhoff. The Hague 1964 p. 65. Quoted in R. M. Zaner. Solitude and Sociality : The Critical Foundations of the Social Sciences in Psathas. op . cit. pp. 25 - 43 , p. 41 .

العلوم الطبيعية فى التوصل الى اكتشاف المبادئ العامة التى تحكم
كل المعرفة البشرية (١٠٥)



خامسا : نظرة نقدية الى الاتجاه الفنونولوجى ومنهج الفهم :

تعرضنا فيما سبق لشخصيا تاريخ رأينا من وجهة نظرنا أنها
تمثل اقطابا بارزة فى تطور الفكر الفنونولوجى . حقيقة أن دلتاى وفيير
لم ينطويا تحت لواء هذه المدرسة ، الا أننا قد بينا منذ البداية أنه لا توجد
مدرسة فلسفية موحدة ينطوى تحتها كل الفنونولوجيون وذلك بسبب
التفرد الذى اتسمت به افكارهم . كما أن موقف كل من دلتاى وفيير من
العلوم الاجتماعية ومن الاتجاه الطبيعى وقولهما بالفهم الذاتى واهتمامهما
بالفرد ، كل هذا جعلهم علماء وفلاسفة علم بارزين وممهدين بشكل
مباشر للاتجاه الفنونولوجى .

لقد اهتم المفكرون الأربعة بالمجال الانسانى وبالذات بالفرد وبفاعله ،
وبالمعنى الذى يضيفه على افعاله . لقد كان موضوع بحثهم هو الفاعل
ومن هنا اتجاههم الى تاويل وفهم دوافع وغايات الأفراد دون اغفال
للعلاقات التى تنشأ بينهم .

ويقتررب هذا الموقف الى حد كبير من موقف الفردية المنهجية
methodological individualism الذى ينسب اليه علماء بارزون من أمثال
F. H. Hayek , F. Watkins G. C. Homans وغيرهم وفى رأى هؤلاء المفكرين أن العالم مكون من افراد يتحركون فى ضوء
ميولهم وفهمهم للموقف . وكل موقف اجتماعى معقد وكل نظام وكل

(105) A. Schutz. Concept and Theory Formation in the
Social Sciences op. cit. p . 249 .

حدث ليس الا نتيجة لشكل أو وضع محدد للأفراد واستعداداتهم ومواقفهم ومعتقداتهم وإمكانياتهم المادية وبيئاتهم (١٠٦) .

ويرى هابيك اننا نبدأ من افكار وأهداف الأفراد ، أى أن الأفراد الذين يكونون المجتمع يتصرفون حسب تصنيفهم للأشياء والأحداث فى نسق من الصفات والتصورات ذات بناء مشترك ، ويستطيعون التعرف عليه لمجرد كونهم بشرا . وتفهم العلاقات بين الأفراد كما تفهم الأنظمة الاجتماعية فى ضوء أفعال البشر إزاءها . ويتكون المجتمع كما نعرفه من تصورات وافكار البشر ومن ظواهر اجتماعية . وفى استطاعتنا أن نعرف المجتمع ويكون له معنى لدينا اذا كان يملك تأثيرا على عقولنا كبشر (١٠٧) .

وتتميز العلوم الاجتماعية بصعوبة خاصة راجعة الى ضرورة التمييز بين ثلاثة اشياء : آراء الأفراد الذين يكونون موضوع دراستنا ، وآرائنا عنهم ، وافكار جديدة تتكون لدى موضوعات الدراسة من البشر كنتيجة لأفعالهم أو لتأثيرهم بأفكار أخرى . ومن أجل هذا كانت أهمية التمييز بين تفسير مبدأ تقوم عليه ظاهرة ما ، وتفسير يتيح لنا التنبؤ بنتيجة محددة (١٠٨) .

ويرى واتكنز أن العمليات والأحداث الاجتماعية تحتاج أن تفسر عن طريق استنباطها من :

(ا) مبادئ تحكم سلوك الأفراد المساهمين فى الأحداث .

(ب) وصف مواقف هؤلاء الافراد .

(106) Homans. The Nature of Social Science op. cit. p. 61

(107) F. H. Hayck. From Scientism to the study of Society
J. O'Niel (ed.) Modes of Individualism and Collectivism London
Heinemann 1973. pp. 27 - 68 p. 35.

(108) Ibid. p. 43.

وينادى واتكنز بالتفسير الفردى على أساس أن الموضوعات الاجتماعية تتكون من اتجاهات الأفراد . وبينما الأشياء المادية لها وجود غير مدرك فإن الأشياء الاجتماعية مثل القوانين والأسعار ... تقوم على أساس الاتجاهات الفردية (١٠٩) لذا يجب تفسير اطرادات الحياة الاجتماعية حسب الفردية المنهجية أى فى ضوء الأفراد ومواقفهم . وما دامت العملية التى تفسر تتكرر وقابلة للحدوث عددا من المرات وفى أماكن متنوعة من العالم ، فإن الافتراضات العامة عن الميول الانسانية ممكن أن تستخدم فى التفسير (١١٠) .

وقد ساهم فلاسفة الوجودية من أمثال جون بول سارتر وموريس ميرلوبونتي فى الفنونولوجيا ، عن طريق تقديم تصورات مختلفة للشرط الوجودى للإنسان ، وذلك كرد فعل على تأكيد هوسرل على الماهية . وقد أصبح للوعى شكل عضوى ، وموقف اجتماعى مرتبط بعمليات أخرى ، أى أصبح به وجود مشخص وليس ماهية غير شخصية كما كان هوسرل يرى .

لقد اهتم كل من سارتر وميرلوبونتي بالتوصل الى طرق يستطيع الوعى الانسانى عن طريقها كشف واختبار كافة الحواجز ، ليس فقط عن طريق التفكير وانما بواسطة الفعل ، وهذا هو موضوع الحرية الذى تميزت به الكتابات الوجودية . وبينما ركز هوسرل على المستوى المتعال ، فقد ركز سارتر على المستوى الوجودى . وبينما كان حديث هوسرل عن « الذات المتعالية » غير ذى تأثير على الكيان الوجودى للإنسان

(109) F. Watkins. *Ideal Types and Historical explanations* in (ed.) *Reading of Philosophy of Science* op. cit. p. 729.

(110) F. Watkins. *Historical Explanation in the Social Sciences* in O'Neil (ed.) op. cit. pp. 166 - 178, p. 176.

أو « الذات » أو « الانا » فان حديث سارتر وأعماله كان لها تأثيرها الواضح على الانسان الوجودى . وفى الواقع ان الفنومولوجيين التاليين على هوسرل مثل سارتر لم يخلوا مطلقا عن تقديم تقارير خاصة بالماهية الا انهم على خلاف هوسرل لم يعتبروها هدفا للفلسفة وانما يتحقق هدف الفلسفة عن طريق منهج انعكاس محدد *Specific reflective technique* وقد استقوا تقاريراتهم مباشرة من الأوصاف الخاصة بخبراتهم الشخصية المستمرة وغير الانعكاسية *non - reflective* وطبقوها ووضعوا لها امثلة فى شكل اوصاف اخرى

لخبرة الحياة الواقعية المدركة (١١١) .

ويحدد ميرلوبونتي هدف الفنومولوجيا كما يلى : أنه موضوع يقوم على الوصف وليس التفسير أو التحليل . ان توجيه هوسرل الأول للفنومولوجيا كان فى اتجاه « علم نفسى وصفى » وهو ما يمثل استبعاد للعلم . فانا ليست نتيجة التقاء عناصر سببية متنوعة تحدد كيانى الجسمى هو النفسى . وأنا لا أستطيع ان أدرك نفسى باعتبارى جزءا من العالم أو كمجرد موضوع للدراسة البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية ، أى انى لا أستطيع أن أحبس نفسى داخل عالم العلم . ان كل معرفة لى عن العالم ، حتى المعرفة العلمية ، استقيتها من وجهة نظرى الخاصة أو من خبرة محدودة عن العالم ، تصبح بجانبها رموز العلم بدون معنى . ان كل عالم العلم مبنى على العالم كما اختبره مباشرة ، فاذا أردنا اخضاع العلم نفسه الى استقصاء دقيق والتوصل الى تقدير واضح لمعناه ومداه ، فلا بد أن نبدا من ايقاظ الخبرة الاساسية للعالم ويعتبر العلم كتعبير من الدرجة الثانية لها (١١٢) .

(111) Roche op. cit. p. 19 - 20.

(112) Merleau - Ponty. What is Phenomenology in J. Kockelmans (ed.) Phenomenology. New York : Anchor 1967 p. 356 Quoted in Phillipson Op. cit. p. 123.

وبينما كان اهتمام سارتر بطبيعة الفنونولوجيا يرتبط باستخدامها في فلسفته عن الوجود ، فان ميرلوبونتي اهتم بطبيعة الفتونولوجيا في حد ذاتها . لقد رأى ان مهمته الأساسية في الفلسفة هي اعادة بناء الطابع التطوري وليس الثوري . وبالتالي فان الانتقال من العالم الى الماهيات كما ترى طريقة التوقف عن الحكم ، يحتاج الى ان ينسجم مع وصف الوعي في هذا العالم كما تطالب الوجودية . وقد حاول ميرلو بونتي ان يبين امكانية هذا الانسجام بالطريقة الآتية :

أولا : اعتبر أن طريقة التوقف عن الحكم تستدعي الابتعاد فقط عن تصور العالم بطريقة العلم الطبيعي ولا تستدعي الابتعاد عن المعرفة « السابقة على العلم » التي نملكها عن العالم كما هو معطى في الادراك الحسى .

ثانيا : اعتبر النظريات والاستنتاجات والانماط المثالية في الدراسات النفسية والاجتماعية ، اعتبرها كلها ماهيات (١١٣) .

ان مشروع الفتونولوجيا اذن ليس الا وصفا للظواهر كما تبدو في الوعي ويعنى ذلك ايجاد منهج يتيح التفكير في الخارج الذى هو مبداء علوم الانسان ، وفي نفس الوقت التفكير في الداخل الذى هو شرط الفلسفة ، وذلك بالاضافة الى الاهتمام بالتكرارات التى لا توجد بدونها مواقف ، وبالتثبيت العقلى الذى لا توجد بدونه معرفة (١١٤) . لقد رفض ميرلوبونتي فصل الوقائع عن الماهيات ، ذلك ان الحقيقة الأولية لوجودنا في العالم تكمن في التوحيد بينهما ، واذا كنا نقوم بتمييز بين الواقعية والماهية فان هذا يحدث فقط داخل وحدة الكائن . ويستتبع ذلك عدم وجود أى تعارض بين دراسة الوقائع من جانب العلماء الاجتماعيين ،

(113) Roche op. cit. p. 25 - 26.

(114) Merleau Ponty op. cit. p. 51.

ودراسة الماهيات من جانب الفنومولوجيين لأن الاثنين يكملان بعضهما البعض وأكثر من ذلك لا ينفصلان .

وقد اتضحت كثير من آراء ميرلوبونتي فى مؤلفه الرئيسى « فنومولوجيا الادراك الحسى » حيث ظهر موقف الانسان من العالم ومن العلم ومن ذاته ومن الآخرين .

اما بالنسبة للوجود الانسانى ذاته فهو قائم على الصراع والتعارض والاختلاف ومن هنا يمكن القول بأن كل ما فينا عرضى وكل ما فينا ضرورى . ونحن لسنا « وعيا » فقط او « موضوعا » فقط بل نحن وعى وموضوع معا . وكل ما فينا هو نفى وجسمى معا . وقد نحاول ان نفسر التاريخ تفسيراً عقلياً او تفسيراً اقتصادياً . او تفسيراً جنسياً ، ولكن الحقيقة ان التاريخ يقبل كل هذه التفسيرات جميعاً ، ولهذا يقرر ميرلوبونتي ان « الوجود » بطبيعته مبهم ، مختلط ، وغير محدد . بيد ان من خصائص « الوجود » ايضا انه لا يكف عن التعالى على ذاته (١١٥) . اما اذا نظرنا الى مشكلة « وجود الآخرين » فاننا سنجد ان الاتصال بين الذات مكفول بحكم تلك العلاقة الاولى التى تربطنا بعالم مشترك (١١٦) .

ويعتبر الادراك الحسى « فعلا » ندرك بمقتضاه الموضوع ادراكا مباشرا دون ادى وساطة ، بل دون حاجة الى ادى تفسير . وليس « الجسم » بمثابة نقاب يتوسط بيننا وبين العالم ، بل هو آداة فى الامتزاج بالعالم والاتصاف بالاشياء . وهكذا نجد ثمة اتحادا مباشرا بين الانسان - الذى هو بطبيعته مفتوح للاشياء - وبين العالم الذى ندركه عن طريق الجسم ادراكا حقيقيا (١١٠) .

(١١٥) د . زكريا ابراهيم : دراسات فى الفلسفة المعاصرة ، ص

٥٤٩ .

(١١٦) المرجع السابق ، ص ٥٥٢ .

(١١٧) المرجع السابق ، ص ٥٥٠ .

وقد رفض ميرلوبونتي فكرة العلية أو السببية ، وأبى أن يفسر السلوك بمجموعة من البواعث . حقا أن الجسم قد يبدو مجبرا ، من حيث هو خاضع لعلية فيزيائية تتحكم في ردود أفعاله ، ولكن سلوكنا لا يتوقف بشكل جوهري على طائفة محددة من القوانين العلية الصارمة (١١٨) .

لقد نجح ميرلوبونتي في تخليص الوجودية من تلك التفرقة السارترية الحادة بين « الموجود في ذاته » و « الموجود لذاته » . وليس من شك في أن اهتمام ميرلوبونتي بالادراك الحسي هو الذي جعله يستمسك بواقعة « الوجود في العالم » ، وهو الذي حدا به الى اعتبار المعطيات المباشرة للادراك الحسي واقعة حقيقية سابقة على كل تنظيم عقلي (أو تركيب ذهني) (١١٩) .

وهكذا يتضح لنا أن الاتجاهات المعارضة للوضعية ، ابتداء من اتباع منهج الفهم الذاتي وانتهاء بالوجوديين ، رفضت الشكل الاستنباطي العلى أو السببي للتفسير ونادت بالفهم كطريقة مميزة لدراسة الانسان في المجتمع . ولعل هذه المعارضة هي التي جعلت الفهم والتفسير ينفصلان استنادا الى الاصرار على ربط التفسير بالشكل المنطقي الذي يجمع بين الواقعة المفسرة والتقريب التفسيري ، فهل بالفعل من الضروري أن يكون التفسير بهذا الشكل حتى يستحق أن يسمى تفسيرا ؟

وفي الواقع أن تفسير الظواهر الاجتماعية ، أي وضعها في سياق من الافتراضات المتكونة من قبل سواء ضمنا أو صراحة هي شيء مختلف عن فهم الأفعال الانسانية . فالفهم يعني تحديد المكانة الاساسية لتلك الأفعال في سياق مكون من المعتقدات والقيم والدوافع وخطط البشر ثم

• • •

(١١٨) المرجع السابق ، ص ٥٥٥ .

(١١٩) المرجع السابق ، ص ٥٦٣ .

تقييم هذا المكانه (١٢٠) الا ان الفهم بهذا الشكل لا يعنى انه عملية مختلفة فى هدفها عن التفسير ، فاذا كان التفسير يرمى الى معرفة المعنى الكامن وراء الحد ثفلا شك ان الفهم الذاتى يقدم المنهج الملائم .

اننا فى العلوم الاجتماعية نواجه عقبة تضع لنا مشاكل هى ان تفسير الانشطة البشرية او الذوات العارفة التى تقوم بالفعل فى السياق المعتاد للاحداث اليومية يتطلب وضع افتراضات حول معانى هذه الانشطة التى لا يمكن بذاتها ان تفسر بالكامل .

وتبدو محاولة ايجاد تفسير كامل مستحيله الانجاز ذلك الان الافتراضات فى وجود المعانى التى تتكشف تحتاج ايضا ان تفسر . فتصبح الخطوة التالية هى ضرورة تفسير السياق الذى توصلنا اليه والذى يتضمن افتراضات جديدة ، او هكذا الى ما لا نهاية وهنا لا بد للباحث ان يعترف بحاجته الى امتلاك واستخدام الحس اليومى الشائع والفهم الذاتى الذى يتلكه ويستخدمه البشر فى حياتتهم اليومية . ان مجرد التوصل الى هذه الواقعة هو وعى ذاتى . فيستطيع الملاحظ او الباحث عندئذ ان يستخدم الافتراضات التى يقوم عليها العلم متضمنة لبعض الافتراضات التى تكونت فى عالم الحياة اليومية (١٢١) .

ويؤكد « يولتون » ان تفسير الظواهر الاجتماعية يجب ان يقبوم على اساس الفهم الذاتى ، ويظهر الدور التفسيرى لهذا الفهم عند وضعه فى عبارات ثم فى سياق او نسق من التقريرات ، تبقى بعد ذلك مشكلة ما اذا كان نسق التقريرات يحتاج أولا الى اختبار كى يصبح تفسيريا . الا ان يولتون يرى ان الاختبار وان كان حيويا بالنسبة للتفسير العلمى الا انه

(120) Zaner Solitude and Sociality op. cit. p. 41 .

(121) Psathas (ed.) Phenomenological Sociology op. cit. Intr p. 11 .

ليس محكا فى مجال التفسير الاجتماعى ، ويكفى ان يكون الطابع العام لكل التفسيرات فى العلوم الاجتماعية مؤكدا على الفهم والسياق (١٢٢) .
 الا ان مشكلة التثبت تظل بالنسبة للفهم محل تساؤل كثيرا من العلماء ، ويكتفى ناجل باعتبار الفهم طريقة مولده لفروض مقترحة لتفسير الافعال الاجتماعية ، ويستبعده كطريقة للتثبت من التفسيرات المقترحة .
 ذلك ان هذا المنهج لا يقدم بذاته اى معيار للتأكد من صدق الحدوس والفروض الخاصة بالافعال الانسانية (١٢٣) .

ويرى « ابل » أن منهج الفهم يقوم على تطبيق الخبرة الشخصية على السلوك الملاحظ ، أى أننا نستخدم المعرفة الموجودة لدينا من قبل . وهذا فى رايه لا يصلح كوسيلة للكشف ، وانما على أكثر تقدير كوسيلة لتأكيد ما كنا نعرفه من قبل . ومن هذا المنطلق تتحدد القدرة على تعريف السلوك باختلاف كمية ونوع الخبرة الشخصية ، وقدرة المفسر على القيام بالاستبطن *introspection* بالإضافة الى قدرته على تعميم خبراته فاذا أمكن أحيانا ضمان موضوعية المعلومات فانه يمكن على أساسها التوصل الى اثبات التفسير . الا ان ما يحدث فى أغلب الاحيان هو ان التفسيرات تظل بسبب عدم القدرة على الوصول الى الخبرات الانفعالية مجرد تعبير عن آراء . ومن هنا يستبعد الفهم كوسيلة للتحليل ، الا انه لا يستبعد تماما لأنه يستطيع القيام بوظيفة ايجابية وهى المساعدة على اقامة القروض وذلك بدون المساهمة فى اختبارها (١٢٤) .

(122) J. W . Yolton *Explanation op. cit.* p. 203.

(123) E. Nagel. on the Method of Verstehen as the sole Method of Philosophy in Natanson (ed.) *philosophy of Social Sciences op. cit.* pp. 262 - 265, p. 263.

(124) T. Abel. The Operation called Verstehen. in H. Feigl and M. Brodbeck. (ed.) *Readings in the Philosophy of Science op. cit.* pp. 684 - 685 .

ان الموقف الطبيعى والوضعى لا يستبعد تماما منهج الفهم وانما هو يريد أن يحتويه ويوجهه بطريقة تتناسب مع مبادئ النزعة الطبيعية . فتؤكد « لافين » على أن الطبيعيين لا يتسارعون الى رفض العوامل غير التجريبية فى البحث لأن النزعة الطبيعية لا تدعى وجود منهج وحيد للبحث ، وانما تصر فقط على وجود محك واحد للثبوت مهما كانت الطريقة المتبعة . ويتبنى الطبيعيين لمنهج الفهم تسقط كثير من الدعاوى التى تقام ضدهم وهى :

١ - تغلب المبدأ المنهجى على الفلسفة الاستدلالية .

٢ - فشلهم فى تقديم منهج متميز عن منهج العلم .

٣ - اغفالهم للعوامل الخارجة عن المنهج العلمى التجريبى .

٤ - استبعادهم التام لمشكلة منهج العلم الاجتماعى .

ويمستطيع الفيلسوف الطبيعى عن طريق التحكم التجريبى فى منهج الفهم أن يمارس دوره الثقافى التقليدى - فيما تدعى لافين - وهو تاويل الخبرة بواسطة التحليل المنعكس للمنهج العلمى ونتائجه (١٢٥) .

لقد اعتمدت الفنونولوجيا فى كل خطوة على النظرة الهندسية وعلى تعميق الخبرة عن طريق ابراز الجوانب التى كثيرا ما كانت تهمل فى هذه الخبرة . ومن ايجابيات هذا الاتجاه هو الاصرار على النظر الى الوقائع والوفاء لها حتى قبيل التفكير فيها .

(125) Thelma Z. Lavine Note to Naturalists on the Human Spirit . in Natanson (ed.) Philosophy of the Social Sciences. op. cit. 225 - 261, p. 259.

وإذا أخذنا مثالا من الانثروبولوجيا فسوف نجد أن فهم مجتمع ما يقصد به الفهم العلمى أو الوقائعى . وبهذا المعنى يقوم فهم شخص ما أو موضوع ما أو مجتمع ما على التعرف على بعض الوقائع عن الشخص أو النظرية أو المجتمع . ففى حالة فهم الأشخاص فإن تعبيرات مثل « أن جونز يفهم سميت » ترد غالبا الى تعبيرات مثل « أن جونز يعلم أن ص ١ ، و ص ٢ ٠٠٠ و ص ن تشير الى بعض الوقائع عن سميت » ، اما عن نوع هذه الوقائع فيفهم من السياق : فاحيانا تكون الوقائع خاصة بدوافع سميت أو أهدافه أو طباعه ، و احيانا خرى تكون خاصة بخلفيته الاجتماعية أو الثقافية وعلاقتها بسلوكه الحالى . ويصلح نفس التحليل فى حالة كون موضوع الفهم شيئا غير انسانى . ويقال نفس الشيء بخصوص فهم مجتمع ما و جماعة ما community فقولنا « اننا نفهم » يعنى امتلاك بعض المعرفة بالقضايا الخاصة به . ولا يعنى هذا انه توجد مجموعة واحدة من الوقائع التى اذا توصلنا اليها توصلنا الى فهم المجتمع بل ان فهم المجتمع فى الانثروبولوجيا يتعلق بكل من وجهة نظر الباحث الانثروبولوجى ، والنظرية المستخدمة فى البحث وأخيرا بهدف البحث (١٢٦) .

وإذا كانت الفنونولوجيا قد درست الظواهر عن طريق الوسائل الحدسية والتحليلية والوصفية فإن هذا لم يكن جديدا فى تاريخ الفكر ، وقد قامت به اتجاهات سابقة ، الا أن أهم ما يميزها فى هذا الصدد هو الطابع القصدى للدراسة والتحدى الواعى للمنهج الطبيعى ، باعتباره عاجزا عن التعامل مع العالم الاجتماعى المشترك . وقد أدى بها هذا الى القيام بعدة مواجهات : فبما تهدف الفيزياء الى التفسير السببى

(126) M. Martin . Understanding and participant Observation in Cultural and Social Anthropology . in Truzzi (ed.) op. 102 - 133, pp 105 - 106 .

يهدف علم الاجتماع الى فهم الغاية والمعنى ، وبينما نفسر الأحداث كـميا فى الفيزياء بمساعدة الصيغ الرياضية ، فان علم الاجتماع يحاول فهم التطورات التاريخية فى شكل له طابع كفى مثلا فى شكل ميول أو اهداف متصارعة أو « طابع قومى » أو « روح العصر » . ومن هنا اهتمامات الفيزياء بالتعميمات الاستنباطية واهتمام علم الاجتماع بالمشاركة الوجدانية المتصورة وبينما تصل الفيزياء الى اطرادات صادقة بشكل عام وتفسر الأحداث الخاصة باعتبارها شواهد لتلك الاطرادات ، يكتفى علم الاجتماع بالفهم الحدسى للأحداث الفريدة وبالدور الذى تلعبه فى مواقف معينة ، تحدث نتيجة صراع المصالح والميول والمصائر (١٢٧) .

وسواء نظرنا الى الاتجاه الفنونولوجى ومنهج الفهم كنزعات أصيلة وضرورية فى البحث الاجتماعى أو على أنها عوامل مساعدة للمنهج العلمى كما تدعى الاتجاهات الوضعية والطبيعية . فان بعض الأسئلة تبقى فى حاجة الى اجابات :

١ - هل يضع هدف التفسير فى العلوم الطبيعية الحدود للتفسير فى العلوم الاجتماعية ؟ ويترتب على هذا السؤال التالى : هل نحتاج الى منهج الفهم فى بنائنا للعلم ؟

٢ - هل قوانين العلوم الطبيعية مستحيلة فى المجال الاجتماعى ؟ واذا كانت ممكنة فالى أى مدى تكون التفسيرات محددة وناجحة فى شمولها للأغلب الأفعال الاجتماعية التى نريد فهمها ؟

٣ - الى أى مدى يقبل منهج الفهم التثبت العلمى ؟

٤ - والى أى مدى يساهم الفهم فى الكشف . والى أى مدى قد يضللنا الفهم من خلال توليده للأحداث فى ضوء فئات الحياة اليومية ،

(127) Popper. Poverty of Historicism op . cit. p. 20.

وذلك بدلا من استخدام المقاييس التحليلية المبردة (المتغيرات) والتي
قد تثبت صلاحيتها فى التفسير .

٥ - ما مدى أهمية ان فهم فى عملية التثبيت ذاتها : هل بوسعه
أن يؤكد أو يكمل أو يعارض ما قد سبق التثبيت منه ؟

٦ - وأخيرا فى أى مستويات التحليل يوضع الفهم ؟ هل هو يعنى
الإشارة الى الدوافع الفردية للقائمين بالأفعال الاجتماعية أم الى معانى
ثقافية يشترك فيها الكثيرون وتقدم فى نفس الوقت سياقاً لدوافع القائمين
بالفعل من الأفراد ؟ وهل يتجه اهتمامنا الى تطوير صورة ذات معنى
للواقع الاجتماعى فى ذهن الباحث الاجتماعى أم الى إعادة بناء الانساق
المعرفية للفاعل ذاته ؟ وإذا كان هدفنا هو الثانى الا يعنى هذا ان
علم الاجتماع كله سيتحول الى علم نفس اجتماعى بالضرورة ؟
الا يعتبر هذا اتجاها الى الرد السيكلوجى أو ما يسمى بالفردية
المنهجية ؟ (١٢٨) . وهذا بالذات ما اتهم به هوسرل من جانب كارناب
وغيره على أساس أن هوسرل لم يتعد نطاق علم النفس الفردى المتطرف
psychologism ، وذلك على الرغم من رفض هوسرل المستمر لهذا
العلم (١٢٩) .

الا أن هذه التساؤلات لم تمنع الفنونولوجيا من أن تصبح علامة
مميزة فى تاريخ الفلسفة والعلم . ويكفى محاولتها ايجاد منهج خاص
بالعلوم الاجتماعية واقامتها للتفسير على أسس من الفكر والواقع مختلفة
عن الأسس المنطقية الموجودة فى مناهج العلوم الطبيعية .

* * *

(128) Truzzi (ed.) op. cit. intr. p. 4.

(129) Kypers op. cit. p. 187.

الفصل الخامس

« الاتجاه الوظيفي ، والاتجاه البنيوي »

تمهيد :

- أولا : الاتجاه الوظيفي ونظرته الى التفسير .
- ثانيا : نظرة نقدية الى الاتجاه الوظيفي .
- ثالثا : الاتجاه البنيوي ونظرته الى التفسير .
- رابعا : نظرة نقدية الى الاتجاه البنيوي .

تمهيد :

اثرنا ضم كل من الاتجاه الوظيفى أو الوظيفية **Functionalism** والاتجاه البنوي أو البنوية **Structuralism** معا للحديث عنهما فى فصل واحد ، وذلك بسبب الصلات الكثيرة التى تربط بينهما :

أولاً : يتميز الاتجاهان بأنهما معاصران ، ومستمران فى كثير من مجالات البحث الاجتماعية ، خاصة فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

ثانياً : يتشابه الاتجاهان فى ارتباطهما بالحالة الراهنة لموضوع الدراسة وإهمالهما للعوامل الخارجية خاصة التاريخية . وعلى الرغم من أن الاتجاه الأول يركز على دور الوظيفة فى التفسير والثانى يؤكد على أهمية البنية إلا أن كلاهما يلتقى مع الآخر فى اغفال تأثير كل من الأسباب أو العلل وعامل التغير على الظاهرة موضع الدراسة .

ثالثاً : ارتبط الاتجاه فى اتجاه ثالث يؤكد على أهمية كل من الوظيفة والبنية فى التفسير وهو الاتجاه الوظيفى - البنائى **Structuro-Functionalism**

وإذا تتبعنا تاريخاً الأفكار الرئيسية لدى الاتجاه الوظيفى فإنها تقودنا إلى الماضى البعيد وقد تصل بنا إلى العصر اليونانى . اننا لنجد مثلاً فكرة « المماثلة العضوية » عند افلاطون عندما قارن بين المجتمع وقوى النفس العاقلة والغضبية والشهوية ثم قابلها بطبقات الدولة الحاكمة والحارسة والعاملة . كما يعتبر أرسطو أحد كبار أصحاب الاتجاه البيولوجى الأوائل (١) .

(1) W. J. H. Spnnett, Sociology . London 1949 p. 28 Quoted

in :

د . قبارى اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ .

ويرتبط الاتجاه الوظيفي في شكله الحديث بالتقدم الذي حدث في علم الاحياء او البيولوجيا في القرن التاسع عشر . فاذا كانت الميكانيكا الكلاسيكية مثلت الشكل الأمثل للعلم المكتمل فان البيولوجيا وبالذات النظرية التطورية مثلت الشكل الأمثل لدراسة المجتمع . وقد اتاحت اهمال أوجست كونت ، على الرغم من كونها سابقة على دارون ، أساسا منطقيا قويا للتقارب بين البيولوجيا وعلم الاجتماع .

لقد رأى كونت أن العلم أو الفكر الوضعي يتطور منذ البداية في ضوء الأحداث البعيدة عن تدخل وتحكم الانسان أي الأحداث العامة في الطبيعة ، ثم تقترب تطورات المعرفة الانسانية شيئا فشيئا من الانسان نفسه من خلال الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا حتى تصبح ظروف الحياة الاجتماعية والانسانية مفتوحة لتقبل المنهج العلمى . ونعتبر « الاستاتيكا الاجتماعية » اقوى مؤثر على مفاهيم الوظيفية كما قدمها في البداية هربرت سبنسر ومن بعده دوركايم (٢) .

ولقد ظهرت فكرة النسق system اول ما ظهرت في معناها العلمى في كتابات مونتسكيو وبخاصة في كتابه « روح القوانين » حيث أرسى في هذا الكتاب قواعد أو أسس « نظرية النسق الاجتماعى الكلى » بناء على ارتباط المجتمع ارتباطا وظيفيا (٣) .

ولقد ساهم هربرت سبنسر بتصورية وظيفية من نوع عضوى حين عقد المقارنات أو المماثلات بين المجتمع من ناحية والكائن العضوى

(2) A. Giddens, Functionalism : Apés la lutte. in Social Research. Vol, 43 No. 2 Summer 1976 pp. 325 - 366, p. 326.

(3) A. R. Radcliffe Brown. Sturcture and Function in Primitive Society. London. 1966. Quoted in .

organism من ناحية أخرى . حيث يشبه المجتمع فى تلك المماثلة البيولوجية بالكائن العضوى من حيث البناء والوظيفة . فالمجتمع ينمو ويتطور باطراد ، كما ينمو ويتطور الكائن الحى . ويشبه سنسر تقسيم العمل فى المجتمع تماما كما تتوزع الوظائف العضوية كى تعمل فى البناء العضوى (٤) .

ويعتبر اميل دوركايم من أقوى المؤثرين على الاتجاه الوظيفى المعاصر . فقد أوضح بصورة لا تقبل الشك تميز الواقعة الاجتماعية واستقلالها عن كافة الظواهر الأخرى سواء البيولوجية أو الفسيولوجية ، وبذا تميز عن الاتجاهات العضوية والنزعات الحيوية السابقة . واهتم دوركايم بوظيفة الواقعة فى عملية التفسير ، ورأى أن هذه الوظيفة تتضح داخل المجتمع ، فى علاقة الواقعة بنظام اجتماعى اوسع . وقد تحدث دوركايم عن وظيفة الدين فى كتابه « الأشكال الأولية للحياة الدينية » (٥) ، وبين كيف ساعدت ديانة القبائل البدائية فى الحفاظ على وحدة القبيلة وتماسكها .

وقد ظهر التعبير « بنية » Structure الى جانب التعبير « وظيفة » Function ، واستخدم منذ القرن السادس عشر ليعنى التفاعلات بين مكونات الشيء . وقد استخدمت الدراسات التشريحية Anatomy هذا التعبير بتوسع كبير ، ثم انتقل منها الى العلوم الاجتماعية . وترجع فكرة دراسة البنية الاجتماعية كهدف للبحث الاجتماعى الى سنسر (١٨٥٨) . ثم ظهرت هذه الصورة بعد ذلك لدى دوركايم : ان المجتمع هو مخلوق حى مكون من اجزاء ، وتتضح البنية الاجتماعية

(٤) د. قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣٥٩ .

(٥) تحدثنا بالتفصيل عن موقف دوركايم فى الفصل الثالث من الرسالة .

نتيجة التبادل فى المواقع والعلاقات بين الاجزاء المكونة . وتعتبر وظيفة
اى جزء الطريقة التى يعمل بها لى يحافظ على النسق كله (٦) .

اولا : الاتجاه الوظيفى ونظرته الى التفسير :

اوضح ناجل وهو فيلسوف علم طبيعى ، ان هناك ستة معانٍ للتعبير
وظيفة function :

اولا : تستخدم الكلمة لتعنى علاقات اعتماد dependence
او علاقات اعتماد متبادلة interdependence بين اثنين او اكثر
من العوامل المتغيرة (المتغيرات) سواء كانت تلك العوامل قابلة للقياس
ام لا . ولا يميز هذا المعنى التحليل الوظيفى عن غيره من التحليلات
التي تستخدم فى مجالات اخرى كثيرة بهدف اكتشاف الاطرابات فى
موضوع الدراسة .

ثانيا : تستخدم كلمة « وظيفة » احيانا لتعنى مجموعة من العمليات
فى كيان معين ، بدون اشارة الى التأثيرات المختلفة التى تنتجها تلك
العمليات سواء على هذا الكيان او على اى كيان آخر .

ثالثا : تستعمل الكلمة من جانب العلماء البيولوجيين لتعنى بعض
انواع العمليات العضوية التى تحدث فى الاجسام الحية مثل التناسل
والامتصاص والتنفس . ويقوم الجسم بهذه العمليات ككل وليس كاجزاء ،
على الرغم من ان بعض هذه العمليات ترتبط بشكل واضح بعمل اجزاء
معينة من الجسم . وتخص هذه العمليات الكائنات الحية وحدها ،
وكثيرا ما يقال انها ضرورية لاستمرار حياة الكائن ؛ وبالتالي فان الوظيفة

(6) E.R. Leach. Structure : The History of the Concept in
D. L. Sills (ed.) op. cit. vol. 14 pp. 482 - 488, p. 482.

الحیویة Vital function تؤخذ على أنها الصفات المحددة للأجسام الحية بحيث اذا نقصت هذه الصفات فى حد الأجسام فهو لا يعد كائنا حیا .

رابعا : كثيرا ما يرد التعبير « وظيفة » ليعنى استخدام مقبول لشيء ما او فائدة هذا الشيء ، او تأثير منتظر لفعل ما كما فى التعبير « وظيفة البلطة هى قطع الخشب » . وقد اشار مالىنوفسكى الى هذا المعنى فى قوله « ان الوظيفة تعنى دائما اشباع حاجة ما » (٧) . وعندما تستعمل كلمة وظيفة بهذا المعنى فان التحليلات الوظيفية ترتبط بالأبحاث التى تتناول ظواهر خاصة بالكائنات الحية سواء كانت انسانية ام غير انسانية . ويتمثل التفسير الوظيفى عندئذ فى ذكر الفائدة التى يملكها الشيء بالنسبة لمجموعة من الكائنات الحية ، او ذكر النتائج المترتبة على امتلاك مثل هذه الفائدة . وتتكون التفسيرات فى هذا النوع من تقرير واحد فقط (احيانا يكون عاما ، واحيانا لا يكون كذلك) ، ويقوم هذا التقرير على تأكيد العلاقة الواقعية - بين موضوعات عدة ، الا انه لا يربط بوضوح هذه الواقعة بأى واقعة أخرى تظهر سبب حدوث هذه العلاقة الواقعية .

خامسا : تستعمل كلمة « وظيفة » بمعنى قريب من السابق ، لتشير الى مجموعة نتائج شيء ما او نشاط ما بازاء النسق ككل او بازاء مجموعة متنوعة من الأشياء الأخرى يملكها النسق . فهكذا تستخدم الكلمة فى تقرير كالتالى « ان أحد وظائف الكبد هى تخزين السكر فى الجسم ، وليست هذه الوظيفة هى وظيفته الوحيدة » .

سادسا : تستخدم كلمة « وظيفة » لتشير الى المساهمات التى يقوم

(7) B. Malinowski. A Scientific Theory of Culture p. 159.

Quoted in Nagel : Structure of Science p. 524.

بها شيء ما (او يستطيع ان يقوم بها اذا توافرت ظروف ملائمة)
لكى يحافظ على خاصية معينة او شرط محدد فى نسق معطى يفترض
انتماء هذا الشيء اليه (٨) .

لقد بدأت المدرسة الوظيفية بدراسة المعايير norms ، أى نظرة
الأفراد الى الطريقة التى ينبغى ان يملكوا على اساسها او كيف كان
سلوكهم بالفعل فى مختلف الظروف . وقد اهتم الوظيفيون بصفة خاصة
بشبكة المعايير التى يطلق عليها اسم دور role ، ثم اهتموا بشبكة
الأدوار التى تسمى بالأنظمة institutions . ومن هنا جاء اهتمامهم
بالأنظمة . وقد اعتبروا الدور هو وحدة التحليل الاجتماعى وليس الفرد
الذى يقوم بالفعل . وقد اهتمت الوظيفية فى مرحلة تالية بالعلاقات
المتبادلة بين الأدوار وبالعلاقات المتبادلة بين الأنظمة ويعتبر هذا هو
الجانب البنىوى من عملهم . وقد قام بهذا العمل مجموعة من
الانثروبولوجيين الاجتماعيين مبينين كيف تتسق الأنظمة فى مجتمع بدائى
ثم انتقلوا لتشمل دراساتهم المجتمعات المتقدمة .

وقد انحصر اهتمام المدرسة الوظيفية فى النتائج أكثر من اهتمامها
بالأسباب خاصة نتائج النسق الاجتماعى باعتباره وحدة واحدة ،
وقد اعتبرت هذه النتائج وظائف الأنظمة . وقد اهتم الوظيفيون ببيان
الوظائف الخاصة بنسق ما ، الى جانب اهتمامهم باختلال تلك الوظائف
dysfunction . وذلك بدون طرح أسئلة عن سبب وجود النسق
منذ البداية (٩) .

(8) Nagel. Structure of Science pp.523 - 525 .

(9) G. C. Homans. Bringing men back in. In. A. Ryan
(Ed.) . The Philosophy of Social Explanstion. London : Oxford
Univ . Press. 1973 pp. 50 - 64, pp. 50 - 51.

وقد رأى البعض أن التحليل الوظيفي في العلوم الاجتماعية يحاول أن يتبنى نوعاً من التفسير شائع في البيولوجيا وخاصة في الفسيولوجيا ويتمثل في تحليل البناء والعمليات الخاصة بأجزاء مختلفة من الجسم ، بهدف عرض الطريقة التي تحافظ على بعض الأنشطة المميزة أو على خصائص الجسم (أو النسق) ، على الرغم من التغيرات التي تقع في المحيط الخارجي والمحيط الداخلي (١١) . وقد رأى ناجل أنه لا يوجد اختلاف بين التفسيرات الوظيفية والتفسيرات الغائية على أساس أن التفسيرات الوظيفية تقوم على عرض الجهود التي تبذلها بعض العناصر أو الأشياء للمحافظة على المجتمع . أي أنها في ذكرها للدور الذي يلعبه الفعل تهدف إلى تحقيق غاية ما ، وهي هنا نموذج التفسيرات الغائية teleological في علم الفسيولوجيا . وقد وجد ناجل أن التفسيرات الوظيفية تستخدم تعبيرات معينة مثل « بهدف فعل شيء ما » in order that أو « من أجل تحقيق شيء ما » for the sake of

كما تشير كثير من التفسيرات الوظيفية إلى حالة أو حدث مستقبل ، يصبح في ضوء وجود الشيء أو حدوث الفعل أمراً مفهوماً أو مدركاً (١٢) . وبينما وحد ناجل بين التفسيرات الوظيفية والتفسيرات الغائية فقد فعل البعض عكس ذلك وميزوا بينهما . وقد عرف « جرونر » التفسير الغائي بأنه تفسير في ضوء الأهداف والرغبات والدوافع والميول ... الخ ، وما دام البشر وحدهم يملكون أهدافاً ورغبات ودوافع وميولاً فإن التفسيرات الغائية توجد فقط في مجال الأفعال الانسانية . أما التفسير الوظيفي فهو تفسير في ضوء المساهمة التي يقوم بها شيء ما أو عملية معينة من أجل المحافظة المستقبلية على نمق محدد ، يعتبر هذا الشيء

(10) Nagel , Problems of Concept and Theory Formation in the Social Sciences p. 191.

(11) Nagel. Sturucture of Science p. 24.

أو تلك العملية جزءاً منه . وترتبط كلمة « وظيفة » فى التفسير الوظيفى بمعنى واحد معين هو « الوظيفة داخل النسق » . أما عن نوع النسق فقد يكون ميكانيكياً أو بيولوجياً أو اجتماعياً أو يتخذ أى شكل آخر ، وما يهمنا هو أن التفسيرات الغائية تخلو تماماً من الإشارة إلى النسق (١٣) .

أن التفسيرات الغائية تمتلك نفس بناء التفسيرات الوظيفية إلا أنها تختلف عنها فى الشكل ، وفى التفسير الغائى تنتقل من الهدف إلى الفعل أى من السبب إلى النتيجة ، وفى التفسير الوظيفى تنتقل من الوظيفة إلى الموضوع الذى قام بتلك الوظيفة أى من النتيجة إلى السبب (١٤) .

وقد حاول بعض العلماء رد التفسير الوظيفى إلى التفسير السببى فبينوا كيف نستطيع ترجمة تقرير عن وظيفة نظام ما إلى تقرير سببى عن أصل واستمرار هذا النظام . إحدى هذه الطرق تتمثل فى وضع أحد النزعات الأصلية والعامّة فى المجتمعات كمصادرة ، فنقول أن أجزاء المجتمع تندمج وظيفياً داخل الكل . وتكون وظيفة النظام فى هذه الحالة هى سبب وجوده *raison d'être* ، وبالتالي سببه أو علته *Cause* . وتقوم الأسس المنطقية لهذه المصادرة على التكامل *complementarity* بين الأدوار والأنظمة : أن دور الزوجة يتضمن دور الزوج ، ويتضمن تخصص الشخص فى الوظائف التنفيذية القول بأنظمة منفصلة للتشريع والقضاء ، وهكذا . أما الأساس المنطقى الثانى للمصادرة فيقوم على الاعتقاد فى أن تكامل المجتمعات ينبنى على اندماج

(13) R. Gruner . *Teleological and Functional Explanation*. in *Mind*. October 1966, pp. 516 - 526 . p. 517.

(14) *Ibid*. p. 526.

وتكامل الشخصية الانسانية : فما دام فرد بعينه يقوم بأدوار عدة فى مجموعة من الأنظمة وما دام الأفراد يطمحون الى التماسك ، فيرتب على ذلك القول بأن كل أنظمة المجتمع لا بد لها أن تصطبغ بنفس التفصيلات القيمة ، وب نفس أنماط الاتجاهات ازاء الفعل ، وب نفس نماذج السلطة ، وب نفس النظرة الى العالم مع نفس الاحساس بالوقت ... الخ (١٥) .

تعتبر الوظيفة اذن منهجا لتفسير الأحداث والأنظمة الاجتماعية وذلك عن طريق ذكر الوظيفة التى تؤديها . ويعتبر تحديد الوظيفة تفسيراً للمظاهرة لأنه يوجد مجموعة من الافتراضات النظرية عن كيفية عمل المجتمع . وتركز الوظيفة على فهم المجتمع باعتباره مجموعة من الأساق (١٦) المرتبطة بعلاقات وذلك دون الرجوع الى حالات او اوضاع سابقة . ويكفى التفسير الرجوع الى الوقائع الملاحظة والمعروفة فلا يوجد ما يستدعى الذهاب الى ما وراء الوقائع الملاحظة او الاستعانة بالتاريخ : ان كل اجزاء المجتمع ممكنة التفسير عن طريق الاشارة الى علاقاتها بالاجزاء الأخرى . ونستطيع القول ان الوظيفة هى عبارة عن نظرية خاصة بالمجتمع لا تحتاج الى اى بحث للمجتمع ذاته من أجل التوصل الى فهمه ومن هنا عدم حاجتها الى استخدام الحدس او الخيلة وتكفى الملاحظة التجريبية .

(15) R. P. Dore. Function and Cause. in Ryan (ed.) The Philosophy of Social Explanation pp. 65 - 81, p. 68.

(١٦) يشير مفهوم النسق الى كل من الاعتماد المتبادل والمعقد بين الأجزاء والمكونات والعمليات التى تتضمن علاقات مطردة ، كما يشير الى نمط ثانى من الاعتماد المتبادل قائم بين الموضوع والبيئة المحيطة .
(انظر :)

T. Parsons Social Systems in D. Sills (ed.) op. cit. pp. 458 - 472, p. 458.

ولا شك أن استعراضنا لعدد من الشخصيات البارزة فى هذا الاتجاه سوف تلقى ضوًا على تطوره .

ويعتبر مالىنوفسكى (١٨٧٣ - ١٩٢٠) B. Malinowski
أول من استخدم المفهوم « وظيفة » فى الانثروبولوجيا الاجتماعية
كتعبير عن منهج معين واتجاه فى البحث ، وذلك فى مقالة له تحت
عنوان : « انثروبولوجيا » نشرت فى الموسوعة البريطانية عام ١٩٣٦ .
وقد تلاه بعد ذلك علماء آخرون مثل روبرت مرتون ، وراى كليف
براون ، وغيرهم .

وقد رأى مالىنوفسكى - ويدعى أبو الوظيفة - أن التحليل الوظيفى
للثقافة يهدف الى تفسير الوقائع الانثروبولوجية فى كافة مستويات
تطورها عن طريق وظائفها . ويحدث ذلك عن طريق معرفة الدور الذى
تلعبه الوقائع داخل النسق الثقافى ، والطريقة التى ترتبط بها هذه
الوقائع ببعضها البعض داخل النسق ، وأخيرا بواسطة الطريقة التى
يرتبط بها النسق ذاته بما يحيط به من أشكال مادية . معنى ذلك أن
النظرة الوظيفية الى المجتمع تؤكد على المبدأ الذى يقوم على القول
بأن كل نمط من أنماط الحضارة ، وكل تقليد ، وكل موضوع مادى ،
وكل فكرة أو معتقد ، تقوم بدور حيوى وتؤدى مهمة محددة ، وتمثل
جزءا لا غنى عنه فى داخل الكل (١٧) .

وتتوافق الأنظمة الرئيسية فى المجتمع مع الحاجات البيولوجية
الأساسية للكائن البشرى الذى لا يمكن له أن يعيش بدونها . ومن هنا رأى
مالينوفسكى أنه يتعين على التفسير الوظيفى لواقعة اجتماعية معينة أن
يبين قيمة استمرار هذه الواقعة وذلك عن طريق عرض وظيفتها فى

(17) B. Malinowski « Anthropology . » Encyclopedia
Britannica. Suppl. Vol. 1 New York and London 1936 pp. 132 -33

الوفاء بشروط الحياة وبالتالي فى ارضاء الحاجات الأساسية للكائنات البشرية (١٨) .

وقد دخلت الوظيفية علم الاجتماع من خلال تدريس راد كليف براون (١٨٨١ - ١٩٥٥) A R. Radcliffe - Brown ، ثم قويت بفضل تالكوت بارسونز T. Parsons وظهر مفهوم « البنية » بجانب مفهوم « الوظيفة » فى اعمال راد كليف براون وبارسونز وأصبح « الوظيفى - البنائى » أو « الوظيفى البنئوى » هو السائد .

وركز راد كليف براون اهتمامه على الحياة الاجتماعية ، فقد رأى أن الوظيفة الأولية لآى عنصر داخل البناء الاجتماعى تتمثل فى الحفاظ على التماسك الاجتماعى . وبالتالي فإن تحليلاته حازلت أن تبين كيف أن كل نظام ساهم مع عناصره المكونة فى المحافظة على التماسك أى على استمرار المجتمع . وقد قامت تصورات راد كليف براون ازاء المجتمع والثقافة على ثلاثة أسس : الثبات Stability والتوازن equilibrium والتكامل أو الدمج Integration .

ولم تخلو نظرية راد كليف براون من مقارنات للتحليل الوظيفى فى كل من العلم الاجتماعى والفسولوجيا . فاذا تناولنا أى جزء من عملية حياة كائن ما مثل التنفس أو الهضم ... الخ ، فالتنا نجد أن وظيفته تتمثل فى الدور الذى يلعبه ، والمساهمة التى يقوم بها ازاء حياة الكائن باعتباره كيانا قائما بذاته . أن كل خلية وكل عضو له نشاطه الخاص ، وهذا النشاط له وظيفة . ونلاحظ أن وظيفة أى عملية فسيولوجية هى عبارة عن توافق بينها وبين احتياجات الكائن (أى الشروط

(18) B. Malinowski « The Functional Theory » in « A Scientific Theory of Culture . Chapel Hill. N. C. 1944 pp. 147 - 76 Quoted in Naguel Structure of Science p. 521.

الضرورية لوجوده) . فإذا انتقلنا من الحياة العضوية الى الحياة الاجتماعية وقمنا بدراسة مجتمع معين مثل القبائل الافريقية او الاستراليه ، فسوف نلاحظ وجود بنية او بناء اجتماعى *Social structure* وترتبط الكائنات البشرية الفردية - وتمثل الوحدات الأساسية فى هذه القبائل - بواسطة مجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية لتكون كلا موحدا . ولا تؤثر التغيرات التى تحدث فى الوحدات على استمرارية البنية الاجتماعية تماما مثل البناء العضوى . فقد يترك بعض الأفراد المجتمع عن طريق الموت أو خلافه ، وقد يدخل آخرون . أن ما يحافظ على استمرارية البناء هو الحياة الاجتماعية نفسها *The process of social life* التى تتكون من أنشطة وتفاعلات الأفراد ، ومن الجماعات المنظمة . وتعرف الحياة الاجتماعية لجماعة ما على أساس أنها وظيفة البنية الاجتماعية أو البناء الاجتماعى . وتعتبر وظيفة أى نشاط متكرر - مثل عقوبة جريمة ما ، أو حفلة ، أو جنازة ، تعتبر الدور الذى يلعبه هذا النشاط فى الحياة الاجتماعية ككل وبالتالي المساهمة التى يقوم بها فى المحافظة على الاستمرارية فى البنية أو البناء (١٩) .

ان مهمة العلم الاجتماعى فى رأى راد كليف براون تتمثل فى دراسة طبيعة الانساق الاجتماعية . فهو يهدف الى كشف القضايا العامة التى تسمح لنا بفهم وتاويل خصائص الانساق الاجتماعية (٢٠) . والمشكلة التى تواجهنا هى امكان التوصل الى علم طبيعى للمجتمعات الانسانية . معنى ذلك القيام بتطبيق نفس الطرق المنطقية التى تستخدم

(19) A. R. Radcliffe - Brown. *Structure and Function in Primitive Society* London 1952 pp. 179 - 80.

(20) A. R. Radcliffe - Brown . *A Natural Science of Society*. Illinois : The Free Press 1957, p. 153.

فى العلوم الفيزيائية والبيولوجية على ظواهر الحياة الاجتماعية الخاصة بالبشر ، على الأنظمة الخلقية والدينية والقانونية ، وعلى الأنظمة السياسية والاقتصادية ، وعلى الفنون والعلوم ، وعلى اللغة . وذلك بهدف التوصل الى صيغ دقيقة علميا من التعميمات المحتملة ذات المعنى . ان هذا العلم الذى يتصوره راد كليف براون لا يوجد حتى الآن الا انه ممكن ، ذلك انه لا يوجد الا علم واحد على الرغم من ان كل علم قد يستخدم طرق مستقلة مثل اللغة ، ولابد لهذا العلم ان يكون متميزا عن علم النفس كتميز الفسيولوجيا عن الكيمياء . اما المنهج المقترح فهو المماثلة أو المقارنة المنظمة للمجتمعات ذات الأشكال المختلفة . ويتوقف تطور العلم ونموه على تحسين المنهج المقارن وجعله أكثر دقة باعتباره أداة تحليل . ويحتاج هذا الى عدة خطوات هى :

- ١ - التحسن المستمر فى مناهج ملاحظة ووصف المجتمعات .
- ٢ - الوصول الى تعريف دقيق للمفاهيم الأساسية التى نحتاجها من أجل وصف وتصنيف وتحليل الظواهر الاجتماعية .
- ٣ - تطور التصنيف المنظم لأنماط المجتمع (٢١) .

وقد اهتم راد كليف براون مثل كل الموظفين بالنسق ، وراى ان كل المشكلات العلمية هى مشكلات الأنساق التى تقوم بالوصف . وقد نادى بالأنساق الطبيعية فالعلاقات داخل نسق طبيعى هى علاقات اعتماد متبادل *interdependence* (٢٢) ويتحدد النسق عن طريق تعريف وحداته وتعريف العلاقات بين الوحدات المكونة للنسق . اما وحدات النسق الاجتماعى فهى البشر باعتبارهم مجموعات من الأحداث السلوكية تربط بينهم علاقات اجتماعية (٢٣) .

(21) Ibid. p. 3.

(22) Ibid. p. 19.

(23) Ibid. p. 26.

وتتمثل مشكلة العلوم الاجتماعية فى تقسيم الأنساق الى أنماط types ولن نستطيع التوصل الى أى تقرير عن المجتمعات الا إذا صنفها معا الى عدد من المجموعات التحتية subclasses أى الى أنماط . وإذا كان النسق كما رأينا هو مجموعة من العلاقات بين مجموعة من الكيانات القائمة بذاتها فان تلك العلاقات لا تظل ثابتة ، فهناك اتصال ديناميكى ، ولكن يظل النسق موجودا طوال فترة هذا الاتصال الديناميكى للبناء الاجتماعى (٢٤) .

وقد حدد راد كليف براون كل مشاكل المجتمع فى مجموعات ثلاث هى :

١ - كيف تصنف المجتمعات ؟

٢ - كيف تستمر ؟

٣ - كيف تغير نمطها ؟

وتنحصر مهمة العلوم الاجتماعية فى تأكيد البقاء الأبدى للانساق الاجتماعية عن طريق محافظتها على شكل البنية الاجتماعية الخاصة بها .

وتشتمل البنية الاجتماعية على نوع من الوحدة أو الكيان الرظيفى على اعتبار أنه يتألف من أجزاء أو انساق اجتماعية تتوافق فيما بينها بدرجة منتظمة ، ويكون لكل نسق فيها وظيفته فى هذا الكيان . ولا شك أن رادكليف براون قد تابع اتجاه دوركايم فى تفسير طبيعة الظاهرة الاجتماعية والثقافية فى حدود عدد من المفروض النظرية ، مثل فرض التماسك solidarity ، وفرض الدوام والاستمرار consistency وظهور بعض الملامح والسمات البنائية التى تتساند فيها ببعضها حين تتكامل وتتوظف فى البناء الاجتماعى (٢٥) .

(24) Ibid. p. 80.

(٢٥) قبارى ابنعيل . مرجع سابق ص ٣٦٩ .

وقد ظهرت آراء مرتون (١٩١٠ -) R. M. Merton (فى مقاله « الوظائف الواضحة والوظائف المستترة » Manifest and Latent Functions كالتالى :

١ - يحتاج المفهوم « وظيفة » الى تعريف محدد ، لذا يجب فصل المفاهيم المرتبطة بالحالات الذاتية عن تلك التى ترتبط بنتائج الافعال ، ويقول مرتون « ان الوظيفة الاجتماعية تشير الى نتائج موضوعية خاضعة للملاحظة و لاتشير الى ميول ذاتية (اهداف ، دوافع او غايات) » (٢٦) .

٢ - ان كثيرا من الاهتمامات الوظيفية فى علم الانثروبولوجيا يحتاج الى مراجعة واستبعاد . فالقضية التى تقوم على ان المجتمع يملك وحده وظيفة او اتساق ضمنى ، تلك القضية التى يرى مرتون انها ترتبط برادكليف براون لابد وان تستبعد ، او على الاقل لا تؤخذ كمسلمة ، لأن درجة تماسك المجتمع تحتاج ان تعامل كمتغير تجريبي . وتحتاج قضايا أخرى الى مراجعة بهذا الشكل .

٣ - لا بد من مراجعة الوظيفة فى ضوء المادية الجدلية كما تنبئ لدى ماركس وانجلز . وتحتاج هذه المراجعة فى رأى مرتون الى :

(١) اعتبار الوظائف نتائج ملاحظة للممارسات المقننة التى تساعد على تلائم نسق ما او تعديله (٢٧) وتوضع الوظيفة هنا فى مقابل الاختلال

(26) R. M. Meton. « Manifest and Latent Functions » in Demerath and Peterson (eds.) System, Change and Conflict . New York : Free Press 1967 , p. 14 .

(27) Merton Ibid. p. 43.

تلائم النسق dysfunction الذى يشير الى ظواهر تتحرك ضد
الوظيفى adaptation او تعديله .

(ب) لا بد ان يتضمن التحليل الوظيفى تقييم مجموعة النتائج . فقد
تكون ممارسة اجتماعية معينة وظيفية فى بعض جوانبها او فى
مستويات معينة للنسق التى هى جزء منه وتكون مختلفة وظيفيا . ففى
جوانب او مستويات اخرى .

(ج) يتجسم فصل الوظائف الواضحة manifest
وهى تلك النتائج الموضوعية التى تساهم فى تلاؤم او تعديل النسق
المعترف به من جانب المشاركين فيه (٢٨) ، فصلها عن الوظائف المستترة
latent غير المرغوب فيها وغير المعترف بها .

٤ - يحتاج تحليل المتطلبات الوظيفية للنسق الى استكمال عن
طريق الاعتراف بوجود مدى معين للتغيير فى البدائل الوظيفية . وتتحدد
احتمالات التغيير فى اى حالة بواسطة قيود اجتماعية Social constraints
مشتقة من العلاقة المتبادلة بين عناصر البنية او البناء الاجتماعى (٢٩) .

ويعبر تالكوت بارسونز (١٩٠٢ -) T. Parsons
عن نزعة بنائية - وظيفية فى محاولة صياغة نظرية عامة عن المجتمع ،
ويتضح ذلك فى كتابية « بنية الفعل الاجتماعى » Structure of Social
Action . و « النمسق الاجتماعى » Social System .
لقد اعتبر بارسونز النسق العام للفعل بمعنى السلوك الانسانى هو نقطة
الانطلاق . وينقسم هذا النسق الى اربعة نساق تحتية soussystemes
نسق بيولوجى ، ونسق نفسى ، ونسق اجتماعى (تفاعل بين القائمين

(28) Loc. Cit.

(29) Ibid. p. 44.

بالفعل) ، ونسق ثقافى (معايير ، قيم ، ايدىولوجيات) ويأتى الفعل الواقعى كنتيجة للقوى الصادرة عن الانساق التحتية ، ويقوم كل علم من علوم الانسان بدراسة قطاع واحد . ويوجد تسلسل لهذه الانسقة التحتية: ان أكثر الانساق ثراء بالمعلومات يوجد فى النسق الثقافى الذى يقع فى القمة ، مع النسق الاجتماعى ، وأكثر الانساق ثراء بالنشاط هو النسق البيولوجى الذى يوجد فى اسفل السلم ، مع النسق النفسى (٣٠) .

وقد وضع بارسونز مجموعة شروط بدونها لا يصبح السلوك او الفعل اجتماعيا وهي :

اولا : ضرورة ان يتضمن الموقف الاجتماعى تواجد عدد من الاشخاص المشتركين فى انجازه والقيام به .

والشرط الثانى : ان الموقف قد يصبح اجتماعيا اذا ما توافرت ردود الافعال المباشرة لسلوك الفاعل الاجتماعى .

لما الشرط الثالث والاخير : فيتعلق بضرورة مشاركة الفاعل الاجتماعى مع الآخرين ، وفى ضوء انساق التوقعات المنتظرة استنادا الى سيادة نسق من الرموز والمعتقدات والقيم . وارتكنا الى هذا الفهم ، فان افعال الاشخاص المشتركين فى موقف اجتماعى محدد سوف تصبح متشابهة اذا ما تشابهت الظروف والاشخاص . وقد تتكرر ايضا نفس الافعال والاشخاص فى مختلف المواقف والظروف ، اذا ما تكررت وتماثلت نفس الاهداف والتوقعات (٣١) .

(30) M. Grawitz . Méthodes des Sciences Sociales p. 441.

(31) P. Cohen. Modern Social Theory . London : Heinemann 1968, P. 9 : Quoted in

ويستند البناء الاجتماعى أو البنية الاجتماعية الى عناصر التفاعل التى تدور بين سائر الافراد والاشخاص ، فالبناء الاجتماعى هو مبعث التصورات والمعايير المنظمة للسلوك ، كما أنه مصدر عملية الترميم التى تحدد السلوك الاجتماعى طبقا لقوالب معينة يفرضها النسق الاجتماعى . والفارق بين « النسق » و « البناء » أو « البنية » هو فارق فى الدرجة حيث أن السلوك داخل النسق الاجتماعى هو جزء لا يتجزأ من نطاق أو مدار أوسع وأشمل هو اطار أو مدار البناء الاجتماعى . والسلوك البنائى عند بارسونز هو ذلك السلوك الذى يخضع لنزعة كلية وجمعية ، وفقا لأنساق التفاعل وطبقا لقواعد التوقع والنتائج المنتظرة (٣٢) .

وقد ميز بارسونز بين عناصر اربعة مكونة للبناء وثابتة هى :
الادوار (المتصلة بأنشطة الافراد فى المجتمع : عمدة أو قاض ...)
والكليات أو الجماعات (امر ، أحزاب سياسية) ، والمعايير ، والقيم ،
وتشتق المعايير والقيم من النسق الثقافى والنسق الاجتماعى ،
وتمتاز بالثراء فى المعلومات بينما تمتاز الادوار والكليات
أو الجماعات بالنشاط . وكما حدد بارسونز عناصر البنية
فقد بين أن النسق الاجتماعى يتحرك فى مواجهة عوامل اللاتوازن التى
تهدده . ويذكر اربعة وظائف تقف فى مواجهة المشاكل : وظيفة الثبات
المعيارى *stabilité normative* وهى أقل الوظائف دينامية
(ويقارنها بارسونز بمبدأ القصور الذاتى فى الميكانيكا) ووظيفة التكامل
أو الدمج *intégration* التى تنظم العلاقة بين عناصر النسق ،
ووظيفة متابعة الهدف ، وأخيرا وظيفة التلائم *adaptation*
التي تنحصر فى مجموعة الوسائل التى يملكها النسق للوصول الى
تحقيق أهدافه . وتتمثل هذه الوظائف الاربعة فى تواز مع الابنية
أو البنيات ، فتتوافق الوظائف الأولى والثانية مع القيم والمعايير وتتوافق

الثالثة والرابعة مع الكليات أو الجماعات والأدوار باعتبارها أكثر اتصالاً بالواقع (٣٣) .

ثانياً : نظرة نقدية الى الاتجاه الوظيفي :

تعرضت الوظيفية لكثير من الانتقادات فقليل مثلاً ان هذا الاتجاه قد وضع قيوداً تعوق البحث وتتمثل فى المآخذ التالية :

١ - تحيز ايديولوجى محافظ يهدف الى المحافظة على الوضع القائم .

٢ - نقص فى الوضوح المنهجى بسبب الاهتمام بالبناءات والتفسيرات الغائية للحياة الاجتماعية .

٣ - تقدير غير متناسب لدور الانساق المغلفة فى الحياة الاجتماعية .

٤ - فشل نسبى فى تناول مشكلة التغير الاجتماعى بنجاح (٣٤) .

أما بالنسبة لكون الوظيفة متميزة ايديولوجياً ففي الواقع ان نظرتها الايديولوجية قد انعكست على موضوع ومنهج الدراسة الاجتماعية ، وذلك بتطبيقها لوجهات نظر محافظة تهدف الى الحفاظ على الوضع القائم من خلال ترابط العلاقات داخل النسق ، وعلى سلامة البناء الذى هو كيان كلى قائم بذاته .

وقد ارتبط بهذه النظرية المحافظة ميل شديد من جانب الوظيفيين

(33) Grawitz p. 442 .

(34) Don Martindale , Limits of and Alternatives to Functionalism in Sociology . in D. Martindale (ed.) Functionalism in the Social Sciences. Philadelphia : The American Academy of Political and Social Sciences 1965 pp. 144-162, p. 156.

لتقديم تفسيرات ستاتيكية لو استقرارية للمجتمع ، تنكر الاعتراف بالقوى المتعارضة والمتصارعة فى بناء المجتمع وتحاول أن ترد كل شيء الى فكرة التوازن اما الصراع فهو حالة مرضية عارضة أو على الاقل حالة غير سوية ، وان المجتمع لن يلبث أن يرد الى حالة التوازن الاجتماعى الاصيل (٣٥) . ويرجع ذلك الى كونها نظرة محافظة تعلق من قيم التسائد والانسجام والتناغم من أجل تحقيق التضامن والتماسك بين سائر الانساق والانظمة والعلاقة المائدة فى البناء الاجتماعى . الأمر الذى اخفقت معه النظرية الوظيفية الى حد كبير فى تفسير ظواهر التغير والصراع والتفكك (٣٦) .

لقد تصدت الوظيفية منذ البداية للماركسية بصراعاتها - مفهوم صراع الطبقات - ، وجمعت خصائص العقلية الامريكية وهى : النظرية الدينامية (هناك وظيفة) ، والنزعة النفعية (هناك فائدة أو منفعة) ، واخيرا التوازن والتفأول (اغفال الاختلاف فى الوظائف) .

لقد أكد رادكليف براون التماسك الاجتماعى من أجل استمرار المجتمع ، وعلى هذا الاساس اقام تحليلاته الوظيفية . الا ان هذا الاتجاه اهمل تماما تفسير التغير ، وكان لا بد له من البحث عن تحليل اعمق للعوامل المؤدية الى التغير ، فكل تغير لا يمكن اعتباره ناتجا عن تأثيرات خارجية ، ذلك أن اغلب البناءات الاجتماعية تملك بداخلها عناصر الاعتراض والصراع بدليل أن التكامل أو الدمج الاجتماعى لم يكن بالكمال المفترض ، كما أن اغلب المجتمعات ليست فى توازن تام

(٣٥) د . أحمد أبو زيد : ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع ، عالم الفكر ، الكويت المجلد الثامن . العدد الاول (ابريل - مايو - يونية ١٩٧٧) ص ٢٣٣ - ص ٢٥٤ - ص ٢٤٦ .

(36) P. Cohen. Modern Social Theory . Quoted in

د . قبارى اسماعيل ، ص ٣٧٨ .

والصرح يعتبر أحد المظاهر الأساسية فى المجتمع . ويقول باستيد
R. Bastide . فى هذا الصدد : « ان الوظيفة تفسر جيدا لماذا
تستمر الأشياء ولكنها لا تفسر لماذا تتغير ؟ » (٣٧) .

ويرى آخرون ان الوظيفة لم تقدم نظرية أو تفسيراً ، فهى عاجزة
عن القيام بذلك بسبب اهتمامها ، منذ البداية ، بقضايا خاصة بشروط
التوازن الاجتماعى وهى قضايا لا يمكن ان تشتق منها نتائج نهائية فى
نسق استنباطى (٣٨) . ويؤكد ناجل على استحالة اعتبار الوظيفة «نظرية»
عن الثقافة لأن النظرية تحتاج الى الاتفاق مع الادلة التجريبية المتوافرة ،
وهناك أدلة على ان المجتمعات ليست انساقاً عضوية متماسكة كما تدعى
المدرسة الوظيفية (٣٩) .

اما عن التفسيرات التى يقدمها الاتجاه الوظيفى بهدف عرض وظائف
عناصر مختلفة فى النسق الاجتماعى سواء للحفاظ على النسق أو تغييره
فانها - التفسيرات - تفتقد الى المحتوى الواقعى Substantive content
اما عن الادعاءات التى يقدمها الوظيفيون (سواء على شكل بديهيات
أو فروض للبحث) بخصوص الطابع الدمجى integral
أى الوحدة الوظيفية للانساق الاجتماعية - تلك الانساق الناتجة عن قيام
أجزاء النسق بالعمل معا مع قدر كاف من « التوافق والانساق الداخلى »
- أو الوظيفة الحيوية أى الدور الاساسى الذى يلعبه كل عنصر فى المجتمع

(37) R. Bastide. Sociologie Interpretative et Typologie
constructive in Gurvitch « Sociologie au XXe siècle » (97 bis
B 1970) pp. 71 - 95 Quoted in Grawitz p. 428.

(38) Homans. Bringing men back in op. cit. p. 64.

(39) Nagel , Problems of concept and Theory Formation
p. 194 , and also Nagel . Structure of Science p. 525 .

داخل الكل العامل ، هذه الادعاءات لا يمكن الحكم عليها بأنها سليمة او مشكوك فيها او على خطأ . إن غياب أوصاف دقيقة تساعد على التعرف على الحالات الموجودة فى نسق اجتماعى معين ، يجعل تلك الادعاءات غير قابلة للتحكم التجريبي ، خاصة وانها متلائمة مع كل حالة فى الواقع ، وكل نتيجة للبحوث التجريبية فى المجتمعات الحالية (٤٠) .

أما النقد انطوى الحاسم للوظيفية فهو القائل بان الاتجاه الوظيفي انما يعبر عن نزعة غائية teleological تنزع نحو التفسير الغائي ، حين تفترض فروضا غير قابلة للاختبار untestable

لانها تتطلب مستويات من البحث العلمى قد لا تتوافر على الإطلاق فى ميدان علم الاجتماع . ومن هنا تعتبر النزعة الوظيفية والاتجاهات البنائية محاولات غير علمية ويائسة لتحقيق فروض غير قابلة للتحقيق . ثم أن محاولة تطبيق المنهج الوظيفي انما تمنع المقارنة وتعوّق تطبيق المنهج المقارن حيث يتعذر عقد مقارنات بين سائر النظم والانساق ، لانها لا تفحص الا فى ضوء البناءات الاجتماعية التى هى أجزاء منها (٤١) .

ويؤخذ على هذا الاتجاه أنه يغفل العلاقات الاجتماعية الواقعية او يتغافل عنها ، فلا يهتم الا بالعموميات او المبادئ التى تحكم سير المجتمع والتى يمكن الوصول اليها عن طريق التجريد العقلى . وهذا معناه عدم الاهتمام بالواقع المتغير او بعلاقات الافراد بعضهم ببعض مما يعنى فى آخر الامر أن ما يصفه العلماء البنائيون ليس هو الواقع وانما هو شيء متخيل ومتصور وليس له وجود خارج اذهانهم وانما يقدمونه لقرائهم هو مجتمع من صنعهم هم ولا علاقة له بالحقيقة الواقعية (٤٢) .

(40) Nagel, Structure of Science p. 530 .

(٤١) د . قبارى اسماعيل : مرجع سابق ، ص ٣٧٤ .

(٤٢) د . أبو زيد : مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .

وقد اغفل التفسير الوظيفى ، والبنائى - الوظيفى البحث عن السبب أو العلة . فعلى الرغم من محاولات التوفيق بين الوظيفة والسبب الا ان فكرة الوظيفة تتيح مجرد تحليل بعض المواقف وتقديم ملاحظات وقد تعنى بالمحافظة على السبب الموجود من قبل والذي تشتق منه الوقائع الا انها لا تتجاوز ذلك المستوى الى الاسباب التى ادت الى وجود تلك الوقائع .

الا ان الانتقادات السابقة لم تمنع وجود مزايا هامة فى المدرسة الوظيفية تمثلت فى الآتى :

١ - انها ادخلت مفهوم النسق system وهو مفهوم اجتماعى فى وقت كانت فيه التحليلات الاجتماعية موجهة نحو تحليل السلوك الفردى .

٢ - انها استبعدت التفكير فى الدوافع الانسانية وادخلت بطريقة موضوعية عوامل محددة للمحافظة على الانساق الاجتماعية .

٣ - انها ساهمت ، عن طريق تأكيدها على النسق العضوى ، فى الاقتراب من تحقيق فكرة رادكليف براون عن العلم الطبيعى للمجتمع .

٤ - انها بينت عدم جدوى الدراسات الخاصة باصل ومنشأ الانظمة origin والعمليات التى تتغير الانظمة بواسطتها .

٥ - انها ربطت كل الظواهر الاجتماعية الى نسق موحد للفكر .

ولا شك ان المزايا السابقة تعتبر خطوات هامة من أجل فهم المجتمع وتفسيره .

* * *

ثالثا : الاتجاه البنوي ونظريته الى التفسير :

يقدم لنا عالم النفس المشهور « جان بياجيه » أحد التعريفات الهامة للبنية فيذكر انها كتقدير أول تعتبر نسقا من التحولات transformations يحوى قوانين (فى مقابل خصائص النسق) . ويحافظ النسق على ذاته ويثريها عن طريق الدور الذى تقوم به التحولات ، وذلك دون أن نخرج هذه التحولات عن حدودها أو تستدعى أية عناصر خارجية . وباختصار نستطيع القول أن البنية تتصف بثلاث خصائص هي : الكلية أو الجملة totalité والتحول transformation والضبط الذاتى auto - rég'age . (٤٣) .

والمقصود بالسمة الاولى ، وهى الكلية ، هو أن البنية لا تتألف عن عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن « الكل » ، بل هى تتكون من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق ، من حيث هو « نسق » . ولا ترتد قوانين تركيب هذا النسق الى « ارتباطات تراكمية » ، بل هى تضى على « الكل » من حيث هو كذلك خواص « المجموعة » باعتبارها متميزة عن خصائص « العناصر » . وليس المهم فى « البنية » هو العنصر أو الكل الذى يفرض نفسه على العناصر ، وإنما المهم هو « العلاقات » القائمة بين العناصر ، أى عمليات التأليف (أو التكوين) ، على اعتبار أن « الكل » ليس إلا الناتج المترتب على تلك « العلاقات » أو « التأليفات » . مع ملاحظة أن قانون هذه العلاقات ليس إلا قانون النسق نفسه .

(43) J. Piaget. Etudes d'épistémologie génétique . P. V. F. P.

8 Quoted in Grawitz. P. 429.

انظر أيضا جان بياجيه : البنيوية ، ترجمة عارف منيمنة ويشير أوبرى ، بيروت منشورات عويدات ، ١٩٧١ ، ص ٨ .

واما المقصود بالسمة الثانية ، الا وهى التحولات ، فهو أن « الجامع الكلية » تنطوى على ديناميكية ذاتية ، تتألف من سلسلة من التغيرات الباطنة التى تحدث داخل « النسق » ، خاضعة فى الوقت نفسه لقوانين « البنية » الداخلية ، دون توقف على أية عوامل خارجية .

واما المقصود بالسمة الثالثة ، وهى التنظيم الذاتى ، فهو أن فى وسع « البنيات » تنظيم نفسها بنفسها ، بها يحفظ لها وحدتها ، ويكفل لها المحافظة على بقائها ، ويحقق لها ضربا من « الانغلاق الذاتى » . ومعنى هذا أن للبنيات قوانينها الخاصة التى لا تجعل منها مجرد « مجموعات ناتجة عن تراكمات عرضية ، أو ناجمة عن تلاقى بعض العوامل الخارجية المستقلة عنها ، بل هى « انسقة » مترابطة تنظم ذاتها ، سائرة فى ذلك على نهج مرسوم وفقا لعمليات منتظمة ، خاضعة لقواعد معينة ، الا وهى قوانين « الكل » الخاص بهذه البنية أو تلك . وعلى الرغم من أن كل « بنية » مغلقة على ذاتها ، الا أن هذا « الانغلاق » لا يمنع البنية الواحدة من أن تندرج تحت بنية أخرى أوسع ، على صورة بنية سفلية (أو تحتية) sous - structure (٤٤) .

ان بنية أى جماعة اجتماعية تعتبر قوة موجهة مكوناتها عبارة عن متغيرات معينة يرى الباحث أنها صالحة لتفسير كيفية عمل الجماعة . ويؤكد مفهوم بنية الافتراض القائم على وجود نموذج ممكن التحقق منه . سوف يقوم الباحث بالكشف عنه . ويعنى هذا أن العلاقات المتبادلة بين المتغيرات ليست عشوائية ، ويمثل هذا افتراضا أساسيا يبطل بدونه عمل البحث العلمى . ومن هذا المنظور تكون النظرية البنوية غير متميزة

(٤٤) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية أو اضواء على البنوية ،

القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٦ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

عن سواها من النظريات ، ونصبح بالتالى كل التفسيرات الاجتماعية
تفسيرات بنيوية (٤٥) .

وقد قدم لوفيفر H. Lefebvre ثلاث تصورات رئيسية للمفهوم
بنية :

الاول : ان البنية هى بناء construction ، وهى تقع فى
مكانة أعلى من الظواهر ، ويستخلص منها نسقا من العلاقات المتسقة .
ان البنية تعنى اذن النموذج او الشكل الصورى representation formelle
لمجموعة من العلاقات وقد بنى هذا النموذج من اجل دراسة مجموعة
من الظواهر ، والمشكلة المحددة التى تخص هذه الظواهر .

التصور الثانى : ان البنية هى الماهية (او الجوهر) او الشيء
المفهوم intelligible . ويضم هذا التصور المشتق من النظرية
الجشتالطية نظريات الشكل والوظيفة والبنية ، وتتساوى هذه المفاهيم
مع مفهوم الكلية .

ويقوم التصور الثالث : على اعتبار ان البنية متغير نسبى ، فهو
لا تقع فى مستوى الواقع او فى مستوى تجريد مبنى . انها متغير نسبى
اى توازن غير ثابت بين قوى متعارضة تؤثر عليها فى حركة مستمرة من
البناء واعادة البناء ، وذلك مع وجود قوى اخرى اعلى منها تتحكم
فيها (٤٦) .

(45) W. G. Runciman . What is Structuralism ? in A. Rayan
(ed.) The Philosophy of Social Explanation . pp. 189 - 202, p.
191 .

(46) H. Lefebvre . Critique de la vie quotidienne (7B329)
Quoted in Grawitz p. 435.

ويرى جورفيتش أن « كل بنية اجتماعية سواء كانت جزئية (بنية جماعة معينة) أو كلية (بنية مجتمع بأكمله) هي توازن غير محدد *précaire* ، يحتاج باستمرار إلى إعادة تكوين بواسطة جهد متجدد - بين مجموعة من الأنظمة داخل ظاهره اجتماعية لها طابع اجتماعي شامل تمثل البنية قطاعا منه . ويتأيد هذا التوازن الموجود بين الانظمة المختلفة بنماذج وعلامات ورموز وأدوار اجتماعية وقيم وأفكار ، باختصار يؤديه الانتاج الثقافي الملائم لهذه البنيات » (٤٧) .

ان أبسط تعريف للبنية هو ان يقال « انها نظام - أو نسق - من المعقولية » . فليست البنية هي صورة الشيء أو هيكله أو وحدته المادية أو التعميم الكلى الذى يربط أجزاءه فحسب ، وانها هي أيضا « القانون » الذى يفسر تكوين الشيء ومعقوليته . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول أن البنيويين حينما يبحثون عن بنية هذا الشيء أو ذاك ، فانهم لا يتوقفون عند المعنى التجريبي الذى يضعه الواقع بين أيدينا - على نحو مباشر - ، وكان كل ما يهمهم هو الوصول إلى ادراك العلاقات المادية الظاهرية التى تحقق الترابط بين « عناصر » المجموعة الواحدة ، بل انهم يهدفون إلى الكشف عن « النسق العقلى » الذى يزودنا بتفسير للعمليات الجارية فى نطاق مجموعة بعينها (٤٨) .

وقد تحدث ليفى ستروس عن مفهوم البنية فى أحد الفصول الهامة من كتابه « الانثروبولوجيا البنيوية » *Anthropologie structurale* فقال فى هذا الصدد : « اذا كان النشاط اللاشعورى أو اللاواعى *inconscient* للعقل يقوم على فرض الشكل على المضمون ، واذا كانت

(47) G. Gurvitch. Le Concept de Structure Sociale . Cahiers Internationaux de sociologie 1955, pp. 3 - 44 . p. 43 .

(٤٨) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٣٣ .

هذه الاشكال لا تتغير بالنسبة لكل العقول سواء القديمة او المحدثه ،
البداية او المتحضرة - تماما مثل دراسة الوظيفة الرمزية كما تتبدى
بطريقة واضحة فى اللغة - فانه يكفى ان نصل الى البيئة اللاشعورية ار
اللاواعية الواقعة خلف كل نظام وكل تقليد لكى نصل الى تفسير سليم
للانظمة والتقاليد او العادات الاخرى ، بشرط ان نمضى فى التحليل الى
مدى بعيد « (٤٩) » .

وسوف نحاول فيما يلى ان نتبين الاتجاه البنىوى ونظرفته الى التفسير
فى كل من اللغة والعلوم الاجتماعية .

لقد نشأت البنىوية اللغوية عندما بين العالم اللغوى فرد يناندى سوسير
(١٨٥٧ - ١٩١٣) ، باعتباره الاب المؤسس لهذا المنهج ، ان تاريخ
الكلمة لا يفسر معناها وانما يتوقف معناها على « نسق » عام للغة ،
ويرتبط هذا النسق بظروف عصره (اى يتزامن معه syhchronise) (٥٠) .
وقد اقام دى سوسير تفرقة اولية هامة بين « اللغة » و « الكلام »
على اعتبار ان اللغة - فى ماهيتها - نظام اجتماعى مستقل عن الفرد ،
فى حين ان الكلام هو منها بمثابة التحقيق العينى الفردى . ومعنى هذا
ان اللغة تقنين اجتماعى ، او مجموعة من القواعد code فى حين ان
الكلام فعل فردى (يقوم به شخص ما فى حديثه مع اشباهه) (٥١) .

وترجع اهمية اللغة الى انها تنتمى الى تلك المجموعة الكبرى من

(49) C. Lévi - Strauss. *Anthropologie Structurale* p. 28
Quoted in S. Thion *structurologic* . Alethia : Le Structuralisme.
No. 4 Mai 1966 pp. 219-227 , p. 220 .

(50) Grawitz op. cit. p. 433.

(٥١) د . زكريا ابراهيم : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

« الانظمة الرمزية » التى تتألف منها الثقافة (بالمعنى الواسع لهذه الكلمة) ، ومن بينها الفن ، والاساطير ، والكتابة ، وآداب المعاملات ، وغير ذلك من الطقوس أو المواقفات الاجتماعية . وليست السيميولوجيا sémiologie سوى ذلك العلم الذى يدرس حياة العلاقات فى كنف الحياة الاجتماعية . وقد امتد المبدأ الذى أقامه دى سوسير فى هذا المجال خارج نطاق الدراسات اللغوية ، فعرف طريقة الى باقى العلوم الانسانية واصبح كل علم من هذه العلوم على وعى بسيميولوجيته الخاصة . وبدلا من أن تذوب اللغة فى المجتمع فقد شرع المجتمع يتعرف على نفسه باعتباره لغة . وهكذا راح بعض محلللى المجتمع يتساءلون عن مدى امكانية تفسير « البنيات الاجتماعية » أو - على مستوى آخر - تفسير الاساطير بوصفها مجموعة من « الدالات » les signifiants التى لا بد من البحث لها عن « مدلولات » signifiés (٥٢) .

وليست فكرة النظام أو النسق عند سوسير سوى مجرد تأكيد ضرورة احلال المنهج البنويى محل المنهج التاريخى فى دراسة الظواهر اللغوية ، خصوصا وإن الدراسات التاريخية المقارنة للغات لم تؤد بالفعل الى الكشف من طبيعة اللغة بوصفها « صورة » لا جوهر . وبهذا مهد دى سوسير السبيل لحلول « البتوية » محل الذرية atomisme والكلية محل الفردية فى مضمار الدراسات اللغوية عموما (٥٣) .

وقد أقام دى سوسير تفرقة هامة بين « التزامن » أو التواقت synchronie من جهة ، وبين التطور أو التعاقب diachronie من جهة أخرى . وعلى حين أن وجهة النظر « التزامنية » تمثل محورا أفقيا تقوم فيه العلاقات بين « الاشياء المتواجدة » (أو المتوائمة) على

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

اساس ثابت ليس للزمان فيه اى مدخل ، نجد ان وجهة النظر التعاقبية تمثل محورا راسيا . تقوم فيه العلاقات بين الاشياء المتتالية على اساس التغير الزمنى او التاريخى . وقد رأى دى سوسير ان اللغة - فى حيد ذاتها - هى مجرد نسق أو نظام ، بل وما دامت تعمل ، او تؤدى وظيفتها باعتبارها « بنية » ذات طبيعة رمزية ، فلا بد من التسليم بانها لا تنطوى - فى ذاتها - على اى بعد تاريخى . لقد قام دى سوسير بمعارضة تلك النزعة التطورية التى سادت فى القرن التاسع عشر واملت على علماء اللسان اعتبار التاريخ بمثابة المنظور الاساسى للغة ، واصطناع التعاقب كمبدأ أولى للتفسير ، مع الحرص على تجزئة اللغة الى عناصر منعزلة من أجل البحث عن قوانين التطور الخاصة بكل منها على حدة (٥٤) .

وقد انطلق تشومسكى N. Chomsky (١٩٢٨ -) ، عالم اللغويات البنوي المعاصر من موقف نقدى لكل من النحو التقليدى واللغويات البنوية السابقة عليه . لقد اهتم تشومسكى بصفة خاصة بالتفسير ، ومن هذا المنطلق ابرز اوجه القصور فى موقف النحو التقليدى وفى علم اللغة وبنوي ذلك ان كلاهما اقتصر على المرحلة الوصفية دون ان يتجاوزها .

ويرى تشومسكى اننا نغفل ملاحظة واقعة هامة تتمثل فى فقداننا القدرة على رؤية أهمية التفسير عندما تكون الظواهر مألوفة وبديهية اكثر من اللازم . ويعطى فى هذا الصدد مثالا من علم النفس : ان أحد مشاكل العلوم النفسية يكمن فى اللفة familiarity مع الظواهر التى تتناولها تلك العلوم ، والمطلوب هو محاولة فكرية لرؤية كيف ان هذه الظواهر تثير مشاكل خطيرة وتدعو الى نظريات تفسيرية . فالذى يحدث هو ان المرء يميل الى النظر الى الظواهر على انها شئ مفروغ منه

باعتباره ضرورة لو شيء طبيعي . وهناك بالإضافة الى ذلك تأثير قد يكون أخطر من السابق يتمثل في كوننا نألف الظواهر الى درجة كبيرة لدرجة أننا قد نغفل عن رؤيتها أساسا (٥٥) .

وتواجه دراسة اللغة نفس المشكلة ، فالآراء البنوية والسلوكية قائمة على الاعتقاد في عدم أهمية التفسيرات ، أي الاعتقاد في أن العقل يجب أن يكون أبسط في بناءه من أي عضو آخر ، وأن أبسط الافتراضات لا بد وأن تكون صالحة لتفسير أي ظاهرة من الممكن ملاحظتها . وبالتالي تبدو اللغة كأنها بنية سلوكية أو شبكة من الارتباطات المجمعة ، وتبدو معرفة اللغة كمجرد معرفة بجواب السؤال « كيف ؟ » . ويعتقد تشومسكي أننا لكي نحقق تقدما في دراسة اللغة ، وفي القدرات الانسانية المعرفية يتحتم علينا ، منذ البداية ، اقامة ما يسمى بالمسافة النفسية Psychidistance بيننا وبين الوقائع العقلية . ثم نمضي لاستكشاف احتمالات اقامة نظريات تفسيرية مهما اثارت تلك النظريات من تعقيد أو تجريد . ولا بد لنا من نعترف بأن أكثر الظواهر اللفة في حاجة الى تفسير . ويبدأ البحث عن النظرية التفسيرية ، بتحديد أنساق القواعد systems of rules ، وهي تلك الأنساق التي تتيح فهم وانتاج جمل جديدة في وقت مناسب ، ثم المضي لكشف المبادئ التي تحكمها (٥٦) أي أن الذات المتكلمة تملك ضريا من « النحو التوليدي grammaire génératrice يسمح لها بابتكار لغتها الخاصة (٥٧) » .

(55) N. Chomsky. Problems of Explanation in Linguistics. in R. Borger and F. Cioffi (eds.) Explanation in the Behavioural Sciences pp. 425 - 451 , p. 425 .

(56) Ibid. pp. 426 - 427 .

(٥٧) د . زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

يتضح لنا أن تشومسكى يسعى الى اقتراح نظرية تفسيرية فى عالم اللغة ، وتقتصر هذه النظرية تفسير الظاهرة التى تقوم على كونه المتكلم للغة المذكورة يدرك التعبير أو القول utterance ويؤوله ويستخدمه بطرق معينة وليس بطرق أخرى ومن الممكن أيضا التوصل الى نظريات تفسيرية أكثر عمقا عن طريق ما يسميه تشومسكى النحو العام أو النحو الكلى العام Universal grammar .

ان دراسة النحو الكلى الشامل هو دراسة لطبيعة القدرات العقلية الانسانية . وتحاول الدراسة ان تكشف التنظيم الداخلى الذى يحدد ما يكون الخبرة اللغوية بالاضافة الى ما تثيره اللغة على أساس من الخبرة (٥٨) . معنى ذلك ان تشومسكى يهتم بتأصيل النحو فى «عقود أعماق» «التربية» العقلية المشتركة للغة البشرية ، على أساس أن العقل عنده فطرى وأن اللغة بنحوها المنطقى - متصلة فى الحياة الذهنية التى يوجهها العقل (٥٩) .

وهكذا - على حد تعبير تشومسكى نفسه - نجد أن عالم اللغويات متورط ، على مستويات عدة ، فى بناء النظريات التفسيرية ، ويوجد على كل مستوى تأويل نفسى واضح لعمله النظرى والوصفى . فهو يحاول على مستوى النحو المعين أو الخاص Particular grammar ان يضع خصائص معرفة اللغة ، أى ذلك النسق المعرفى الذى يتطور بطريقة غير مذكورة من جانب المتحدث - المستمع العادى ، ويحاول عالم اللغة ، على مستوى النحو الكلى الشامل اقامة خصائص عامة خاصة بالذكاء الانسانى . وهكذا نجد أن اللغويات تمثل مجالا تحتيا Sub - field . لعلم النفس الذى يتعامل مع تلك الجوانب العقلية (٦٠) .

(58) Chomsky op. cit. p. 428.

(٥٩) د . زكريا ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

(60) Chomsky . op. cit. p. 428.

وينتهي تشومسكى الى النتيجة التى تؤكد على كوننا نستطيع أن نطور ، من جهة ، نسقا من المبادئ العامة للنحو الكلى الشامل ، ومن جهة أخرى ، أنواعا من النحو الخاص . ويتكون النحو الخاص ويقوم بالتفسير فى انساق مع مبادئ النحو الشامل . ويؤدى تداخل المبادئ العامة مع المبادئ الخاصة الى نتائج تجريبية . وتقدم هذه المبادئ ، على مختلف مستويات العمق ، تفسيرات للوقائع المهمة بالقدرة اللغوية *linguistic competence* ، وتفسيرات للوقائع المرتبطة بمعرفة اللغة (ويملكها كل متحدث طبيعى) ، وأخيرا تفسيرات لبعض الطرق التى تستخدم تلك المعرفة من خلاله سواء من جانب المتحدث أو المستمع (٦١) .

ويوضح لنا أن نظرية تشومسكى فى « النحو التوليدي » قد أرادت استخلاص النحو من المنطق واستنباط اللغة من الحياة العقلية الأصلية . ومادامت البنيات السطحية فى اللغة مستمدة من بنيات عميقة فإن من واجب عالم اللغة البحث عن تلك البنيات العميقة التى تمثل الشروط الضرورية لتعلم اللغة ، خصوصا وأن المقدرة اللغوية نفسها فطرية تشهد بوجود كليات لغوية أولية لدى الانسان (٦٢) .

كما أحدثت البنيوية تأثيرا ضخما فى مجال اللغويات فإنها قد أثرت أيضا على مفاهيم وتصورات العلوم الاجتماعية خاصة علم الاجتماع والاثروبولوجيا . لقد واجه الاثروبولوجيون ، ومن بينهم ليفى ستروس ، مجموعة من أسئلة تعبر عن المشاكل الأساسية فى هذا المجال ، وهى :

اولا : كيف يمكن للسلوك الاجتماعى الخاص بأى جماعة بشرية أن يقوم بالوصف بدقة وذكاء وبطريقة ذات معنى ؟

(61) Ibid. p. 449.

(٦٢) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

ثانيا : كيف يتسنى تفسير وقبول تلك للظواهر الاجتماعية ؟

ثالثا : وهو اكثر الاسئلة اهمية : كيف ترتبط المجموعات المختلفة من الظواهر الاجتماعية الموجودة داخل جماعة واحدة - بأساطيرها ، ونسق القرابة فيها ، وأنماط زواجها ... الخ - كيف ترتبط ببعضها البعض وكيف يرتبط كل واحد منها بالجماعة ككل ؟

رابعا : ما هى العلاقات المتبادلة بين الجماعات الاجتماعية ككل سواء كانت هذه الجماعات قبائل بدائية او دولاً قطاعية او مجتمعات صناعية متقدمة ؟ وما الذى تملكه تلك الجماعات بحيث يكون أساسا للمقارنات ذات المعنى ؟

لقد تصدت العلوم الاجتماعية وبالأذات علم الاجتماع والانثروبولوجيا لهذه الاسئلة بغية الاهتمام الى اجوبة لها . وقد رأى البنيويون ان اتجاههم يمثل المنهج الملائم للتعامل مع هذه الاسئلة وتنظيم المادة الخام للوقائع الملاحظة من أجل الاجابة عليها (٦٣) .

ان البنيوية فى واقع الامر عبارة عن منهج يضم كل الظواهر الاجتماعية الانسانية مهما كان شكلها ، وبهذا تضم بالإضافة الى المواقف الاجتماعية الخالصة (الانثروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ، وعلم السياسة ، وعلم الاقتصاد ، وعلم النفس) ، الانسانيات (الادب والتاريخ واللغويات) وكذلك الفنون الجميلة . وترجع إمكانية هذا الى ان كل صور النشاط الاجتماعى ، سواء كانت الملابس التى ترتدى ، ام الكتب التى تكتب ، ام انساق القرابة والزواج التى تمارس فى أى مجتمع ، تكون ما يسمى باللغات بالمعنى الشكلى . وبالتالى يمكن رد اطرادات هذه الصور الى نفس مجموعة القواعد المجردة التى تحدد وتحكم ما يسمى فى العادة

(63) M. Lane (ed.) Introduction to Structuralism . New York :

Basic Books , Inc . Publishers 1970. Introduction p. 12.

باسم اللغة . وفق محاولة التقليل من الخلط بين المصطلحات استخدم
البنويون كلمة رمز Code لتغطية كل الأنماط الخاصة بالاتصال
والمستخدمة اجتماعيا . وتملك تلك الرموز الاجتماعية ، مثل اللغات ،
قواعد . فإذا أخذنا كمثال رمز القرابة kinship . والزواج فأننا
نرى أن كل أعضاء المجتمع المرتبطين بعلاقة قرابة مع الأعضاء الآخرين
يكونون معجبا ، أى تجميع لكافة التعبيرات الممكنة . وهذا ما نراه بالفعل
فى معالجة ليفى ستروس لهذا الموضوع فى كتابه « البنيات الأولية
للقرابة » Les structures élémentaires de la parenté

ولم يكن ليفى ستروس (١٩٠٨ -) . أول من تحدث
عن البنيوية فقد سبقه فى ذلك علماء اللغة ، كما أنه لم يكن الوحيد الذى
تحدث عنها فى العلوم الاجتماعية فيوجد التوسير Althusser
وليتش Leach وغيرهم ، إلا أن أعماله أحدثت تأثيرا كبيرا فى
الفكر المعاصر وفى العلوم الاجتماعية والانسانية بشكل خاص مما أعطى
له مكانة خاصة ، متميزة .

لقد اهتم ليفى ستروس بالعلاقات بين الظواهر أكثر من اهتمامه
بطبيعة الظواهر ذاتها ، كما اهتم بالأساق التى تدخل فيها هذه
العلاقات . لقد رأى إمكانية علم عام للأنماط على أسس بنيوية لا بد وأن
تضمن عمليات اجتماعية واعية أو شعورية ولا واعية أو لا شعورية . وقد
طور آراءه بالنسبة لتناول أهم مظاهر الثقافة مثل اللغة ، والقرابة ،
والنظام الاجتماعى ، والسحر ، والدين ، والفن . وذلك بهدف التوصل
الى استبصار داخل الثقافة والى وعى جديد للمجتمع .

وترجع أصالة ليفى ستروس الى تأكيدده على الشكل forme
وعلى أولوية العلاقات على الكيانات ، هذا من ناحية ، ومن ناحية
أخرى يتميز ليفى ستروس ببحثه المستمر عن العلاقات بين الظواهر
على مستوى مجرد للغاية . إلا أنه ، فى نفس الوقت ، لا يغفل الواقع

مما يجعله يبدأ تعميماته دائما من الملاحظات التجريبية ويرجع دائما اليها .

والحق ان ليفى ستروس لا يريد النظر الى « الظواهر » على انها موضوعات منعزلة ، لا بد من تفسير كل ظاهرة منها على حدة بالاستناد الى تاريخها الجزئى الخاص ، بل هو يريد مقابلة (او معارضة) تلك الظواهر بعضها البعض ، من اجل البحث عن اوجه التباين ووجه التشابه (القائمة فى الظواهر نفسها) ، واقامة ضرب من الحوار بينها ، بحيث تنبثق من خلال هذه المحاوره او المواجهة الرسالة الحقيقية المشتركة التى تحملها تلك الظواهر ، بوصفها « الدلالة » العلمية الكفيلة وحدها بتفسير تلك الكثرة المعقدة من الظواهر . ومعنى هذا ان المهمة الاساسية التى تقع على عاتق الباحث فى العلوم الانسانية انما هى التصدى لأكثر الظواهر البشرية تعقيدا ، وتعسفا واضطرابا (او عدم اتساق) من اجل محاولة الكشف عن نظام يكمن فيما وراء تلك « الفوضى » ، وبالتالي من اجل الوصول الى « البنية » التى تتحكم فى صميم العلاقات الباطنية للأشياء . ولكن المهمة – فى نظر ليفى شترتاوس – هو اننا لا ندرك البنية ادراكا تجريبيا على مستوى العلاقات الظاهرية السطحية ، المباشرة ، القائمة بين الأشياء ، بل نحن ننشؤها انشاء بفضل النماذج *modèles* التى نعد من طريقها الى تبسيط الواقع ، واحداث التغيرات التى تسمح لنا بادراك البنية (٦٤) .

لقد اعتبر ليفى ستروس العلاقات الاجتماعية مادة خام تستخدم لبناء النماذج ، وهذه النماذج تقدم ملنا البنية الاجتماعية . ومن هنا لا يمكن اطلاقا رد البنية الاجتماعية الى مجموع العلاقات الاجتماعية الملاحظة فى مجتمع معين . ان البنية الاجتماعية لا تدعى انه تملك مجالا خاصا بها وانما هى بالأحرى تقدم منها قايلا للتطبيق على مختلف

(٦٤) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٣٦ .

المشاكل الاجتماعية وعلى مختلف التحليلات البنوية المستخدمة فى مختلف المجالات .

ينحصر موضوع البنية اذن فى معرفة النماذج التى تعتبر موضوع التحليلات البنوية ، ولا ينتهى هذا الموضوع - فى نظر ليفى ستروس - الى الاثنولوجيا (٦٥) او الانثروبولوجيا وانما الى نظرية المعرفة او منهج العلم *epistémologie* ولا بد للنماذج لكى تكون جديرة ان يطلق عليها التعبير « بنية » ان تتصف بأربعة سمات :

اولا : لا بد ان تؤلف نسقا من العناصر بحيث يودى كل تغير فى احدها الى تغير فى العناصر الاخرى .

ثانيا : لا بد ان يفتى النموذج الى مجموعة تحولات ، وينتمى كل تحول بدوره الى نموذج معين بحيث تكون مجموعة التحولات مجموعة من النماذج .

ثالثا : لا بد وان يكون النموذج قادرا على التنبؤ بالتغيرات التى يمكن ان تحدث فيه فى حالة تغير أحد عناصره .

رابعا : لا بد ان يبنى النموذج بطريقة تجعل كل الوقائع قابلة للملاحظة (٦٦) .

وقد رأى ليفى ستروس ان النماذج اما ان تكون واعية اى شعورية او لا واعية اى غير شعورية ، وذلك حسب المستوى الذى تتعمل فيه .

(٦٥) وتسمى احيانا « علم دراسة الشعوب » ، او « علم الاعراق البشرية » وتسمى انثروبولوجيا فى التراث الانجلو ساكسونى .
(٦٦) Claude Lévi - Strauss . *Anthropologie Structurale* .

Paris Librairie plon, 1958. p. 306.

وتوحى البنية المختفية فى اللاشعور الى وجود نموذج يخفيها عن الوعى
او الشعور الجمعى conscience collective وتعتبر النماذج الواعية
او الشعورية - التى تسمى بالمعايير nromes - افقر انواع
النماذج بالنسبة للوظيفة التى تؤديها ، ذلك انها لا تقوم بتفسير الظواهر
وانما تحافظ عليها فقط وتجعلها مستمرة ويواجه التحليل البنىوى
هنا مشكلة هامة هى ان البنية الظاهرة واضحة ، بينما من الصعب
الوصول الى البنية العميقة بسبب النماذج الواعية المشوهة التى تقف كحائقي
بين الملاحظ وموضوع ملاحظته (٦٧) .

وقد تكون تلك النماذج ميكانيكية او احصائية . الاولى : تشير الى
نماذج تقع عناصرها على نفس مستوى الظواهر مثل قوانين الزواج فى
مجتمع بدائى حيث العناصر المكونة هى عبارة عن البشر أنفسهم الموجودين
فى قبائل او طبقات . بينما النموذج الاحصائى هو النموذج الذى توجد
فيه العناصر على مستوى مختلف ومستوى ظواهر مثل قوانين الزواج
فى مجتمع متحضر وحديث (٦٨) .

حقيقة ان رادكليف براون هو الذى ادخل مفهوم « البنية » فى مجال
الانثروبولوجيا ، الا انه نظر اليها على انها « نظام من الوقائع » أى شىء
معطى لوصف مجتمع معين . بينما تكمن اصالة ليفى ستروس فى انه
نظر الى البنية ليس باعتبارها مجرد ظاهرة ناتجة عن تجمع البشر وانما
باعتبارها نسقا يحكمه اتساق داخلى ويتكشف هذا الاتساق - الذى يقلت
من الملاحظ العادى للنسق المعزول - فى دراسة التحولات . ويمكن عن
طريق هذه الدراسة اعادة كشف عناصر أخرى شبيهة فى اتساق تبدو
ظاهريا مختلفة . وكل الاتساق - مثل نماذج القرابة او مجموعة
الاساطير - تقبل مثل اللغة الترجمة الى اتساق أخرى . لقد رأى

(67) Ibid. p. 308.

(68) S. Thion. Structurologie, p. 222.

رادكليف براون أن البنية ليست إلا الطريقة المستمرة التي يملكها كل من الافراد والجماعات في اثناء تكوينهم لذواتهم وفي تجميع أنفسهم داخل المجتمع : ومن هنا فقد اعتبر كل بنية مستقلة بذاتها ولا تترجم الى غيرها . بينما رأى ليفى ستروس أن البنية هي النسق ، والنسق تحكمه قواعد ورموز تتيح الترجمة الى نسق آخر . كما رأى ليفى ستروس ، على عكس مالفينوفسكى وراى كليف براون ، أن المقولات *catégories* اللواحية أو اللاشعورية ابعد ما تكون عن كونها لا عقلية أو وظيفية ذات عقلانية متعالية . وبينما رأى الانثروبولوجيون الانجلوساكسونيون أن اللغة هي فرع من الانثروبولوجيا فقد دعى ليفى ستروس الى اعتبار الانثروبولوجيا فرعاً من اللغويات أى جزءاً من علم عام مستقبلى عن العلاقات (٦٩) .

ان اللغة ، على الرغم من كونها موضوعاً لعلم معين ، مثل العلوم الاخرى ، الا انها تصبغ العلوم جميعاً بصبغتها . فالعلوم الاجتماعية لا توجد بدونها ، ولا نستطيع ان نضع الوقائع اللغوية على نفس مستوى الوقائع الاقتصادية أو القانونية ، فالاولى ممكنة الوجود فى غياب الثانية بينما لا توجد الثانية فى غياب الاولى (٧٠) .

ان اللغويات هي العلم الانسانى الوحيد الذى من الممكن ان يوضع على نفس المستوى مع العلوم الطبيعية . وذلك لأسباب ثلاث :

١ - انها تملك موضوعاً عاماً هو اللغة التى لا تخلو منها أى جماعة

انسانية .

(69) O. Paz, Claude Lévi-Strauss . An Introduction. Translated by J. S. Benstein and M. Benstein London : Cornell University Press, 1970, p. 10.

(70) C. Lévi-strauss. Critères scientifiques dans les disciplines sociales et humaines. Aleteia op. cit. p. 197.

٢ - أن منهجها متجانس لا يتغير مهما كانت اللغة التي ينطبق عليها
- حديثة أو قديمة ، بدائية أو متحضرة .

٣ - أن منهج اللغة يقوم على مبادئ رئيسية يتفق المتخصصون حول
صدقها .

٤ لا يوجد اذن - فى رأى ليفى ستروس - أى علم اجتماعى أو
انسانى آخر تتوافر فيه هذه الشروط . أن موضوع علم الاقتصاد ليس عاما
وانما يرتبط بقطاع صغير من التطور الانسانى ، والمنهج الديموجرافى
(الخاص بعلم السكان demographie) ليس متجانسا ، كما أن
الاثنولوجيين أبعد ما يكونوا على الاتفاق حول المبادئ التي تعتبر عند
علماء اللغويات شيئا مفروغا منه (٧١) .

ولما كان رأى ليفى ستروس أن اللغة قد وصلت الى مستوى
شبيه بمستوى العلوم الطبيعية ، فقد استقى من اللغويات الحديثة الأساس
الذى اقام عليه منهجه فى التحليل . ولا يعنى هذا أن ليفى شتراوس من
اتباع الاتجاه الوضعى وانما يشير هذا فقط الى سعيه ، اثناء قيامه بفهم
وتفسير الوقائع ، الى الدقة التامة والى مستوى مقبول من النعيم .

لقد ميز ليفى ستروس بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية
والانسانية . ووجد أن هناك اختلافات بينهما . فالمجموعة الاولى اهتمت
- على عكس الثانية - بموضوعات لا يهتم بها غالبية الافراد فى المجتمع .
لذا تابع العلماء الطبيعيون بحوثهم فى عزلة وجاء إهتمامهم منحصرا فى
الاشياء التى ظنوا أن باستطاعتهم تفسيرها ، وذلك بدلا من أن يفسروا
اشياء تهم الآخرين . ثانيا ، رأى ليفى ستروس أن كل بحث علمى يضارد
منذ البداية بثنائية بين الملاحظ وموضوعه . ويلعب الانسان فى مجال

العلوم الطبيعية دور الملاحظ والعالم هو موضوعه . والعالم الذى تجرى فيه الثنائية محدود كما كشف عن ذلك علمى الفيزياء والبيولوجيا المعاصرين الا انه فى نفس الوقت متمتع لدرجة ان باستطاعة العلوم الدقيقة والطبيعية ان تمتد بحرية فيه . فاذا كانت العلوم الاجتماعية والانسانية علوما حقا فلا بد لها ان تحافظ على هذه الثنائية ، وعليها فقط ان تحركها حتى نصل بها الى داخل الانسان (اى بين الانسان الملاحظ والانسان او البشر الذين يخضعون للملاحظة) . واذا كانت العلوم الاجتماعية والانسانية متاخذ العلوم الطبيعية كنموذج لها فانه يجب عليها الا تكتفى باجراء التجارب على البشر (وهو شئ مقبول نظريا ، فى رأى ليفى ستروس ، وسهل التطبيق ومقبول خلقيا) ، وانما لا بد ايضا ان يكون هؤلاء البشر غير واعين باننا نجرى عليهم التجارب ، والا فان وعيهم هذا سوف يغير سير التجربة . وهكذا يبدو الوعى او الشعور كعدو خفى لعلوم الانسان سواء كان هذا الوعى على شكل تلقائى متعال على موضوع الملاحظة او وعى منعكس - وعى الوعى - لدى العالم او الباحث .

ولا تغلو العلوم الانسانية من الطرق التى تجعلها تتغلب على تلك المشكلة والحل يوجد فى الاتجاه البنيوى . فالآلاف الانساق الفونولوجية والنحوية التى توجد امام عالم اللغة ، وتعدد البنيات الاجتماعية الممتدة فى الزمان والمكان والتى تغذى حب الاستطلاع المؤرخ والاثنولوجى ، هذه الانساق والبنيات تمثل « خبرات » جاهزة لها طابع غير معكوس irreversible . يضعف الفكرة التى نادى بها الوضعيون وهى ان هذه العلوم لا تهدف تماما الى التنبؤ بل الى التفسير . وفى الواقع اذا اخذنا التفسير بشكل اكثر دقة فاننا نجد انه يتضمن نوعا من التنبؤ . ولا توجد حتى فى العلوم الدقيقة والطبيعية ذاتها رابطة آلية بين التفسير والتنبؤ : فاحيانا يفسر العلم ظواهر لا يتنبئ بها ، مثل النظرية

الداروينية ، وأحيانا يقوم العلم بالتنبؤ بظواهر يعجز عن تفسيرها ، مثل علم الارصاد الجوية météorologie (٧٢) .

ويبدو أن وظيفة العلوم الاجتماعية والانسانية تقع فى منتصف الطريق بين التفسير والتنبؤ ، كما لو كانت عاجزة عن الاتجاه بتصميم نحو أحدهما . ولا يعنى هذا - فى رأى ليفى شتراوس - أن هذه العلوم تخلو من الفائدة نظريا أو عمليا وإنما يعنى فقط أن فائدتها نفاس فى ضوء العمليتين - التفسير والتنبؤ . ولأن هذه العلوم تأخذ من العمليتين فلها وضع خاص وفريد تتلخص فيه مهمة العلوم الانسانية : أن هذه العلوم لا تفسر أبدا - أو نادرا ما تفعل - الى النهاية ، كما أنها لا تقوم بالتنبؤ بدرجة عالية من التاكيد (٧٣) .

ان الصعوبة فى العلوم الاجتماعية والانسانية - على حد تعبير ليفى شتراوس - تأتي من أن مختلف أنساق تلك العلوم لا تقع على نفس المستوى من الناحية المنطقية ، كما أن المستويات التى ترتبط بها متعددة ومعقدة وكثيرا ما تكون تعريفاتها غير دقيقة . وتتخذ بعض هذه العلوم موضوعات دراسة هى عبارة عن وجودات تجريبية تمتاز بكونها من العومليات ومن الكليات desrealia et des tota : مثلا المجتمعات التى تمتاز بكونها واقعية ومحددة فى مكان وزمان معين وفى نفس الوقت تخضع للدراسة فى كليتها dans sa globalité . وكمثال على ذلك الانثولوجيا (الانثروبولوجيا) والتاريخ . وترتبط علوم أخرى بوجودات لا تقل واقعية إلا أنها تهتم بجزء منها أو بمظهر معين ، مثلا اللغويات تدرس اللغات ، والقانون يدرس الاشكال القانونية ، وعلم الاقتصاد يهتم

(72) C. Lévi - Strauss. Critères scientifiques. op. cit. pp. 194

(73) Ibid. p. 196 .

بأنساق الانتاج والتبادل ، وعلم السياسة يدرس الأنظمة ذات الشكل
المحدد (٧٤) .

ويرفض ليفي ستروس التمييز بين العلوم الاجتماعية والعلوم
الإنسانية بحجة أن الأولى تدرس الظواهر التي تنشأ في الجماعة والثانية
تتناول الأعمال التي ينتجها الأفراد . فهذا غير صحيح كما يتضح في
أحوال كثيرة ، فكل ما هو إنساني هو في واقع الأمر اجتماعي . وحينما
نقول عن علم معين أنه علم اجتماعي فإن هذا القول يتضمن أنه يهتم
بالإنسان (٧٥) .

وإذا كنا قد رأينا كيف فسّر دوركايم الظواهر بالرجوع إلى الوعي
الجمعي فإنه ، قد أغفل ولا شك تفسير هذا الوعي الجمعي ذاته ، والطريقة
التي يساهم بها الوعي الفردي في تكوينه ، كما أغفل تفسير الصور التي
تمثله أي بنيات الفكر الجمعي التي تكونه . ويؤثر هذا النقص على تفسيرات
المجتمع ليس فقط حاليا وإنما أيضا تاريخيا حيث أنه يغفل كيف قام
المجتمع بتكوين ذاته في الماضي . وقد حاول ليفي ستروس سد هذا النقص
في التفسير عن طريق رد الاجتماعي إلى الفردي مستخدما طريقة خاصة
وهي المصادرة « بالحالة الطبيعية » *Natural state*

الموجودة قبل ظهور الحالة الاجتماعية بالمعنى التاريخي . فمن الممكن
الوصول إلى الشيء الاجتماعي السابق على الواقعة إذا أمكن التوصل
إلى الواقعية الاجتماعية « الطبيعية » باعتبارها عامة في كل المجتمعات ،
ويحدد ليفي ستروس هذه الواقعة بأنها ولا بد أن تكون متعسفة *arbitrary*
وفي نفس الوقت تتصف بالعلامة المميزة للطبيعة وهي أنها ضرورية .
وتتبلور المشكلة في كيفية اشتقاق الثقافة من الطبيعة . إن الطبيعة
- في نظر ليفي ستروس - مشتركة لدى الناس جميعا وجزء من تراثهم ،

(74) Ibid. p. 196 - 197.

(75) Ibid. p. 204 .

وهذا ما يمارسه لبشر فى استقلال عن تأثير المجتمع والثقاليد . بينما الثقافة هى القطب المقابل . فهى كل ما هو ليس بمشترك ، وكل ما يحتاج الى تعلم ، وكل ما هو معتمد على الحياة الاجتماعية وعلى معاييرها الجمعية . ان الشيء الثقافى هو المحتمل والمتعسف The contingent and arbitrary والشيء الطبيعى هو « الضرورى والمطلق The necessary and absolute . وبالتالي تكون عملية تناول الطعام (الاكل) طبيعية لأن البشر يفعلونها بناء على الغريزة ، بينما آداب المائدة او طريقة تناول الطعام ذاتها مختلفة من مجتمع الى آخر ، وبالتالي فهى ثقافية . لقد اراد ليفى ستروس ان يصل الى الواقعة التى تعتبر اجتماعية وطبيعية فى وقت واحد . لذا لجأ الى النشاط السلوكى والى الجنس بصفة خاصة ، فقد رأى انسه طبيعى وغريزى وفى نفس الوقت اجتماعى لأنه يحتاج الى شخصين (٧٦) . ومن هنا كانت تحليلاته للزواج ونسق القرابة .

وتعتبر اهم خاصية فى المنهج البنىوى محاولة دراسة الشبكة المعقدة من العلاقات التى تربط وتجمع عناصر الكل ، وليس دراسة هذه العناصر ذاتها . وقد بين ليفى ستروس فى كتبه الثلاث عن الاساطير تحت عنوان Mythologique ، بين اننا لسنا بصدد تفسير تقليدى لسلسلة من الاساطير او حتى من الاحداث او الشخصيات التى تحدث فيها ، وانما نحن بصدد بيان للعلاقات بين الاساطير وبعضها ، والعلاقات بين الاحداث والكليات .

وتبحث البنىوية عن بنيتها تحت او خلف الواقع التجريبي وليس على السطح او على مستوى الشيء الملاحظ . لقد بين ليفى ستروس فى افتتاحية كتابه « الفسج والمطهى Le Cru et le cuit »

(76) C. R. Badcock. Lévi - strauss. Structuralism and Sociological Theory. New York, Holmes and Meir Publishers 1976 p,34.

ان علينا الانستبعد أن البشر الذين انتجوا بأنفسهم هذه الاساطير وعاشوها من الممكن أن يكونوا متبهرين لبريحتها وطريقة عملها، الا أن ه ذا يعتبر شيئا غير عادى. ولا يحدث الا بشكل عارض للغاية (٧٧) ان البشر الذين يقومون باستخدام اللغة يطبقون القوانين الفونولوجية والنحوية على كلامهم الا أنهم غير واعين بهذه القوانين ، ولا يستطيعون أن يذكروها اذا طلب منهم ذلك . ويصدق نفس الشيء على النشاط الاجتماعى .

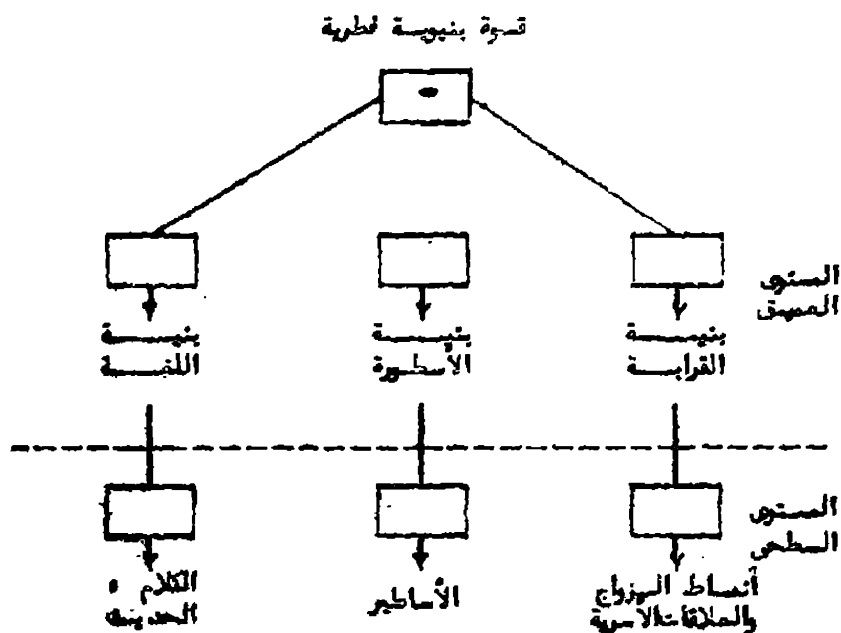
لا سبيل الى فهم الاساطير اذن الا باعتبارها « لغة » او لغات رمزية تمثل نظاما متسقا من التقابلات . والفكرة الاساسية التى يصدر عنها ليفى شتراوس هى ان العقل البشرى واحد ، وان التفكير الاسطورى ليس تفكيرا سابقا على المنطق *prélogique* بل هو تفكير منطقى على مستوى المحسوس ، بمعنى أنه تفكير تصنيفى يستعين بمجموعة من المقولات التجريبية (فج ومطهى ، طازج وفاسد ، مبلل ومحروق ... الخ) - وليست هذه المقولات التجريبية سوى أدوات تصويرية ناجحة تصلح لاستخلاص بعض المعانى المجردة والربط بينها وبين بعض على شكل سلسلة من القضايا . والواقع ان مضمون الاسطورة لا يمثل العنصر الا هم من عناصرها ، بل ربما كان أفدح خطأ يمكن أن يرتكبه الباحث هو أن يعتمد الى تفسير كل رمز على حده . والحق ان الرمز ليس مستقلا أو قائما بذاته بالمقياس الى السياق الذى يرد فيه ، وانما لا بد من الاقرار بان دلالة اى رمز هى فى صميمها دلالة « موضوعية » تتحدد بالسياق الذى يرد فيه وينسب ليفى ستروس الى الاساطير ضربا من الموضوعية ، ويقول ان لها « بنيته » او « بنياتها » الخاصة (٧٨) .

ولا يمكن رؤية البنية ذاتها فهى تشتق فقط مما هو مرئى ، فتوجد

(77) C.. Lévi - Strauss. Le cru et le cuit. Paris. Librairie Plon 1964 , p. 15.

(٧٨) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٨٨ .

البنية العميقة في مقابل البنية السطحية - وهو ما نراه بالفعل أو نسمعه ،
ويبدو ان هناك موافقة عامة بين بعض البنويين ، خاصة ليفي ستروس
في الانثروبولوجيا وجاكوبسون في اللغويات وبياجيه في علم النفس ،
على أنه يوجد في داخل الانسان آلية محددة وفطرية تنتقل ارتقائيا
وتمثل قوة بنيوية Structuring force . ويمثل الرسم التالي
تصور البنية عند ليفي ستروس وزملاؤه (٧٩) .



(79) Lane, Introduction to structuralism p. 15.

ونرى من هذا النموذج الاسباب التى دعت البنويين الى التاكيد على عدم تقسيم كافة الظواهر الاجتماعية فى مجتمع معين . فاذا كانت الظواهر تتبع هذا النموذج فائنا ننتظر ان نرى تماثلات وتوافقات فى البنية بين جوانب المجتمع . وقد اقترح ليفى ستروس ان تقوم المجتمعات بتطوير وسائل بنيوية لحل الصراعات والاختلافات والتضاربات التى تنشأ بين العناصر المختلفة فى البنية السطحية اثناء مرورها بالبنية العميقة عن طريق البنيات التى اسمها ليفى شتراوس البنيات الوسيطة mediating (٨٠) .

ويهتم التحليل البنيوى أساسا بالبنيات المتزامنة فى مقابل البنيات المتعاقبة ويركز اهتمامه على العلاقات الموجودة فى لحظة معينة فى الزمان وليس عبر الزمان . وتعتبر البنية السانكرونية محددة بواسطة العلاقات البنوية الموجودة حاليا وليس بواسطة أى عملية تاريخية .

وكنتيجة لهذا الاهتمام يعتبر الاتجاه البنيوى لا سببى anti-causal فلغة التحليل البنيوى فى شكلها الخالص لا تستعين بمفاهيم السبب والنتيجة أو العلة والمعلول : انها ترفض هذا التصور للعالم مفضلة عليه « قوانين التحولات » . وتعنى هذه القوانين الاطرادات التى تشببه القوانين law-like regularities التى لايمكن ملاحظتها ، أو اشتقاقها من الملاحظة ، وعن طريقها يتحول الشكل البنيوى الى شكل آخر .

ان ما يقدمه البنويون هو ما يلى : اذا قارنا نمطين من العلاقات الاجتماعية (قد تكون اساطير أو علاقات قرابة أو نماذج من السلطة ..) منفصلين فى الزمان والمكان ، مجتمع واحد فى موضعين مختلفين من التاريخ أو مجتمعين فى نفس الموضع من التاريخ ، فائنا نلاحظ اختلافات فى الصورة البنوية أى فى نظام وطبيعة اشكال العلاقات . فاذا فسرنا

الموقف بطريقة تقليدية فاننا نقول أن هناك عامل أو عوامل سببت اختلاف بين العلاقات اما الاتجاه البنيوي فهو يؤكد على تحول البنية الى بنية أخرى ، واذا استمرت الملاحظات فاننا نستطيع القول بأن البنية المحددة تتحول دائما بطريقة معينة فينتج عن ذلك قوانين التحول وهي ليست القوانين السببية أو العلية (٨١) .

رابعا : نظرية نقدية الى الاتجاه البنيوي :

لا شك أن النقد الأول الذي يوجه الى الاتجاه البنيوي هو صعوبة اللغة . التي يعبر بها البنيويون عن آرائهم . كما أنهم لم يصوغوا المبادئ الاساسية للاتجاه البنيوي بطريقة واضحة فجاءت تعبيراتهم جزئية ومحتوية على كثير من المعاني الضمنية .

وقد قدمت البنيوية في الواقع افتراضات نظرية كثيرة تعتبر هامة الا أنها لا تخضع للاختبار . هذه الافتراضات هي كالتالي :

١ - أن كل انماط السلوك الاجتماعي هي عبارة عن رموز أو قواعد codes لها نفس خصائص اللغات .

٢ - أن الانسان يملك قدرة بنيوية نظرية تجعله يدرك الحدود التي تتكون بداخلها بنية كل انماط الظواهر الاجتماعية .

٣ - أن العلاقات قابلة لأن ترد الى تقابلات ثنائية binary (وعلى الرغم من أنه في الامكان منطقيا تقسيم العالم الى مجموعات موجبة ومجموعات سالبة الا أن هذا النوع من التقابل تافه ومجذب) (٨٢) .

(81) Ibid. p. 17 .

(82) Lane op. cit. p. 18.

ان ليفى ستروس عندما حاول التقريب بين الفكر الاسطورى والفكر العلمى لم يلجأ الى التحقيق العلمى الصرف . لقد اراد ليفى شتراوس تحويل منهجه الى نظرية كاملة فتحولت تلك النظرية الى ايدىولوجيا دون اعتراف من جانبه بذلك ودون التعرف على آثار تلك النتيجة .

ان ليفى ستروس على الرغم من انه قد حدد - شأنه فى ذلك شأن ماركس ، وفرويد وغيرهما - موقفه العلمى بمعارضته للفلسفة ، وثورته على كل تفكير فلسفى ، الا اننا نلمح لديه مواقف « ميتا - علمية » توقعه من جديد فى حبال الايدىولوجيا . صحيح انه قد كسب بعض النقاط فى معركته الضارية مع الفلسفة ، ولكن من المؤكد ان الكثير مما اعتبره هو « تصورات علمية » ، تم التثبت من صحتها ، قد بقى حتى النهاية - مجرد نظريات فلسفية تفتقر الى التحقيق العلمى الدقيق ، وبالتالي مجرد « افتراضات ميتافيزيقية » لا اكثر ولا اقل (٨٣) .

لقد رفض البعض اعتبار نظرية ليفى شتراوس نظرية متميزة او منهجه منهجا أصيلا ، اعتبروا كل ما يميزه هو تقديمه للنماذج وتطبيقها على السلوك الاجتماعى ، سواء على المجتمعات ككل او على مظاهر من المجتمع كالعادات والمعتقدات (٨٤) .

اما الهجوم العنيف على الاتجاه البنىوى فهو الذى انصب على اهمال هذا الاتجاه للتاريخ . ان وضع التاريخ كبعد متساو مع اى بعد آخر فى الدراسة سلب التاريخ اهم خصائصه وهى الحركة عبر الزمان .

ان المرء قد يتفق مع ليفى ستروس على ضرورة التسليم بانفصال الزمان وتقطعه وتنوعه وعدم تجانسه ، وقد نقبل فكرة التقدم المستمر

(٨٣) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٥ .

(84) Runciman op. cit. p. 202.

المائر دائما فى خط مستقيم وحيد الاتجاه ، ولكنه لن يستطيع الأخذ بوجهة نظر لا زمانية ، تضع التاريخ بين قوسين ، ونقرر ان التزامن (السانكرونى) تعبير عن تعاقب (دياكرونى) ثابت . والدافع ان ليفى ستروس عندما يقول عن التاريخ انه مجرد اسطورة حديثة يكفى لتفسيرها تفسيراً عميقاً ، ان نرتد الى مجموعة من البنيات ، وضروب عديدة من التوافق والتناظر ... الخ ، فانه - فى الحقيقة - انما يستبعد المشكلة الأصلية ولكنه لا يحلها (٨٥) .

لقد استخدم البنيويون النماذج *modèles* البنيوية للانسان والمجتمع كوسائل للكشف والمساعدة على الفهم ، الا ان المجتمع ليس على الصورة التى قدمها البنيويون ذلك انهم اغفلوا الواقع وذهبوا الى ما وراء السطح الظاهر ، ونادوا بالكشف عن البنيات اللا واعية والعميقة . وفى الواقع ان محاولة البنيوية الكشف عن البنيات العميقة ومحاولة ليفى ستروس اقامة نموذج أو بنية وسيطة تحل كافة الاختلافات والصراعات هو تصور ذهنى بعيد عن الواقع .

والتساؤل هو كيف تكون البنية متطابقة مع الواقع وفى الوقت نفسه صادرة عن الذهن أو العقل البشرى الذى يصفه ليفى ستروس بأنه يظل باستمرار متطابقاً مع نفسه ، مساوياً لذاته ؟ انه ليفى ستروس على خلاف دوركايم يرفض اعطاء الصدارة للعامل الاجتماعى على العامل العقلى لأنه يبين ان النشاط الذهنى لدى الانسان ليس مجرد انعكاس للتنظيم الواقعى للمجتمع ، ولكنه حين يرد البنيات الى هذا النشاط الذهنى ، فقد يكون من حقنا ان نتساءل : ماذا عس ان يكون نمط الوجود الذى يمتلكه الذهن أو العقل ، خصوصاً وان ليفى ستروتوس يقول انه ليس اجتماعياً ولا نفسياً ولا عضوياً ؟ (٨٦)

(٨٥) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٤ .

(٨٦) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

وقد تعرضت قوانين التحول لدى البنيوية للنقد . فقد رفضت البنيوية القوانين السببية ودعت الى قوانين التحول . والواقع أن التفسير يحتاج الى ذكر الأسباب أو العلل فاذا استبعدت فمعنى ذلك - فى رأى بعض النقاد - استبعاد لامكانية التوصل الى تفسيرات سليمة وصالحة (٨٧) .

الا ان الانتقادات السابقة لم تستبعد النواحي الايجابية فى الاتجاه البنيوى خاصة وانه يمثل محاولة اصيلة لحل مشكلة العلوم الاجتماعية بشكل عام والصراع بين الاتجاهات المثالية والتجريبية بشكل خاص . لقد اهتم ليفى ستروس بنظرية المعرفة epistemologie وبمنهج العلم وحاول تفسير الثقافة بالرجوع الى مكونات العقل الانسانى . وهذا ما جعل يستحق ان يسمى بالفيلسوف الكانطى وقد قبل ليفى ستروس هذه التسمية بشرط ان يكون معلوما انه يسعى نحو كانطية فى مجال الاثنولوجيا وليست كانطية متعالية (٨٨) .

لقد اراد ليفى ستروس التوصل الى وعى جديد بالمجتمع عن طريق التحليل البنيوى . ويقوم التحليل البنيوى على رد كافة العناصر الثقافية الى عناصر بنيوية ومن هنا امكن تعريف علاقات التقابل والارتباط والتعديل والتحصيل بين العناصر وهكذا توصل ليفى ستروس الى تفسير التماثلات homologies بين الأنظمة داخل مجتمع واحد أو بين مجتمعات متعددة . ويحدث هذا التفسير فى ضوء منهج جدلى وليس فى ضوء عملية ميكانيكية صرفه وقد استعان ليفى شتراوس ، من أجل تسجيل الانفاق والاختلاف بالأشكال النسقية أى بالنماذج التى استطاع تجريدها فى مستويات مختلفة وامكنه ان يقارن بينها .

(87) Lane op. cit. p. 18.

(88) C. Lévi. Strauss. Le cru et le cuit p. 19 Quoted in Runciman op. cit. p. 199.

وتتجلى رغبة ليفى ستروس فى التوصل الى مبدأ للتفسير فى قوله
بضرورة التوصل الى البنية اللا واعية او اللا شعورية الكامنة وراء كل
نظام اجتماعى ، وسيتيح مبدأ التفسير الذى نتوصل اليه المقارنة بين
مجتمعات مختلفة مما يسهل لنا تفسيرها .

أما عن اهتمام ليفى ستروس بالأساطير ودراسته لها فهو اهتمام
نابع من اعتقاد بأن هناك طبيعة بشرية واحدة تجمع بين العقلية البدائية
والعقلية العلمية فى صورتها الحديثة .

ان الأساطير لا تعنى عند ليفى ستروس سوى العقل البشرى الذى
يضعها مستعينا فى ذلك بالعالم ، على اعتبار انه هو نفسه جزء منه
(أى جزء من العالم) ويهوى الانسجام ، الا أنه يقرر فى الوقت نفسه
ان الأساطير ترسم لنا صورة محسوسة عن العالم ، على اعتبار ان هذه
المصورة مسجلة منذ البداية فى صميم التكوين المعمارى للعقل
البشرى (٨٩) . لقد اعتبر ليفى ستروس كافة الأساطير مرتبطة ببعضها
البعض ، ذلك أنها تحكى قصة مستعينة فى ذلك بالتاريخ والأدب ،
ولأنها تملك بنية خاصة بها فهى ترتبط أيضا بالموسيقى . ان الأساطير
بسبب طبيعتها لا بد وأن تمضى بطريقة دياكرونية أى منذ البداية الى
النهاية وكل حدث يسلم الى غيره من الأحداث . وللأسطورة أيضا بعد
سائكرونى فى داخلها ، وهى مثل الموسيقى تخضع للتحويلات سواء على
شكل تكرارات أى اطرادات او اختلافات (٩٠) .

ولا شك ان ليفى ستروس قد نجح فى كشف قصور المناهج الوضعية
فى دراسة الظواهر الانسانية لوقوفها عند سطح الظواهر وتجزئتها الى
فترات . واستطاع كذلك ان يبرز الى الضوء تفرقة جوهرية بين عالم

(٨٩) دة زكريا ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٩١ .

(٩٠) Badcock op. cit. p. 54.

الخبرة العينية المباشرة ، والصورة العلمية التى تهدف الى كشف أعماقه ، والتميز بين متغيراته وثوابته ، كما لا يمكننا ان نغفل أهمية تعيين مجالات النماذج الميكانيكية والاحصائية التى يؤدى الخلط بينها الى الكثير من اختلاف التفسيرات وتشتت النتائج (٩١) .

وترجع أصالة ليفى شتراوس على تأكيده على الشكل وعلى أولوية العلاقات على الكيانات القائمة بذاتها . وعلى أهمية العلاقة بين العمل الميدانى والنظرى ، أى بين وصف الظواهر وتحليلها بنىويا . انه ينظر الى الانثولوجيا (الانثروبولوجيا) باعتبارها دراسة للانسان فى الماضى والحاضر ، وفى كل المظاهر - الطبيعية واللغوية والثقافية سواء الواعية أو اللا واعية . وقد حاول ربط السانكرونى بالدياكرونى ، والفرد بالثقافة ، والفسولوجى بالسيكولوجى ، والتحليل الموضوعى للأنظمة بالخبرة الذاتية للأفراد . وبهذا كله قدم شيئا جديدا واصيلا .

* * *

(٩١) د . صلاح قنصوه : الموضوعية فى العلوم الانسانية . دار

الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٨١

خاتمة

حاولنا فى الفصول السابقة أن نعالج موضوع التفسير من زوايا عدة فتحدثنا عنه كعملية منهجية أساسية فى العلم بصفة عامة والعلوم الاجتماعية بصفة خاصة ، وبيننا الاشكال الذى يوجد عليها فى العلم ، وقد حاولنا أن نتبع فكر المدارس والاتجاهات المختلفة لنصل الى رؤية كل منها الى هذا الموضوع الهام ، وذلك فى اطار نظرة نقدية تبين النواحي الايجابية والسلبية فى كل اتجاه .

وترجع أهمية موضوع التفسير وخطورته فى الوقت نفسه الى عاملين رئيسيين :

اولا : ان أحد الاسس التى يقوم عليها العلم هو التوصل الى كشف الغامض واظهار الخفى بقصد الفهم والتنبيؤ وان امكن التحكم ، ولا يتسنى هذا الكشف الا بعملية منهجية دقيقة هى تفسير الظواهر تفسيراً يقوم على اجلاء ما خفى فى الطبيعة سواء الفيزيائية أم الانسانية والاجتماعية .

ثانيا : اذا اعتبرنا العلوم الاجتماعية علوماً - وهو ما استقر عليه الرأى بين كافة العلماء وفلاسفة العلم - فان معنى ذلك هو أنها تحاول تطوير نظريات تفسر بها الوقائع الاجتماعية . وتعتبر دراسة التفسير هى دراسة لمدى علمية العلوم الاجتماعية وقدرتها على الوقوف على قدميها فى استقلال عن العلوم الطبيعية مع احتفاظها فى الوقت نفسه بالنظرة الموضوعية وسيرها على أسس ومبادئ منهجية علمية .

وقد حاولنا فى البداية أن نعطى فكرة سريعة عن العلم فى اطاره العام ، ووجدنا أنه عملية مستمرة متطورة تقوم أساساً على

منهج : فلا يكفى معرفة نتائج العلوم ، وانما الاهم هو معرفة المخاطر والعمليات التى ادت الى تلك النتائج . ومن هنا جاء الاهتمام بمنهج العلم . فناقشنا فى هذا الاطار فلسفة العلوم الاجتماعية من حيث موضوع الدراسة ومنهج البحث الملائم وابرزنا بعض المشكلات التى لم تحسم بعد ولا زالت محل خلاف فى الراى .

ولقد كان الراى السائد بشكل عام هو ان العلم فى حاجة ، بصفة دائمة ، الى منهج للدراسة ، منهج يكون محددا منذ البداية يلتزم به الباحث ويسير على دربه حتى يصل الى نتائج تثرى المعرفة . الا ان بعض الآراء المعاصرة - التى نتفق معها ترى عدم التقيد بمنهج واحد محدد ، والمطلوب هو ترك حرية الاختيار مفتوحة امام الباحث العلمى . ان الطبيعة تكشف عن نفسها بواسطة مجموعة من المناهج وليس بواسطة منهج بعينه ، ومن الخطأ ان نقيد انفسنا مقدما (١) ويخطئ الباحث اذا ظن ان الاساطير الموجودة لدى الشعوب البدائية اسقاطات او خيالات ، وانما هى استبصارات عميقة فى داخل طبيعة الاشياء ، تفوق احيانا قدرة العلم الحديث . فالاسطورة اعمق فى النفاذ الى الواقع عن العلم الذى يظل مرتبطا بالسطح . وقد راينا كيف اكد ليفى ستروس دور الاساطير فى دراسة المجتمعات الانسانية ، واننا لنؤكد بدورنا أهمية دراسة الاعراف والعادات والمعايير السائدة فى المجتمعات كأحد العوامل المساعدة فى البحث العلمى .

ان معالجتنا لموضوع التفسير وضعنا فى قلب مشكلة العلوم الاجتماعية فتعدد الآراء وتباينها وتصارعها احيانا يرجع ولا شك الى تعقد موضوع

(1) P. Feyerabend , Against Method, Outline of an Anarchist Theory of Knowledge . London : New Left Books 1975. p. 20 .

الدراسة الاجتماعية . وبينما نجد . أن التفسير فى العلوم الطبيعية يقوم على قاعدة صلبة متمثلة فى اتفاق العلماء ، نفاجئ بعكس ذلك فى مجال العلوم الاجتماعية حيث العلماء لا زالوا مختلفين حول موضوع الدراسة وأيضا حول الموقف الذى يتخذونه بازاءه (أى المنهج) . ولا شك أن أحد المهام الخطيرة لفلسفة العلم هى حل تلك المشاكل والتقريب من وجهات النظر المتباينة . أن اصطلاح فلسفة العلوم الاجتماعية بتحليل المناهج والنظريات والافتراضات لكفيل بحل كثير من المشكلات التى تواجه العلوم الاجتماعية . وتدخل الدراسة التى قدمناها فى اطار هذه المحاولات .

ان الازمة الحالية فى التفسير ، والمتمثلة فى عدم اتفاق الآراء ، تؤثر تأثيرا سلبيا على العلوم الاجتماعية ، وتضعف من قدرتها على التطور والنمو على نحو يجعلها تلحق بركب العلوم الدقيقة .

ان طبيعة موضوع الدراسة الاجتماعية متعدد الجوانب مما يجعل الباحث مرتبطا به على نحو يصعب معه الوصول الى نظرة موضوعية وهذا ما دعى الوضعية والاتجاه الطبيعى الى الابتعاد عن موضوع الدراسة والى الاكتفاء بتطبيق المناهج التجريبية للعلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية من أجل الوصول الى تفسير سليم للظواهر . ويكفى - فى رأيهم - ان تكون تلك المناهج هى المحك الذى يقيس تطور كافة العلوم . وقد نتج عن هذا الاتجاه دعوتهم الى الشكل الاستنباطى للتفسير وأخذهم بالأسباب أو العلل فى تفسير الظواهر الاجتماعية . لقة اهتمت الاتجاهات الرضعية بالوقائع مبعدة الميتافيزيقا والايديولوجيا ، منكرة الفلسفة والنظرية ، مما ادى بها الى الاستسلام الكامل للمعطى والتعلق بالسطح دون النفاذ الى ما وراءه .

لقد اغفل هذا الاتجاه عملية الفهم واهميتها فى الدراسة الاجتماعية . ان التفسير يتطلب منا ، الى جانب كشف اسباب الفعل أو الظاهرة موضع الدراسة ، فهم هذا الفعل أو تلك الظاهرة ، ولا يتسنى هذا الا عن طريق

ادراك المعتقدات والميول المرتبطة بكل من السياق الاجتماعى والنظم الاجتماعية وقيم الافراد المنتمين الى الموقف .

ولما كانت الفنونولوجيا مغنية بالمعنى الكامن وراء الظواهر من اجل ادراك الماهيات ، فانها رفضت التفسير القائم على اعطاء الاسباب ، خاصة وانه يغفل الدوافع والاهداف ، واتجهت الى الفهم كوسيلة لكشف ما خفى ، منهجها فى ذلك الوصف والتحليل . الا ان اتجاهها هذا جعلها تغفل كثيرا من الاسئلة الهامة فى مجال العلوم الاجتماعية . وتتمثل هذه الاسئلة فى الآتى : لماذا توجد انظمة متعددة فى المجتمع ؟ ولماذا تحدث عمليات تغير اجتماعى ؟ ولماذا يتميز هذا التغير باطرادا تمعينة ؟ ... الخ . ولا شك ان الاجابة على امثال هذه الاسئلة يحتاج الى الرضول الى قوانين سببية . وقد ادى تركيز الاتجاه الفنونولوجى على المعنى ، والنموذج المثالى ، والماهية ... الخ الى الاقتراب من موضوع الدراسة الى حد يصعب معه التوصل الى نظرية اجتماعية علمية .

واذ اكانت الوظيفية ارادت الابتعاد عن موضوع الدراسة من اجل كشف الوظيفة داخل النسق الا ان ذلك ادى بها الى استبعاد العوامل الخارجية التى قد تؤثر بالفعل على هذا النسق . وقد تطور هذا الموقف الى استبعاد احد العناصر الهامة فى التفسير وهو التاريخ . ان الواقعة او الظاهرة موضع البحث ، خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية ، ليست منفصلة عن جذورها بل هى مرتبطة بما حدث من قبل تماما مثل ارتباطها بالاهداف المستقبلية .

وحاولت البنيوية التوصل الى معرفة بالعلاقات بين العناصر المكونة للموقف ، ولم تكتف بالمسطح الظاهر وانما حاولت الوصول الى النماذج او البنيات العميقة . ولا شك ان هذا الاتجاه يعد تطورا بالنسبة للاتجاهات السابقة عليه ، الا انه أهمل كما أهمل الاتجاه الوظيفى من قبل عنصر

التاريخ وتأثيره على الموقف كما استبعد الاسباب التي اذا استبعدت قلت احتمالات التوصل الى تفسيرات سليمة وكاملة .

ولا شك ان هناك علاقة جدلية بين الباحث وموضوعه ، خاصة فى الدراسات الاجتماعية ، فاذا استطاع الباحث الاقتراب من موضوعه ، وفى نفس الوقت الاحتفاظ بما يسمى « المسافة النفسية » - كما اطلق عليها عالم اللغويات تشومسكى (٢) - فان هذا يتيح بالتأكيد القدرة على التثبت والتحقق ويصل بنا الى نوع من الموضوعية .

واننا لنرى ان التفسير عملية اساسية فى منهج العلوم الاجتماعية . وكأى عملية علمية تحتاج الى ان تأخذ شكلا متفقا عليه ، وقد قدم النموذج الاستنباطى شكلا جديرا بالدراسة ، مدخلا القوانين او القضايا العامة فى مقدماته . الا ان هذا وحده غير كاف ، فالتفسير يستدعى الفهم ، ومن الخطأ القول بتعارضهما - الفهم والتفسير - فى قطبين متقابلين ، وانما لا بد ان يكمل احدهما الآخر فى علاقة جدلية داخل عملية واحدة : ان التفسير بدون الوصول الى فهم الاطار الذى تقع فيه الاحداث ودوافع وغايات الافراد ثم المعنى الكامن فى الموقف ، هذا التفسير مستحيل ، كما ان الفهم بدون ادراك العلل والاسباب وكافة العناصر الداخلة فى الموقف مستبعد .

وقد اثارت الاتجاهات الوظيفية والبنوية موضوعات هامة لا بد من اخذها فى الاعتبار عند تفسيرنا للظواهر ، فالوظيفة التى يؤديها كل عنصر فى النسق تلعب دورا لا شك فى اهميته ، كما ان ترابط البنية وشكل العلاقات التى تربط عناصره يؤثر بدرجة كبيرة ، خاصة اذا اخذنا فى اعتبارنا المستوى العميق الكامن وراء السطح الظاهر . وتتيح دراسة

(٢) تحدثنا عنه بالتفصيل فى الفصل الخامس .

البنيات الموجودة فى نسق معين ثم العلاقات بينها وبين الانساق الاخرى ،
التوصل الى دمج كافة العناصر الاجتماعية المحدودة فى اطار اوسع يضمها
جميعا ، ويتيح كشف الظواهر الاجتماعية الشاملة أو الكلية . وأهمية
الظاهرة الاجتماعية الشاملة ترجع الى كونها تشير من جهة الى الكلية
الموضوعية للمجتمع ، ومن جهة اخرى الى الوعى الذى يدرك هذا
الواقع . ان الظاهرة الكلية أو الشاملة تكشف عن الوعى فى تعقده وفى
ابداعه مما يسهل التوصل الى تفسير توليدى وديناميكى .

وعلىنا الا نغفل أهمية المعطيات التاريخية فى تفسير الظواهر
الاجتماعية . فبينما تحوى الطبيعة عوامل غير واعية تؤثر على بعضها
اللبعض وينتج عنها قوانين عامة فان المجتمع يتأثر بمجرى التاريخ ،
ويعتبر الواقع التاريخى جأ هاماً وأساسياً من الواقع الاجتماعى .

ويرتبط العامل التاريخى بالتطور والتغير ، وهو ما غفلت عنه
بعض المدارس الفكرية . واذا كان ماركس قد سبق أن كتب فى أطروحته
الشهيرة عن فيورباخ يقول : « ان الفلاسفة قد صرفوا كل اهتماماتهم
حتى الآن الى تفسير العالم على انحاء متعددة فى حين أن بيت القصيدة
هو تغييره » (٣) فاننا نضيف أن التفسير اذا سار بشكل سليم يتضمن التغير .
فاذا اخذ التفسير فى اعتباره العوامل التاريخية وتطور المجتمعات فان
معنى ذلك هو كشف التغير والتطور والازمات التى هى جزء من الظواهر
الاجتماعية التى ندرسها . ان التاريخ يرتبط بشكل مباشر بالعلوم
الاجتماعية وخاصة فى مجال التفسير . ان الموقف الواقعى الكامل
يتضمن كل من السببية والحتمية مما يتيح التوصل الى الأشكال التفسيرية
السليمة .

ان علينا من جهة أن ندرك الطابع التاريخى لموضوع الدراسة
الاجتماعى - وهو ما يميزه عن العلوم الطبيعية - ومن جهة أخرى ندخل

طرق التحليل التاريخى فى الدراسات الاجتماعية . ونستطيع القول اننا لا نستطيع ان نفهم أو نفسر أى موضوع فى المجال الاجتماعى بدون الاشارة الى التاريخ ، ولا يعنى هذا ان نرد الدراسة الاجتماعية الى علم التاريخ ، ذلك ان التفسير فى ضوء التاريخ وحده غير كاف ولا بد من الاعتبارات الأخرى التى ذكرناها من قبل (السبب ، المعنى ، الوظيفة ، المستوى العميق الخ) .

ولا يسعنا فى نهاية هذه الدراسة الا أن نقول اننا حاولنا القضاء بعض الضوء على أحد الموضوعات الهامة فى فلسفة العلوم الاجتماعية ، وقد كان يمكن لهذه الدراسة أن تأخذ اشكالا أخرى تحت نفس العنوان ، فلا توجد كلمة نهائية فى العلم ، خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية ، الا اننا نؤمن ان أى جهد وإى فكر لكفيل بوضع لبنة فى الصرح الشامل للعلم والفكر .

المراجع

اولا : المراجع العربية :

- ١ - د . أحمد أبو زيد : ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع ، عالم الفكر ، الكويت ، المجلد الثامن ، العدد الأول ابريل - مايو - يونية ١٩٧٧) .
- ٢ - د . اميره مطر : الفلسفة عند اليونان ، القاهرة ، دار مطابع الشعب ، ١٩٦٥ .
- ٣ - د . توفيق الطويل : اسس الفلسفة ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ .
- ٤ - جان بياجيه : البنيويه ، ترجمة عارف منيمه وبشير أوبرى ، بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٧١ .
- ٥ - جورج سارتون : تاريخا لعلم ، الجزء الاول ، ترجمة محمد خلف الله وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ .
- ٦ - حامد عمار : المنهج العلمى فى دراسة المجتمع ، (وصفه وحدوده) . القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠ .
- ٧ - د . حسن حنفى : الظاهريات وازمة العلوم الأوروبية ، الفكر المعاصر ، عدد ٥٩ ، يناير ١٩٧٠ .
- ٨ - د . صلاح قنصوه : الموضوعية فى العلوم الانسانية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨١ .

٩ - ف . ريدينك : ما هي ميكانيكا الكم ، موسكو ، دار ميرال للطباعة والنشر ، ١٩٧١ .

١٠ - د . زكى نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ .

١١ - _____ : المنطق الوضعي ، جزآن ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٦ .

١٢ - د . زكريا ابراهيم : قيمة العلم بين النظر والتطبيق ، الفكر المعاصر ، عدد ١٠ فبراير ١٩٦٦ .

١٣ - _____ : مشكلات فلسفية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧١ ، ص ١٢٩ .

١٤ - _____ : مشكلة البنية ، أو أضواء على البنيوية - القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٦ .

١٥ - د . على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ .

١٧ - : دور الدراسات الانسانية فى عصر العلم والتكنولوجيا ، مجلة الطليعة ، السنة العاشرة ، ابريل ١٩٧٤ .

١٨ - كارل بوبر : عقم المذهب التاريخي ، ترجمة د . عبد الحميد صبره ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٥٩ .

١٩ - د . محمد عارف : المنهج فى علم الاجتماع ، جزآن ، القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ .

٢٠ - د . محمود رجب : المنهج الظاهراتى فى الفلسفة ، رسالة
دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس . ١٩٧١ .

٢١ - د . محمود زيدان : الاستقراء والمنهج العلمى ، بيروت ،
مكتبة الجامعة الامريكية ، ١٩٦٦ .

٢٢ - د . مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول
تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة
والنشر ، ١٩٦٦ .

٢٣ - هوسرل : التأملات الديكارتية ، ترجمة د . نازلى اسماعيل
حسين ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ .

٢٤ - د . يحيى هويدى : باركلى ، القاهرة ، دار المعارف ،
نوابغ الفكر الغربى ، ١٩٦٠ .

* * *

ثانيا - المراجع الاجنبية

1 — Achinstein, P. and S. F. Barker (eds). : The Legacy of Logical Positivism. Baltimore : The John Hopkins Press, 1969.

2 — Arron, R. : Main Curents in Sociological Thought. (2) trans. by R. Howard and H . Weaver . Middle sex : Pengwin Books INC, 1972.

3 — Badcock, C. R. : Levi . Strauss, Sturcturalism and Sociological Theory. New York : Holmes and Meier publishers, 1976 .

4 — Bierstedt, R. : Emile Durkheim. New York : Dell publishing Co. INC. 1966.

5 — Borger, R. and F. and F. Cioffi (eds). : Explanation in the Behavioural Sciences. Cambridge : The University Press, 1970.

6 — Boudon, R. : The Logic of Sociological Explanation. Translated by T. Burno London : Pengwin Education, 1974.

7 — Braithwaite, R. B. : Scientific Explanation. New York? Hayer & Brothers 1953.

8 — Brown, R. : Explanation in Social Science London . Routledge and KeganPaul 1963 .

9 — Campbell, N. : What is Science ? New York Dover Publications 1952.

10 — Chisholm, R., H. Feigl , W. F. Frankena et al . :
Philosophy. New Jersey : Prentice Hall Inc. Englewood Cliffs,
1964 .

11 — Chomsky, N. : Problems of Explanation in Linguistics.
in R. Borger and F. Cioffi (eds.) . Explanation in the
Behavioural Sciences pp. 425 - 451.

12 — Churman, C. W. : On the Unification of the Social
Sciences. Proceedings of the Fourth International Conference on
the Unity of the Sciences 1975 New York pp. 101 - 110.

13 — Cohen, M. : Reason in Social Science . in H. Feigl and
M. Brodbeck Readings in the philosophy of Science pp. 663 - 673.

14 — Comte , A. : Cours de philosophie positive. (1ere et
2em Lecon) Introduction et note par Ch. Lalo Librairie Hachette,
1931 .

15 — Dore, R. P. : Function and Cause, in Ryan (ed). b The
philosophy of Social Explanation pp. 65 - 81.

16 — Dray, W. : Laws and explanation in history. Lond
Oxford University Press 1957 .

17 — Durkeim , E. Montesquieu and Rousseau transl . by
Manheim R, Michigan, University of Michigan Press 1960.

18 — Durkeim, E. : La Science positive de la morale en
Allemagne, Revue philosophique XXIV, 1887.

19 — Durkeim , E., M. Mauss : Primitive Classification, trans by Rodney Niedharm Chicago, the University of Chicago Press, 1963 .

20 — Durkeim, E. : Les Formes élémentaires de la vie religieuse Paris : Felix Alcan , 1912.

21 — Durkeim, E. Les règles de La Méthode Sociologique, Paris : Presse Universitaire de France 1949.

22 — Durkeim, E. : Evolution pédagogique en France, 11. Paris : Librairie Felix Alcan 1912.

23 — Durkeim, E. : Suicide , a study in sociology trans, by J. A. Spaulding. and Simpson London : Routledge and Kegan Paul, 1952 .

24 — Emmet, D. and A. Macintyre (eds) . : Sociological theory and philosophical analysis. London : MacMillan and Co. Ltd . 1970.

25 — Feigl, H. and M. Brodbeck May (eds) . : Readings in the philosophy of Science , New York : Appletoncentury crofs inc. 1953 .

26 — Flew, F. (ed). : Essays in conceptual Analysis, London Macmillan and Co. Ltd. 1960.

27 — Fodor, J. A . : Functional Explanation in psychology, in M. Brodbeck (ed.) . Readings in the philosophy of the Social Sciences. New York : The Macmillan Co. 1968 pp. 223 - 238.

28 — Freides, T. : Literature and Bibliography of the Social Sciences , California : Melville Publishing Co., 1973.

29 — Gibson, Q. : The Logic of Social Inquiry London Routledge and Kegan Paul 1960.

30 — Giddens, A. Functionalism : Après la lutte in social Research . Vol. 43 No. 2 Summer 1976 pp. 325 - 366.

31 — Girod , R. : Le passage de la Description à l'explication dans le cadre de la Sociologie concrète , cahiers Internationaux de la Sociologie Vol. XXI 1956, pp. 100 - 113 .

32 — Goldstein, L. J. : The two theses of methodological individualism in British Journal for the philosophy of Science Vol. IX May 1958, pp. 1 - 11.

33 — Greenwood Explanation in D. D. Runes (ed.) : Dictionary of philosophy New York philosophical Library. 1972

34 — Grawitz, M. : Méthodes des Sciences Sociales Paris : Dalloz , 1974 .

35 — Grunbaum, Causality and the Science of human behavior in H. Feigl and M. Brodbeck , Readings in the philosophy of Science New York. Appleton century crofts Inc. 1953 pp. 766 - 778 .

36 — Gruner, R. : Teleological and Functional Explanation, in Mind, October pp. 516 - 526 .

- 37 — Gurvitch, G. : Le concept de Structure Sociale. Cahiers Internationaux de Sociologie . 1955 pp. 3 - 44 .
- 38 — Gurvitch, G. : La crise de l'Explication en Sociologie Cahiers Internationaux de la Sociologie Vol, XXI, 1956 pp. 3 - 18.
- 39 — Hayek, F. A. : Degrees of explanation . British Journal for the Philosophy of Sciences. Vol. VI, August 1955, pp. 209 - 225 .
- 40 — Hempel, C. G. : Logical positivism in the Social Sciences, in The Legacy of Logical positivism, ed . by p. Achinstein and S. F. Barker, Baltimore : The John Hopkins Press, 1969, pp. 192 - 209 .
- 41 — Hempel, C. G. : Aspects of Scientific Explanation, New York. The Free Press, 1965.
- 42 — Hempel, G. C. and P. Oppenheim. : The Logic of explanation in H. Feigl and M. Scriven (ed.) Readings in the philosophy of Science New York. Apolton century cofts Inc. 1953 pp. 319 - 352.
- 43 — Hempel, C. G. : Typological Methods in the Social Sciences in Natanson (ed.) , Philosophy of the Social Sciences. a reader pp. 210 - 230 .
- 44 — Hempel , C. G. : Philosophy of Natural Sciences . New York. Prentice Hall Foundations of Philosophy :

45 — Hirst, P. Q. : Durkeim , Bernard and Epistemology
London : Routledge and Kegan Paul 1955.

46 — Homans, G. C. : The Nature of Social Science. New
York Harcourt Brace and World 1967 .

47 — Homans, G. C. : Bringing men back , in . A . Ryan
(ed). The Philosophy of Social Explanation pp. 50 ~ 64.

48 — Homans, G. C. : The relevance of psychology to the
explanation of social phenomena in R. Borger and E. Cioffi
(ed.) Explanation in the Behavioral Sciences Cambridge Univ.
Press 1970, pp. 313 - 325 .

49 — Hospers, p. Q. : What is explanation, in Essays in con-
ceptual analysis, Flew A. (ed.) London Macmillan and Co. Ltd.
1960, pp. 94 - 119 .

50 — Jeans, J. (Sir) : Physics and philosophy Cambridge
Univ. press, 1948 .

51 — Kaplan, A. : The Conduct of Inquiry . Methodoogy
for Behavioral Science, New York Chandler Publishing Co., 1964 .

52 — Kaufman, F. : Methodology of the Social Sciences.
New York. The Humanities Press 1958.

53 — Kolakowski , L. : Positivist philosophy. Translated by
Norbert Gutermen - Middlessex : Pelican Books, 1972.

54 — Kuypers, K. : The Sciences of Man and the Theory of Husserl's two Attitudes. in the Latter Husserl pp. 186 - 195.

55 — Lane. M. (ed.) : Introduction to Structuralism . New York Basic Books. Inc . Publishers , 1970.

56 — Levi - Strauss, C. : Anthropol'ogie Sturcturale. Paris Librarie Plon, 1958 .

57 — Levi - Strauss, C. : Le cru et le cuit paris : Librairie plon 1964.

58 — Levi - Strauss, C. : Critères scientifiques dans les disciplines sociales et humaines. Aletheia No. 4 Mai 1966, pp. 189 - 212 .

59 — Lukes, S. : Emile Durkeim . New York : Harper an Row Publishers, 1972.

60 — Lundberg , G. A. : The Postulates of Science and their Imp'ications for sociology . in M. Natanson (ed .) . philoeoph of the Social Sciences pp. 33 - 72.

61 — Machlup, F. : Are the Social Sciences Really Inferior in M. Natanson (ed.) . Philosophy of the Social Sciences, a reader pp. 158 - 180 .

62 — Mac Iver . : Levels of Explanation in History . in A. Brodbeck (ed.) Readnigs in the Philosogily of the Social Sciences New York : The Macmillan Company. 1968. pp, 304 - 316.

63 — Macleod, R. B. : Phenomenology . in D. L. Sills (ed.).
International Encyclopedia of the Social Sciences Vol. 12 London:
The Macmillan Company and The Free Press, 1968.

64 — Malinowski, B. : Anthropology. Eucyclopedia Britannica
Suppl. Vo 1. 1. New York and London, 1936, pp . 132 - 33 .

65 — Malinowski, B. : A Scientific Theory of Culture in
P. Wiener (ed.) : Readings in Philosophy of Science New York:
Charles Scribner's Sons . 1953, pp. 387 - 393.

66 — Martin , J. R. : The doctrine of Verstehen in Explaining,
Understanding and teaching. New York : Mc Graw Hill, 1970.

67 — Magee, B. : Popper. Glasgow : William Collins and
Sons Co. 1975 .

68 — Marcus, H. : Reason and Revolution. London:Routledge
and Kegan Paul, 1955 .

69 — Don Matindale (ed.). Functionalism in The Social
Sciences . Philadelphia : The American Academy of Political and
Social Sciences, 1965.

70 — Merton, R. M. : Manifest and Latent Functions, in
Demerath and Peterson (eds.) : System, Change and Conflict
New York : The Free Press , 1967.

71 — Nagel, E. : The Structure of Science : Problems in the

Logic of Scientific Explanation. New York, Harcourt, Brace and World Inc ., 1961 .

72 — Nagel, E. : Problems of concept and Theory Formation. in Natanson (ed.) : **Philosophy of the Social Science.** pp. 189 209 .

73 — Nagel, E. : The Logic of Historical Analysis in M. Feigl and M. Brodbeck (eds.) : **Readings in the Philosophy of Science,** pp. 688 - 700.

74 — Natanson , M. (ed.) : **Philosophy of the Social Science, a reader.** New York : Random House, 1963.

75 — Pap, A. : **An Introduction to the Philosophy of Science** London : Eyre and Spottis Woode, 1963.

76 — Poincaré . : **Science et Méthode .** Paris : Ernest Flammarion 1908.

77 — Passmore, J. : **Explanation in everyday life, in Science and in History .** in **History and Theory .** Vol. 11 No. 2, 1962, pp. 105 - 125 .

78 — Paz , O. : **Claude Lévi-Strauss. An Introduction.** Translated by J.S. Benstein and M. Benstein. London : Cornell University Press, 1970.

79 — Piaget, J. : **Le Structuralisme** Paris : P. U. F. 1968. Cornell University Press, 1970.

80 — Pivcevic. : · Husserl and Phenomenology . London :
Hutchinson University Library, 1970.

81 — Popper. K. : The Open Society and its Enemies.
Vol. II. London : Routledge and Kegan Paul, 1962.

82 — Popper, K. : The Poverty of Historicism. London :
Routledge and Kegan Paul, 1957.

83 — Popper, K. : Unity of Method in the Natural and Social
Sciences. in D. Braybrooke (ed.) . Philosophical Problems of
the Social Sciences. New York : The Macmillan Co. 1965, pp. 32
41 .

84 — Radcliffe - Brown, A. R. : Structure and Function in
Primitive Society. London : 1952 .

85 — Radcliffe - Brown, A. R. : A Natural Science of Society
Illinois : The Free Press, 1957.

86 — Raison, T. (ed.) : The Founding Fathers of Social
Science . London : Pengwin Books , 1969.

87 — Rescher, N. : Sciesantific Explanation. New York :
The Free Press, 1970 .

88 — Runciman, W. G. : What is Structuralism ? in A
Ryan (ed.) : The Philosophy of Social Explanation pp. 189 -
202.

89 — Ryan, A. (ed.) : The Philosophy of Social Explanation
London : Oxford University Press, 1973.

90 — Ryan, A. (ed.) . The Philosophy of the Social Sciences,
London : Macmillan Co. Ltd.. 1970.

91 — Sartre, J. P. : Critique de la Raison Dialectique. Paris:
Gallimard, 1960.

92 — Schutz , A. : Concept and Theory Formation in the
Social Sciences. in Natanson (ed.) Philosophy of the Social
Sciences pp. 231 - 249.

93 — O'Neill (ed.) . Modes of Individualism and Collectivism
London, Heinemann, 1973.

94 — Schutz , A. and T. Juckmann . : The structures of The
Life - World. trans by R. M. Zaner and H. T. Englehardt .
London . Heineman 1974 .

95 — Schutz, A. : The Social World and The Theory of Social
Action in Braybrook (ed.) p. p. 53 - 67.

96 — Schlick, M. : Description and explanation in philip
P. Wiener (ed.) : Readings in Philosophy of Science, New York :
Charles Scribner's Sons 1953 pp. 470 - 473.

96 — Skinner, B. F. : Is a Science of Human Behaviour
Possible ? in Philosophical Problems of the Social Sciences ed.
by D. Braybrook, New York ; The Macmillan Co. 1965 pp.
19 - 26 .

98 — Skinner, B. F. : The scheme of Behaviour explanations
in Braybrook (ed.) . pp. 42 - 52.

99 — Stroker, E. : Edmund Husserl's Phenomenology as Foundation of Natural Science, in The Latter Husserl and The Idea of Phenomenology . Papers and conference. Univ . of Waterloo Ap. 9-14, 1969 V. 2 . 1972 , pp. 245 - 257 .

100 — Spiegelberg : The Phenomenological Movement : a historical introduction The Hage : Martinus Nijhoff 1969.

101 — Stinch, Combe, A. L. : Constructing Social Theroy. New York Hancourt Brace & World Inc., 1968 .

102 — Taylor, C. : The Explanation of Purposive Behaviour. in T. Borger and Cioffi (eds.) Explanation in the Behavioural Sciences . Cambridge : The University Press, 1970, pp. 49-51.

103 — Theobald, D. W. : Introduction to the philosophy of Science. London Methuen & Co. Lth. 1968.

104 — Thion, S. : - Structurologie. Aletheia : Le Structura-
lisme No. 4 Mai 1966, pp. 219 - 227.

105 — Thompson , K : Auguste Compte. The Foundation of Sociology . New York : John Willy and Sons, 1975.

106 — Tiryakian, E. A. Sociologism and Existentialism, Engl-
wood, Cliff : Prentice Hall Inc.. 1962.

107 — Toulmin, S. E. : Foresight and Understanding : An Inquiry into The Aims of Science. New York : Harper Torop Books, 1961 .

108 — Von Wright, G. H. : Explanation and Understanding.
London : Routledge and Kegan Paul, 1971.

109 — Watkins, J. : Ideal type and historical explanation in
H. Feigl and M. Brodbeck (ed.) : Readings in the Philosophy of
Science, N. Y. Appleton century crofts Inc. 1963, pp. 723 - 743.

110 — Weber, M. : The Methodology of the Social Sciences.
trans. by E. A. Shils and H. A. Finch. Illinois : The Free Press,
1949 .

111 — Wiener, P. : Readings in Philosophy of Science. New
York : Charles Scibner's Sons, 1953 .

112 — Winch, P. The idea of a social science. London :
Routledge and Kegan Paul, 1958 .

113 — Weingartner. R. H. : The quarrel about historical
explanation in : M. Brodbeck (ed.) : Readings in the Philosophy
of the Social Sciences . New York : The Macmillan Company
1968, pp. pp. 345 - 362 .

114 — Yolton , J. W.:Explanation, in British Journal for the
Philosophy of Science Vol. 10, 1959, 60.

* * *

المحتويات

الصفحة

١١	الفصل الأول : فلسفة العلوم الاجتماعية :
١٣	تمهيد : العلم
	اولا : الآراء المتعارضة حول منهج البحث الملائم للعلوم
٢١	الاجتماعية :
	(ا) الاتجاه الأول : وحدة المنهج فى العلوم الاجتماعية
٢٣	والعلوم الطبيعية
	(ب) الاتجاه الثانى : هناك مناهج للعلوم الاجتماعية
٢٨	متميزة عن مناهج العلوم الطبيعية
٣٢	ثانيا : الظاهرة الاجتماعية او موضوع الدراسة :
٣٢	(ا) الموقف الطبيعى
٣٨	(ب) الموقف اللاطبيعى
٤١	ثالثا : مشكلات منهجية :
٤٢	(ا) شكل البحث الاجتماعى
٤٦	(ب) التعميم والتنبؤ
٥٥	(ج) القيم والبحث الاجتماعى
٦٣	الفصل الثانى : معنى التفسير :
٦٥	اولا : الآراء المختلفة فى التفسير
٧٨	ثانيا : شروط التفسير :

(أ) المتطلبات المنطقية	٧٩
(ب) المتطلبات المعرفية	٨٨
ثالثا : التفسير والعمليات المنهجية الأخرى :	٩٤
(أ) التفسير والوصف	٩٤
(ب) التفسير والتنبؤ	٩٩
(ج) التفسير والتعميم	١٠٤
الفصل الثالث : الاتجاه الوضعي :	١٠٩
تمهيد : لمحة تاريخية	١١١
أولا : اتجاه أوجت كونت ونظرته الى التفسير	١١٧
ثانيا : نظرة نقدية الى اتجاه كونت	١٢٧
ثالثا : اتجاه أميل دوركايم ونظرته الى التفسير	١٣٠
رابعا : نظرة نقدية الى اتجاه دوركايم	١٣٧
خامسا : اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية ونظرتها	
الى التفسير	١٦٤
سادسا : نظرة نقدية الى اتجاه الوضعيات المحدثة والسلوكية	١٨٩
الفصل الرابع :الاتجاه الفنونولوجي ومنهج الفهم الذاتى :	١٩٧
تمهيد : ما هى الفنونولوجيا ت	١٩٩
أولا : اتجاه فيلهلم دلتاي ونظرته الى التفسير	٢١٠
ثانيا : اتجاه ماكس فيبر ونظرته الى التفسير	٢٢١

الصفحة

ثالثا : اتجاه أدبوند هوسرل ونظرته الى التفسير	٢٣٤
رابعا : اتجاه الفرد شوتز ونظرته الى التفسير	٢٥٠
خامسا : نظرة نقدية الى الفنونولوجيا	٢٦٢
الفصل الخامس : الاتجاه الوظيفي ، والاتجاه البنيوي :	٢٧٥
تمهيد :	٢٧٧
اولا : الاتجاه الوظيفي ونظرته الى التفسير	٢٨٠
ثانيا : نظرة نقدية الى الاتجاه الوظيفي	٢٩٥
ثالثا : الاتجاه البنيوي ونظرته الى التفسير	٣٠٠
رابعا : نظرة نقدية الى الاتجاه البنيوي	٣٢٤
خاتمة	٣٣١
المراجع	٣٣٩
اولا : المراجع العربية	٣٣٩
ثانيا : المراجع الأجنبية	٣٤٢

رقم الايداع ٤٦٤٨ / ١٩١٨

دار التوفيق والنمو فقهية

للطباعة والجمع الآلات
بمصر: فضاء الوطن، جوار جامع الأزهر
ت ٩٢٥٣٠٤



Bibliotheca Alexandrina



0493826